

مع الصيام

د. سلمان العودة

مع الصيام

سلمـان العـــودة

ح مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، ١٤٣٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سلمان بن فهد

مع الصيام. / سلمان بن فهد عبد الله العودة - ط٢، الرياض ، ١٤٣٢ هـ

٣٥٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٩ - ٠ - ٩٠٢٦٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الصوم أ. العنوان

ديوي ٢٥٢,٣ ١٤٣٢ / ٨١١٦

رقم الإيداع: ١٤٣٢ / ٨١١٦

ردمك: ٩ - ٠ - ٩٠٢٦٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الإسلام اليوم

ص.ب: ٢٨٥٧٧ - الرمز: ١١٤٤٧

info@islamtoday.net

www.islamtoday.net

إصدارات الإسلام اليوم

الطبعة الثانية - شعبان ١٤٣٣هـ

الرياض:

هاتف: ٠١٢٠٨١٩٢٠

فاكس: ٠١٢٠٨١٩٠٢

بريدة:

هاتف: ٠٦٣٨٢٦٤٦٦

فاكس: ٠٦٣٨٣٠٠٥٣

جوال: ٠٥٥٥٨٦٦٠٤٤

للتواصل مع المؤلِّف:


@salman_alodah


/SalmanAlodah

salman@islamtoday.net

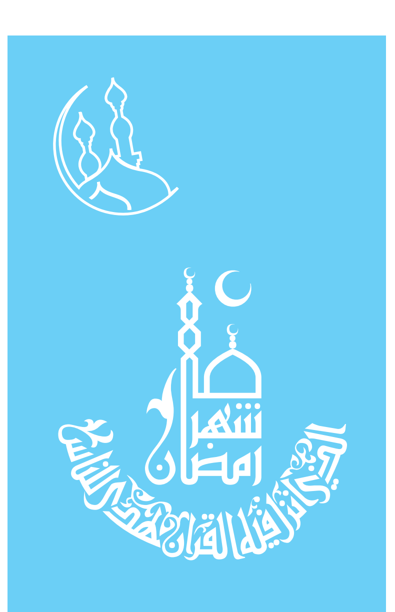
www.islamtoday.net/salman

www.youtube.com/drsalmantv

مع الصيام

د. سلمان العودة


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

رمضان دورة إيمانية مكثَّفة، يتقلَّب المسلمُ فيها بين أنواع من العبادات: صيام، وصلاة، وصدقة، وقراءة قرآن.. ومتى حصل الوعي والتفقُّه بمقاصد العبادة وأدائها على الوجه الصحيح؛ أثمرت ثمرتها في النفس، وتحقَّق أثرها في الحياة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعدُ:

فهذه أحاديث منوَّعة، ذات صلة بشعيرة الصيام، متضمِّنةٌ لمعاني هذه العبادة الفاضلة ومقاصدها؛ حتى لا تصبح عباداتنا مجرد شعائر ظاهرة، فإنما العبرة في كل عبادةٍ بالمقاصد والمعاني، قبل المظاهر والمباني.

وما يريده الله تعالى من تشريعه للعبادة أبعدُ من مجرد الحركات والسكنات، وحريٌّ بالمسلم أن يستشعر العمق الروحي والتعبُّدي للشهر الكريم.

رمضان دورة إيمانية مكثَّفة، يتقلَّب المسلمُ فيها بين أنواع من العبادات: صيام، وصلاة، وصدقة، وقراءة قرآن.. ومتى حصل الوعي والتفقُّه بمقاصد العبادة وأدائها على الوجه الصحيح؛ أثمرت ثمرتها في النفس، وتحقَّق أثرها في الحياة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

لقد كان شهر رمضان وعاء لحوادث عظيمة، ومناسباتٍ مباركة في تاريخنا المجيد، ومن أعظمها نزول القرآن الكريم، فهو شهر الذكريات العظيمة والعميقة الأثر في حياة الأمة، كما هو شهر العمل والفتح والإنجاز.

وذلك يستوجِب حفاوة خاصة بمَقْدَمِه، **وإنَّ أقوى البواعث على ذلك:** التفقه في معاني هذه العبادة، وإدراك فضائل هذا الشهر؛ حتى يكون موقعه بالمقام المحمود.

وهذه فصول ثلاثون، زيَّنتُها بمُحْكَم الآيات، وصحاح الروايات، وجميل الأبيات، ونِثار الأفكار؛ لتكون زادًا للصائم، يقرؤها مع نفسه، أو مع أهل بيته، أو جماعة حيِّه.

وكنتُ ألقيتُ فصولًا رمضانية مقتبل شهر رمضان سنة (١٤١٠هـ)، وطُبعت سنة (١٤١١هـ) باسم: «دروس رمضان، وقفات للصائمين»، ثم طُبع بزيادات وتوسع سنة (١٤٢٨هـ) باسم: «مجالس رمضانية».

ثم أعدتُ النظر مرة أخرى في الكتاب، تحريرًا وتنقيحًا وتهذيبًا وإضافةً، فزدتُ إلى هذه الفصول العديد من الملامح والأفكار، وعالجتُ بعض المستجدات؛ مستفيدًا من مراجعة ما قدَّمته في برامجي الإعلامية المتعلِّقة برمضان وخصوصيته، حيث أُقدِّم كل سنة في رمضان برنامجًا يوميًّا حيًّا، تحت عنوان: «**حجر الزاوية**»، فضلًا عن إضافات أخرى من بحوث ومقالات ودراسات منشورة ورقيًّا، أو على مواقع الإنترنت، وقد أُتيح لي الاطلاع على مجموعة مؤلَّفات في الباب، ككتاب: «مجالس رمضان» للشيخ ابن عثيمين رحمه الله، وكتاب: «نداء الريان في فقه الصوم وفضل رمضان» للدكتور سيد بن حسين العفَّاني، وكتاب «رمضان: دروس وعبر، تربية وأسرار» للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد، وقد انتفعتُ بها جميعًا.

وإنني أَطْمَحُ من قرَّاء هذا الكتاب إلى التواصل معي عبر (**الإيميل**)، أو (**الفيس بوك**)، أو أي وسيلةٍ أخرى، وكلها مبيَّنة في مَطْلَع هذا الكتاب؛ لتوصيل

أي ملحوظة أو اقتراح أو نقد أو تعديل؛ فهذه التغذية الراجعة، هي دومًا من مصادر فرحي وسعادتي، وهي تُسْهِم في تطويري ذاتيًّا، مثلما تُسْهِم في تطوير الكتاب وتحسينه، والشكر لكل مَن يقتطع جزءًا من وقته لقراءة الكتاب، أو يضيف جزءًا آخر لكتابة تعديل أو تصويب وإرساله إليَّ.

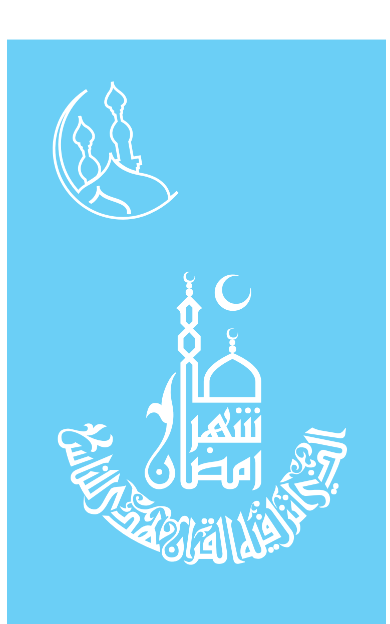
أسأل الله أن يجعل العمل صالحًا، ولوجهه خالصًا، والحمد لله رب العالمين.

سلمان العودة

كيب تاون

١٤٣٢/٦/١هـ





1

الفصل الأول

مرحبًا

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

1

الفصل الأول

مرحبًا

فُزْ بالرِّضا والعفـوِ منه تعالَى   وزدِ القلوبَ نزاهةً وجلالَا

ومُرِ الخيالَ بأن يكون حقيقةً   إن الحقائق قَبلُ كنَّ خيـالَا[1]

مرحبًا بشهر الخير والرحمة، شهر التوبة والغفران، شهر الذكر والقرآن، هذه هي الفرحة الكبرى، والنعمة المُثْلَى، والفضل الكبير، فمرحبًا به من شهر كريم، وموسم عظيم.

كيف لا يفرح المؤمنون الطائعون المُخْبِتون برمضان، وهو شهر يربُّون فيه أنفسهم على الصبر عن الشهوات، وتربية الإرادة، وتعزيز التقوى، وبعث الإيمان؟

كيف لا يفرحون وهم يستذكرون ما أعدَّه اللهُ فيه من الثواب الجزيل، والعطاء العظيم، ومضاعفة الحسنات، وتكفير الخطايا والسيئات؟

كيف لا يفرح المؤمن بصلاة التراويح، وفيها غفران الذنوب، وستر العيوب؟

كيف لا يفرح بليلة القدر، وهي خير من ألف شهر؟

كيف لا يفرح بشهر القرآن، والذكر، والتفكُّر، والتأمُّل، والروحانيات التي

(١) ينظر: «ديوان وليد الأعظمي» (ص ٤٣).

ينبعث أريجها في كل مكان، وانشراح الصدر، والطُّمأنينة، والخير، والفضل ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

قِفي ها هُنا في رحابِ الهُدَى	ولله يا نفسُ فاسْتَسْلِمي
أطَلَّ عَلى النّاسِ شهرُ الصيا	مِ فبُشْراكِ بالوافدِ المُكْرَمِ
هَلُمِّي هَلُمِّي بهِ نَحْتَفي	ونُعْلِنُ عن فرحةِ المَقْدَمِ
أعيذُكِ من نزغاتِ الهوَى	وفي مَوْسِمِ الخِصْبِ أنْ تُحرَمي
على عَتَباتِ الرِّضا والسلا	مِ أطيلي الوُقوفَ ولا تَسْأَمي
فإنْ جادَ بالعَفْوِ رَبُّ السَّما	ءِ فحسْبُكِ ذلكَ مِن مَغْنَمِ
وحسبُكِ أنَّا عَفَرْنا الجَبِيـ	ـنَ لَدَيه وفي حِصْنه نَحْتَمي(١)

يفرح المؤمنون بشهر رمضان، وتنشرح نفوسهم، وتسمُو أرواحهم؛ فهو مدرسة للتربية وإعداد النفس، والتخلِّي عن عاداتٍ مستحكمة، واكتساب أنماط من السلوك فاضلة؛ متى كنا واعين بعظمة هذه الفرصة، مُدركين أثرها. ومع الإشادة بكل بادرةِ خيرٍ من مسلم، مهما دقَّت وجلَّت؛ فإن التغيير الذي تُحدثه العبادة يمكن أن يكون تحوُّلًا جوهريًّا، وليس التزامًا طارئًا، أو حالة عابرة.

التهنئة بالشهر:

وفي بداية الشهر يتبادل المؤمنون التهاني بدخوله بعبارات مختلفة مباشرة، أو عبر رسائل الجوال، أو غيرها، وبعضهم يختار عبارات جميلة، وألفاظًا عذبة، ودعوات مباركة، وتوصيات بالحق والصبر.

والتهاني من العادات السائغة عند تجدُّد نعمة أو دفع نقمة، قال الشيخ

(١) للشاعر أحمد محمد الصديق في ديوان «نداء الحق».

عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «هذه المسائل وما أشبهها مَبْنِيَّة على أصل عظيم نافع، وهو أن الأصل في جميع العادات القولية والفعلية الإباحة والجواز؛ فلا يحرَّم منها ولا يكره، إلا ما نهى عنه الشارع، أو تضمَّن مفسدة شرعية، وهذا الأصل الكبير قد دلَّ عليه الكتاب والسنة في مواضع، وذكره ابن تيمية وغيره... والعادات والمباحات قد يقترن بها من المصالح والمنافع ما يلحقها بالأمور المحبوبة لله، بحسب ما ينتج عنها وما تثمره، كما أنه قد يقترن ببعض العادات من المفاسد والمضار ما يلحقها بالأمور الممنوعة، وأمثلة هذه القاعدة كثيرة جدًّا»[(١)].

وقال ابن القيم رحمه الله تعليقًا على قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا: «وفيه دليل على استحباب تهنئة مَن تجدَّدت له نعمةٌ دينية، والقيامِ إليه إذا أقبل ومصافحتِه، فهذه سنة مستحبَّة، وهو جائز لمَن تجدَّدت له نعمة دنيوية، وأن الأولى أن يقال له: لِيَهْنِكَ ما أعطاك الله، وما مَنَّ الله به عليك.. ونحو هذا الكلام؛ فإن فيه تولية النعمة ربَّها، والدعاء لمَن نالها بالتَّهنِّي بها»[(٢)].

والجمهور من الفقهاء على أن التهنئة بالعيد لا بأس بها، وهو أشهر الروايات عن الإمام أحمد رحمه الله، وذهب بعضهم إلى مشروعيتها.

وقال ابن قدامة رحمه الله: «قال أحمد رحمه الله: ولا بأس أن يقول الرجل للرجل يوم العيد: تقبَّل الله منا ومنك. وقال حرب: سُئل أحمد عن قول الناس في العيدين: تقبَّل الله منا ومنكم؟ قال: لا بأس به، يرويه أهل الشام عن أبي أمامة. قيل: وواثلة بن الأَسْقَع؟ قال: نعم. قيل: فلا تكره أن يُقال هذا يوم العيد؟ قال: لا.

---

(١) ينظر: «المجموعة الكاملة لمؤلفات السعدي» (ص ٢٤٨ – قسم الفتاوى)، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ١٩٦).

(٢) ينظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٨٥).

وذكر ابن عَقِيل في تهنئة العيد أحاديث منها: أن محمد بن زياد قال: كنت مع أبي أمامة الباهلي وغيره من أصحاب النبي ﷺ، فكانوا إذا رجعوا من العيد يقول بعضهم لبعض: تقبَّل الله منا ومنك. وقال أحمد: إسناد حديث أبي أمامة إسناد جيد.

وقال علي بن ثابت: سألت مالكَ بنَ أنس منذ خمسٍ وثلاثين سنة، وقال: لم يزل يُعرف هذا بالمدينة»[١].

ولا شك أن رمضان وقدومه من أفضل النِّعم.

الاستعداد لرمضان:

يستعد الناسُ لرمضان كلٌّ على طريقته:

* فمنهم مَن يستعد بإخلاص القلب، وتصحيح النية، والإقبال على العبادة، وتجريد القصد لله تعالى، والعزم على التوبة، وتأهيل النفس للانتفاع بروحانيات الشهر وإيمانياته، مع القرب من الصالحين والذاكرين.

وقلَّ مؤمن بالله ولقائه ورسله إلا ويُحدِثُ الشهر عنده فرقًا، قَلَّ أو كَثُرَ، صغُر أم كبُر، فإذا وُفِّق العبد لتعزيز هذا المعنى، وتدعيمه بالأعمال القلبية، وكثرة الاستعانة بالله، وصدقات السرِّ، والإحسان للأهل والأسرة، ورعاية الفقير والمسكين، وطلب المسامحة ممن حوله، من العاملين تحت يده، أو المشاركين له، أو أولاده وأهل بيته، أو جيرانه، وتجديد العزيمة كلما ضعفت وكلَّت، إذا وُفِّق لهذا، فهو على خير وإلى خير.

ويحسُن بالأئمة والخطباء والوعاظ أن يتقنوا وسيلة الخطاب، ويدرسوا

---

(١) ينظر: «المغني» (٣/ ٢٩٥)، و«البحر الرائق» (٢/ ١٧١)، و«مواهب الجليل» (٢/ ٥٤٨)، و«نهاية المحتاج» (٢/ ٤٠١)، و«الآداب الشرعية» لابن مفلح (٣/ ٢١٩).

نفسيات المخاطَبين ويتعرَّفوا على أحسن الطرق للوصول إلى الناس، فلا يفرطوا في التوبيخ والزجر والوعيد؛ فإن الترغيب والترهيب مثل الجناحين للطائر، لا يطير إلا بهما معًا.

وأفضل منهما: حب الله، وهو بمثابة رأس الطائر، فإذا قُطع الرأس فلا أمل فيه.

وقد نصَّ الأئمةُ على أنه في أزمنة الغفلة والإعراض، يكون الترغيب أولى وأدعى للقبول، كما ذكره ابن عبد البر، وابن باز، وغيرهم[١].

مع ضرورة تجنب المبالغة في الحديث وسوق الروايات الغريبة والقصص المنكرة، ففي مواعظ الكتاب والسنة الفضل والكفاية.

❋ ومن الناس مَن يستقبل الشهر الكريم بالتسوُّق الطويل، وشراء الحاجيات من مآكل ومشارب وتوابعها، وهو قدر حسن إذا وقف عند حد الاعتدال، فإن التوسعة على النفس والعيال والأهل من خُلق الكرام، وإنما يُفرَح بالمال لإنفاقه وبذله، والكرم والسخاء في الجنة، والبخل والشح في النار.

بيد أن رمضان فرصة للقضاء على الروح الاستهلاكية الفاشية لدى المسلمين، خصوصًا الشعوب الغنية، والحال أن كثيرين يستعدون لرمضان وكأنهم مقبلون على أزمة خانقة.

إن العادات الاستهلاكية في الطعام والشراب والأجهزة والأدوات والسيارات والملابس وسواها تحتاج إلى تصحيح، وليس حسنًا أن يدخل المرء متجرًا لشراء غرض، فيخرج بعشرة أو عشرين، لمجرد أنه قد يحتاج!

علينا المحافظة على الثروة، سواء كانت مالًا أو ماءً أو نفطًا أو غيرها من

---

(١) ينظر: «مجموع فتاوى ابن باز» (٣/ ١٠٨).

الثروات الطبيعية التي هي للأجيال القادمة أيضًا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأنعام:١٤١].

فذكر الاستعمال والأكل، وثنَّى بإيتاء الحق للآخرين المحتاجين، وثلَّث بالنهي عن الإسراف؛ وبهذا تتحقق التنمية المستدامة في كل جوانب الحياة وللجيل الحاضر والأجيال القادمة أيضًا، فهي شريكة في هذه الغنائم!

إن الشهر الكريم فرصة للكبار ليتعلَّموا الاعتدال والتوازن في الشراء والتملك والأكل والشرب والاستعمال.

وفرصة لتدريب الصغار على ذلك، فمن طبع الإنسان أن يحتقر الأشياء التي امتلكها وتمتد عينه إلى غيرها، وتغيير الجهاز المحمول أو الجوال أو السيارة لمجرد ظهور منتج جديد ليس عملًا حَصِيفًا. والحفاظ على ثروات الأرض ضرورة حياتية ومستقبلية.

وهكذا متابعة الموضة أولًا بأول وتكديس الملابس لمجرد مجاراة ما تعرضه دور الأزياء العالمية هو ضياع للمال وإهدار لاستقلال الشخصية وحضورها.

تقول تقارير: إن المواطن الخليجي يستخدم ثلاثة أضعاف المعدل الطبيعي من الماء، وهذا إسراف، والله تعالى يقول: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١].

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ مرَّ على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهو يتوضَّأ، فقال: «**ما هذا الإسراف؟**». فقال: أفي الوضوء إسراف؟! قال: «**نعم، ولو كنتَ**

على نهرٍ جارٍ»[1].

وتؤكِّد تقارير أخرى أن شعب المملكة يستهلك من الشاي والأرز ما تستهلكه دولة سكانها مائة مليون نسمة.

وتشير تقارير محلية إلى أن (٥٠ ٪) مما تقوم الأسر بإعداده من الطعام مصيره صناديق النفايات، وأن (٣٠ ٪) من الناس لا يبحثون عن الفقير، ولا عن الحيوانات لإطعامها، ولا عن الجمعيات المتخصِّصة في توزيع فائض الأطعمة!

وعادة ما يصحب هذا الإقبال على الشراء الرمضاني جشع ورفع للأسعار، مما يوجِب تشديد الرقابة على المحلات، ومعالجة الارتفاع غير المسوَّغ في أسعار السلع المستهدفة، مع دعم السلع الضرورية التي تمس الحاجة إليها.

ويحسن تذكير الباعة والتجار بتقوى الله والحرص على الكسب الحلال الطيب، ولو كان قليلًا، فيبارك الله فيه، ويزيده وينميه.

ومن أسباب الحرمان وسوء العاقبة: الإثراء على حساب الضعفاء والمساكين الذين يبحثون عن لقمة العيش لهم ولـمَن يعولون، في شهر يتسابق الموفَّقون للبذل والإنفاق وسد الـخُلَّة ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

❋ ومنهم مَن يستعد لرمضان ببرامج خاصة، كما في القنوات الفضائية والإذاعات والصحافة والمواقع الإلكترونية- وكلٌّ ينفق مما عنده- ما بين برامج هادفة ومنضبطة تبني القيم والأخلاق الكريمة، وأخرى تستهدف الربح المادي على حساب المبادئ الجوهرية، أو تستغل إقبال الناس للمنافسة على صناعة الإثارة التي لا تستثني المقدَّسات ولا تحتفل بمشاعر الآخرين، ولا تراعي حرمة

(١) أخرجه أحمد (٧٠٦٥)، وابن ماجه (٤٢٥)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٢٩٢)، و«إرواء الغليل» (١٤٠).

الشهر وقدسيته.

* ومن الشباب مَن يستعد لرمضان بالبرامج الكروية والدوريات الرياضية، ويرتبط رمضان عندهم بالملاعب المضاءة، والجماهير المحتشدة، والحماس الملتهِب، وقد يمتد السهر إلى السُّحور، وأحيانًا يواصل بعضهم إلى طلوع الشمس، في تجمعات متنوعة الأغراض.

والرياضة المتوازنة التي بها حفظ البدن، والاستعداد لمواجهة صروف الحياة مطلب، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «علِّموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية»[1]. **لكن المذموم شيئان:**

١- الإسراف والمبالغة وإضاعة الأوقات.

٢- وضع الشيء في غير موضعه.

قوة البدن من مقاصد الشريعة، والترفيه المنضبط لا تثريب فيه، بيد أن لكل شيء حدودًا، ولكل وقت وظيفة مناسبة.

وإذا سهر الشاب ليله كله في اللعب أو المشاهدة، فماذا عساه أن يصنع في نهاره؟! هل سيجد عزيمة ونشاطًا في قراءة أو درس أو عبادة أو عمل؟!

إن رمضان فرصة لكسر روتين الحياة، ولذا فهو موسم للتغيير الإيجابي، والمؤلم أن يوظَّف هذا المعنى لنقيض ما هو مأمول، وأن تضاف عادة جديدة سيئة إلى سجل عاداتٍ مُبَرْمَجَةٍ في النفس، وهي عادة السهر الذي يؤثِّر على خلايا المخ، ويُذهب نضارة الوجه، ويُحدِث آثارًا سلبية على الجلد والجسم، بل على

---

(١) أخرجه إسحاق القرَّاب في «فضائل الرمي» (١٥).
وأخرج نحوه: سعيد بن منصور (٤٥٥)، وأحمد (٣٢٣)، وابن حبان (٦٠٣٧)، والطبراني في «فضل الرمي وتعليمه» (٦)، والبيهقي (٦/ ٢١٤)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (١/ ٥٢) (٧٦).

العقل والروح، ويكدِّر صفو الإنسان وسعادته واستمتاعه، والله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:٩-١١].

الغريب أن العواصم الإسلامية تسهر كثيرًا، وعواصم العالم تنام مبكرًا، والمقارنة بين طوكيو وواشنطن ولندن، وبين الرياض ودبي والقاهرة، تُظهِر فرقًا ضخمًا، وبعض المدن تسهر حتى الفجر في رمضان وفي غيره، و﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾.

جدير بالمسلم أن يحقِّق معنى الصيام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

فإذا لم يدع قولَ الزور والعملَ به، وشهادةَ الزور، واللغو والرفث؛ فليس لله تعالى حاجة أن يدع طعامه وشرابه.

وبهذا يُعلم أن الصوم لله في نيته وقصده وأجره، ولكنه للعبد خالصًا في ثمرته وعائدته وفائدته، وكل العبادات فالله عنها وعن أهلها غني ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧].

أيُّها الصَّائم!

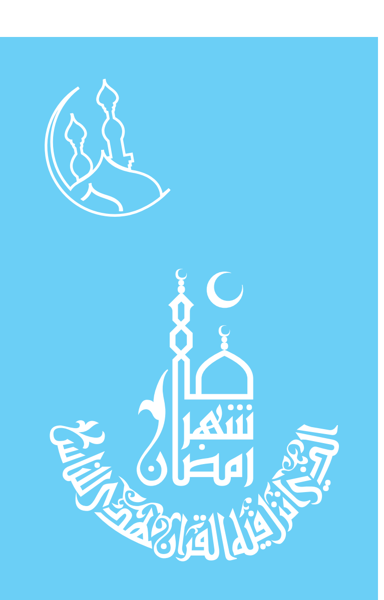
طوبى لـمَن بادر عمرَه القصير، وحاذر الغفلة والإعراض وسوء المصير.

إنها فرصة فريدة، وساعة مجيدة، ولستَ تدري هل تعود عليك مرة أخرى، أم تكون من الراحلين، وأنت تتحدَّث عن خبر الأصحاب والأصدقاء والأقارب.. أفلا يخطر ببالك أن تكون أنت حديثًا على ألسنتهم؟!

وإنما الـمرءُ حديـثٌ بعدَهُ فكُنْ حديثًا حسنًا لـمَن وَعَى[١]



(١) ينظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٣٥١)، و«تاج العروس» (١/ ١٢٢) منسوبًا إلى ابن دُريد.



2

الفصل الثاني

كتب عليكم الصيام

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ
ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا
مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا
أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ
فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ
خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾



كُتب عليكم الصيام

عبادة ربانية، وشريعة نبوية، وامتحان إيماني، يتجلَّى في هذا الشهر الكريم، كما قال مصطفى حمام:

هو للناس قاهـــرٌ دون قهــرٍ ... وهو سلطانهم بـلا سلطـانِ
قال: جوعوا نهارَكم، فأطاعوا ... خُشَّعًا يلهجـون بالشُّكـرانِ
إن أيامَــك الثلاثين تـمـضـي ... كلذيذِ الأحــلام للوسْنـانِ
كلما سرَّني قدومُـك أشـْـجا ... نـي نذيرُ الفِـراق والهجرانِ
وستأتي بعد النَّــوى ثــم تأتي ... يا تُـرى هــل لنا لقـاءٌ ثانِ؟![1]

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: هذا خطاب للمؤمنين. وغيرُ المؤمن بحاجة إلى خطاب آخر؛ فيخاطَب بالإيمان بالله وبالرسل وبالقرآن، فإن آمن أُمر بتكاليف هذا الخطاب، ولذا غالبًا ما ورد خطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في العهد المكي، وخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في العهد المدني، وإن كان يرد أحيانًا هذا

(١) ينظر: «ديوان مصطفى حمام» (ص ٥٤).

وهذا[1].

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾: هذا اللفظ من إعجاز القرآن، فمن سماع أول كلمة في الخطاب، وهي ﴿كُتِبَ﴾ يُعلم أن الصيام فرض على هذه الأمة، ثم يُعلم أنه فرض على الأمم السابقة من أهل الكتاب وأتباع المرسلين، ورغم أن الله عز وجل كتب عليهم الصيام، إلا أنك لا ترى ذلك في كتبهم بصيغة الإلزام والأمر، إنما هو مدح وثناء فقط له ولأهله، ولعل ذلك مما حُرِّف في التوراة والإنجيل.

والصيام والصوم مصدران يدلان على الإمساك والتوقف؛ قال تعالى: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم:٢٦]، وهو هنا: الإمساك عن الكلام[2].

والصوم: هو الإمساك عن المفطرات، في وقت محدود معلوم، ممن يتوجه له الحكم، مع النية[3].

وكان الصوم بمعنى الإمساك عن الطعام والشراب معروفًا عند العرب في الجاهلية؛ فقد كانوا يصومون يوم عاشوراء، وفي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يوم عاشوراء تَصومُه قريشٌ في الجاهلية، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يصومُه، فلما قدم المدينةَ صامه وأَمر بصيامه، فلما نزل رمضانُ، كان رمضانُ الفريضةَ، وتُرك عاشوراءُ، فكان مَن شاء صامه، ومَن شاء لم يصمه»[4].

---

(١) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (١٠/ ٥٢٢-٥٢٣)، و«تفسير ابن عطية» (١/ ٩٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٨)، و«الدر المنثور» (١/ ١٧٨)، و«الإتقان في علوم القرآن» (١/ ٥٥).

(٢) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٣٧٥)، و«لسان العرب» (١٢/ ٣٥٠)، و«تفسير الطبري» (٢/ ١٥٣)، و«تفسير القرطبي» (٢/ ٢٧٢).

(٣) ينظر: «البحر الرائق» (٢/ ٢٧٨)، و«حاشية الدسوقي» (١/ ٥٠٩)، و«نهاية المحتاج» (٢/ ١٤٩)، و«المغني» (٤/ ٣٢٥).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٥٠٤)، و«صحيح مسلم» (١١٢٥).

ولا يسمَّى صيامًا إذا امتنع عن بعض الأطعمة أو الأشربة أو عن النساء فقط، كما كان موجودًا عند العرب، أو كما يفعله مَن يسمَّون بالنباتيين، أو أصحاب الحِمْيَة، أو كما هو الحال عند بعض أهل الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾: يصح أن يشمل ظاهر الآية كلَّ مَن سبقنا من آدم إلى عيسى عليه السلام، وليس اليهود والنصارى فحسب، وعليه فكل مَن سبقنا كانوا يصومون؛ لكن لا يلزم أن يكون صومهم هو نفس الصوم الشرعي الإسلامي، بمعنى الإمساك عن شيء مخصوص في وقت مخصوص، ولا أن يكون فرض عليهم شهر رمضان، وإنما المقصود فرض عليهم أصل الصيام لا صفته[1].

وقوله عز وجل: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾: التقوى تبدأ بالإيمان والإسلام، فمَن آمن وأسلم فقد اتَّقى الكفر واتَّقى عذاب الله، فإذا صام فقد حقَّق ركنًا من أركان الإسلام، وحقَّق قدرًا من التقوى، ولو كان في صومه بعضُ التخريق والخلل، كما في «الصحيح»: «**الصيامُ جُنَّةٌ**»[2]. وفي بعض رواياته عند النسائي، وغيره: «**ما لم يَخْرِقْها**»[3].

وفي الآية فوائد:

الأولى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، أي: فرض، فهي أصل في وجوب صيام رمضان، وقد أجمع أهل العلم كافة على أنه يجب على المسلم المكلَّف القادر أن

---

(١) ينظر: «تفسير ابن حيان» (٢/ ٣٦)، و«تفسير الرازي» (٥/ ٥٩)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٤٦١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٨٩٤)، و«صحيح مسلم» (١١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطيالسي (٢٢٤)، وأحمد (١٦٩٠)، والنسائي (٢٢٣٣)، والحاكم (٣/ ٢٦٥) من حديث أبي عبيدة رضي الله عنه.

يصوم شهر رمضان[(١)].

والأصل في وجوبه: الكتاب والسنة والإجماع:

أَمَّا الكتاب: فهذه الآية الكريمة، **وأَمَّا السنة**: فقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**بُنِيَ الإسلامُ على خمس...**». وذكر منها: «**صوم رمضان**»[(٢)]، **والإجماع** على وجوب صيامه إجماع قطعي، منذ قيام الرسالة وعبر العصور كافة.

الثانية: أن من أسرار الصيام وآثاره: التربية على التقوى[(٣)]؛ فإن الله عز وجل لم يشرع العبادة لنتعذب بها، أو يصيبنا منها الحرج والمشقة بالامتناع عما نشتهي، ولكن لحكمة التربية على مراقبة الله عز وجل في السر والعلن والصبر على ذلك، وأن نترك الشيء لأجله سبحانه، حتى لو كان محبوبًا مشتهى في النفوس.

فالتربية على الأخلاق الحميدة لا تخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه، حتى تصير مكارم الأخلاق مَلَكة لَمن راضَ نفسَه عليها، وما أحسن قول القائل:

إذا المـرءُ لم يَتْرُكْ طعامًـا يُحِبُّـه ... ولم يَنْهَ قلبًا غاويًا حيثُ يَمَّمَا

فيُوشكُ أن تُلفَى له الدهرَ سُبَّةٌ ... إذا ذُكِرَتْ أمثالُها تَمـلأُ الفَمَا[(٤)]

---

(١) ينظر: «المغني» (٤/ ٣٢٣)، و«مراتب الإجماع» (ص٣٩).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٨)، و«صحيح مسلم» (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) ينظر: «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٣)، و«نداء الريان في فقه الصوم وفضل رمضان» للدكتور سيد حسين العفاني (١/ ١٨)، و«مجالس شهر رمضان» للشيخ ابن عثيمين (ص٤٨)، و«رمضان: دروس وعبر، تربية وأسرار» للشيخ محمد إبراهيم الحمد (ص١٩).

(٤) ينظر: «المجالسة» للدينوري (٣/ ١٤٠٦)، و«تاريخ دمشق» (٤٦/ ١٨٦)، و«الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني (٩/ ٧٢) منسوبًا إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه، ونسب إلى غيره. ينظر: «أمالي القالي» (٢/ ١١٨).

وأعظم ما يدمِّر حياة المرء هو الاسترسال مع ما يحب ويشتهي، دون نظرٍ إلى فائدته أو ضرره، فيعتاد على طاعة نفسه ويسلِّم القياد لها، ويكره كل عمل يتطلَّب جهدًا أو مشقة أو سهرًا أو عناءً.

فمَن امتنع عن مشتهى نفسه من أكل وشرب وغيره مما أحله الله، طاعة لربه، وقُربة له وتعبُّدًا؛ تعزَّز في قلبه نفورٌ وابتعادٌ عمَّا هو محرم في الأصل، وإلا فما معنى أن يترك الصائم ما طاب مما أحلَّه الله من طعام وشراب وغيره، ثم هو يقع في غيبة ونميمة، وسوء ظن، وعقوق، وشتم وسب، وغش وتحايل، وغير ذلك مما حرمه الله في رمضان وغيره؟

الثالثة: مَن تأمَّل سورة البقرة وجد سياقًا طويلًا عن جدل اليهود، وتلاعبهم وتلوِّمهم وعنادهم، وقتلهم أنبياءهم، واختلافهم عليهم، وهذا نزل أول مَقْدَم الرسول ﷺ إلى المدينة، ثم يذكر الله عز وجل في وسط ذلك كله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، فما سرُّ ذلك، مع أن المسلمين لم يكونوا في حالة ارتياح أو أُنْس مع مَن كانوا قبلهم؟

الظاهر -والله أعلم- هو تربية المسلمين على الفرز والفصل والعدل في التعامل، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الإسراء:١٥]، وقول النبي ﷺ: «**أما إنه قد صدقك وهو كذوبٌ**»[(١)]. وأن المسلم أولى باتباع الحق، وأن مَن كره أحدًا، فلا يجحد ما عنده من خير وفضل.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٣١١)، و«الدعوات الكبير» للبيهقي (٤٠٦)، و«شعب الإيمان» (٢١٧٠)، و«فتح الباري» (٤/ ٤٨٧-٤٨٨).

وهذا كقوله سبحانه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨]. فالطواف إما ركن أو واجب[١]، وقد كانوا في الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة، ويهلُّون لأصنامهم؛ فتحرَّج المسلمون أن يفعلوا ذلك وتوقفوا فيه، فذكر الله سبحانه أنه لا جناح عليهم في ذلك، وإن كان موجودًا في الجاهلية، إلا أنه من آثار الأنبياء.

ومثله صوم المسلمين لعاشوراء، فاليهود كانوا يصومونه ويعظِّمونه؛ كما ثبت في «الصحيح»، فقال ﷺ: «**فأنا أحقُّ بموسى منكم**». فصامه وأمر بصيامه[٢].

الرابعة: قوله عز وجل: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: فيه تعظيم وبيان لأهمية شعيرة الصيام؛ فإن الله عز وجل لا يشرع شيئًا لجميع الأنبياء والرسل والأمم السابقة، إلا ويكون عظيمًا ومهمًّا؛ ولهذا اتفق جميع الرسل والأنبياء على الدين العام، وإن اختلفت تفاصيل الشرائع، وفي «الصحيحين»: «**الأنبياءُ إِخوةٌ من عَلَّاتٍ، وأمهاتهم شتى، ودينُهم واحدٌ**»[٣]. ومن هذا الدين العام الصوم؛ فيشعر المسلم أنه يؤدِّي شعيرة عظيمة، اتفق عليها جميع الأنبياء.

الخامسة: أن المسلم إذا علم أنه لم يُخصَّ بهذه الشعيرة وحده، وأن الأنبياء كلهم صاموا، والأمم من قبله صامَت؛ كان ذلك عزاءً وتسليةً له، وتقويةً لقلبه على الصيام الذي أُمر به كما أُمر به مَن كان قبله من الأمم.

---

(١) ينظر: «المبسوط» (٤/ ٦٧)، و«حاشية الدسوقي» (٢/ ٢٦)، و«المجموع» (٨/ ١٢)، و«المغني» (٤/ ٣١١)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٤/ ٣٤٣).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٠٠٤)، و«صحيح مسلم» (١١٣٠).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٤٤٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣٦٥).

وأولاد العلَّات: الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد. أراد أن أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة.

السادسة: في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾: الصيام الشرعي معروف؛ لكنه في هذه الآية غير محدَّد بزمن ولا عدد، ولهذا نُقل عن بعض السلف أن الصيام كان في أول الإسلام مطلقًا غير محدَّد.

وقيل: ثلاثة أيام من كل شهر[1]. وقد تقدَّم أنهم كانوا قبل الإسلام يصومون عاشوراء، فلعل ذلك كان المرحلة الأولى من الصيام[2].

السابعة: التدرُّج في التشريع؛ قال ابن العربي: «الشرع لم يأت دفعة، ولا وقع البيان في تفصيله في حالة واحدة؛ وإنما جاء نجومًا وشُذِّر شذورًا؛ لمصلحة عامة وحكمة بالغة»[3].

وهذا من خصائص شريعة الإسلام في المأمورات كالصلاة، وفي المنهيات كالخمر، فالصلاة كانت في بادئ الأمر ركعتين ركعتين، فزيدت في الحضر وبقيت في السفر، كما في «الصحيحين» عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «فَرَضَ اللهُ الصلاةَ حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأُقِرَّتْ صلاةُ السفر، وزِيد في صلاة الحضر»[4].

والخمر لم يحرِّمها الله عز وجل دفعة واحدة؛ بل على ثلاث مراحل[5].

وفي آية الصوم معنى عجيب؛ فإن الله عز وجل خاطبهم بالإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) وهو مروي عن معاذ وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، وعطاء وقتادة والضحاك. ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٤٩٧)، و«الدر المنثور» (٢/ ٧٦).

(٢) ينظر: «الدر المنثور» (٢/ ١٧٢).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٩٤).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٥٠)، و«صحيح مسلم» (٦٨٥).

(٥) ينظر: «الحاوي الكبير» (١٣/ ٣٨٧)، و«تفسير الزمخشري» (١/ ٦٧٤- ٦٧٥)، و«تفسير الطبري» (٧/ ٣١)، و«تفسير القرطبي» (٦/ ٢٨٥).

﴿ءَامَنُوا﴾ وهذا فيه نوع من إثارة الإيمان بربهم، وتشجيعهم وحثهم على السماع والتنفيذ، ثم الإشارة إلى أنه كُتب عليهم، وهذا فيه حث لهم؛ لأنه لو كان هذا الأمر مسنونًا أو مستحبًّا، فربما فرَّط فيه بعض الناس، ويعلم المستمع أن الكاتب هو الله الخالق سبحانه، فيحثُّهم هذا على الامتثال.

ثم يقول: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: هذا أمر لم تنفردوا به عن غيركم.

ثم يُبين سبحانه وتعالى أنهم هم المقصودون، وأن المصلحة لهم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

ثم يؤكِّد أن الأمر لا يتجاوز أيامًا معدودة، أي: قليلة، ومع أنها أيام معدودة إلا أن فيها ألوانًا من الرخص؛ ففي أول الإسلام كان هناك رخصة لـمَن لا يريد الصيام أن يفتدي، وحتى بعد ذلك لا زالت الرخصة قائمة إلى اليوم لـمَن كان مريضًا أو على سفر أن يفطر ويصوم عدة من أيام أخر، ثم يعقِّب سبحانه ذلك كله بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

ففي الآية الكريمة ألوان من التدرُّج ومراعاة أحوال الناس ونفسيَّاتهم، واختيار الطرق المثلى في التأثير عليهم.

وفي هذا درس كبير للدعاة؛ فالله سبحانه وتعالى وهو يأمر عباده ويكلِّفهم بشعيرة هي ركن من أركان الإسلام، جعل في هذه الآية ما يزيد على اثني عشر دربًا من دروب التدرُّج، والترغيب، والتحضيض، والتحبيب، والتهوين على العباد؛ فكذلك الداعية ينبغي أن يحرص على تسويق دعوته إلى الناس بالحسنى، وأن يتدرَّج إليهم ويحرص على هدايتهم من أقرب الطرق، وأسهل الأبواب والأسباب.

وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن سيرة، وهَديه أكمل هَدي، وسنته أعظم سنة،

جعل الله فيها خاصية يشعر معها الإنسان بقرب تناولها وتطبيقها؛ فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، قد غَفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدُهم: أما أنا، فإني أصلِّي الليلَ أبدًا. وقال آخر: أنا أصومُ الدهرَ ولا أفطرُ. وقال آخر: أنا أعتزلُ النساءَ، فلا أتزوجُ أبدًا. فجاء رسولُ الله ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم له؛ لكني أصومُ وأفطرُ، وأصلِّي وأرقدُ، وأتزوجُ النساءَ، فمَن رغب عن سنتي فليس منِّي**»[(١)].

نعم، وُجد عند السلف رحمهم الله أشياء ليست خارجة عن السنة، ولا هي من اتباع السنة، ولكنهم قد يأخذون أنفسهم بالجِدِّ في بعض الأمور؛ فيكون عند أحدهم جانب من القوة في شعيرة السلوك والزهد والإعراض عن الدنيا، أو العلم والتحصيل، أو الإنفاق أو الجهاد؛ فإذا نظرت إلى سيرة واحد منهم خُيِّل لك أنك لن تستطيع اللحاق به؛ لكن إذا نظرت إلى سيرة سيدهم وإمامهم وقدوتهم محمد ﷺ، شعرت أنها في المتناوَل، قريبة المأخذ، ممكنة الاتباع، وهذا درس كبير في تقريب الأمر إلى الناس وتسهيله عليهم، سواء كان أمر دعوة، أو تعليم، أو إصلاح أو خير. وليس من المصلحة للناس أن نشعرهم وهم يُقبلون على وجه من وجوه الخير، أنهم داخلون في باب صعب يعزُّ عليهم المضي فيه؛ بل ينبغي تحفيزهم ودعم إرادتهم وهممهم، وإذا دخلوا فيه وجدوا العون من الله تبارك وتعالى.

الثامنة: الفرق الشاسع والبون العظيم بين أمة محمد ﷺ وبين بني إسرائيل، فبنو إسرائيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

﴿بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧]. لم يأتمروا بأمر الله مباشرة؛ بل شدَّدوا فشدَّد الله عليهم، بينما الصحابة رضي الله عنهم عندما قال الله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ...﴾ [البقرة:١٨٣]، صاموا حسب وسعهم وفهمهم واستطاعتهم، ولم يتردَّدوا.

التاسعة: قال الله عز وجل: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤].

والمرض ما يخرج به الإنسان من الصحة إلى الاعتلال.

والمرض المبيح للفطر عند جمهور العلماء، ومنهم الأئمة الأربعة، هو ما يزيده الصيام أو يؤخِّر بُرأه وشِفاءه، أو يشق مشقة ظاهرة على المريض[١].

والسفر هو مفارقة الإنسان وطنه وأهله مسافة معتبرة، سواء خُصِّصت بعدد من الكيلو مترات والأيام، كما هو رأي جمهور الأئمة، ومنهم الأئمة الأربعة[٢]، أو أُحيل فيها إلى العرف، كما هو اختيار جماعة من السلف، وترجيح ابن تيمية وابن القيم وجماعة[٣].

وقد غاير السياق القرآني بين اللفظين، فقال: ﴿مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، ولم يقل: (مريضًا أو مسافرًا)، وفي هذا إشارة إلى أن رخصة المريض آكد، ولهذا قدَّمه في الآية، وذكر الوصف المسبِّب للرخصة؛ لأن الصوم قد يشق عليه وقد يضره أو يؤجِّل برأه.

---

(١) ينظر: «بدائع الصنائع» (٢/ ٢٩٤)، و«تحفة الفقهاء» للسمرقندي (١/ ٣٥٨)، و«القوانين الفقهية» (ص ٨٢)، و«العزيز» للرافعي (٦/ ٤٣١)، و«المغني» (٣/ ١٥٥).

(٢) ينظر: «البحر الرائق» (٢/ ٣٠٤)، و«بداية المجتهد» (٢/ ٥٩)، و«مغني المحتاج» (١/ ٥٣٥).

(٣) ينظر: «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٢/ ٣٣٨)، و«زاد المعاد» (١/ ٤٦٣)، و«بداية المجتهد» (٢/ ٥٩)، و«المغني» (٣/ ١١٦).

و﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: تدل على التمكُّن والحدوث، فلا يفطر إلا إذا سافر فعلًا، وصح أن يسمَّى مسافرًا، أما ما دام في بلده فلا يفطر.

وكأن من أسرار التفريق بين اللفظين، أن المرض من الله ولا إرادة للإنسان فيه، ولذا عبَّر بالمريض، أما السفر فهو فعل بإرادة الإنسان، ولذا قال: ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، وكأنه راكب على السفر، وليس على الدابة أو السيارة أو الطائرة، وهو دليل على أن كل سفر يبيح الفطر، بغَضِّ النظر عن مقصود السفر، وهل هو ضروري أم للمتعة أم لغير ذلك، وحتى لو كان مرفَّهًا ومرتاحًا في سفره.

العاشرة: قوله جل وعلا: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، لم يقل سبحانه: (فصيام من أيام أخر)؛ ليدل على أن مَن أفطر أيامًا من رمضان، فإنه يقضي أيامًا بعددها فقط، ﴿فَعِدَّةٌ﴾ أي: بعدد ما أفطر، وقول بعضهم: مَن أفطر يومًا فإنه يصوم عشرة أيام. باطل لا أصل له[1].

ويُؤخذ منها أنه لا يلزم التتابع في القضاء؛ فإن الله عز وجل قد طلب منا شيئًا واحدًا، وهو أن تكون أيام القضاء بعدد أيام الفطر، ولم يذكر شرطًا آخر، وهو مذهب الجمهور، وهو الصحيح[2].

ولو صام في أي شهر لقضى ما عليه، ولا يلزم أن يقضيها مباشرة بعد رمضان، وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يكونُ عليَّ الصومُ من رمضانَ، فما أستطيعُ أن أقضيَ إلا في شعبان»[3].

---

(١) ينظر: «البحر الرائق» (٢/ ٣٠٧)، و«بداية المجتهد» (١/ ٢٩٥)، و«المجموع» (٦/ ٢٦٣)، و«المغني» (٣/ ٣٦)، و«كشاف القناع» (٢/ ٣١٠).

(٢) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٤٢٣)، و«بداية المجتهد» (١/ ٢٩٨، ٢٩٩)، و«المجموع» (٦/ ٣٦٧)، و«المغني» (٣/ ٩١).

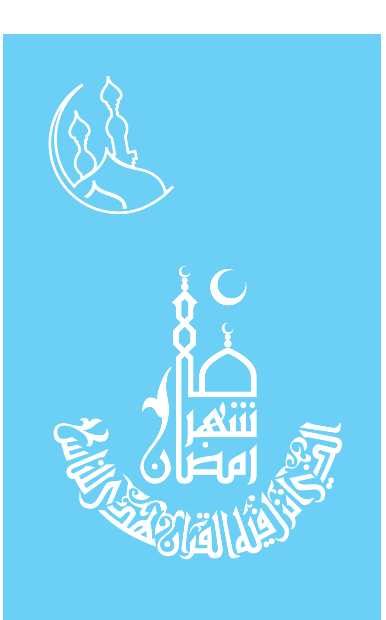
(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٥٠)، و«صحيح مسلم» (١١٤٦).



إنه جديرٌ بالمسلم الذي يمضي نهار رمضان صائمًا، وربما شعر بالعطش وتقلَّصت شفتاه، أو شعر بالجوع واشتهى وجبة طعام؛ أن يستشعر المعنى الذي لأجله فعل هذا.

وأجمل ما يحقِّق هذا هو تأمُّل الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة الواردة في فضل الصيام وحكمته وأثره، واستشعار أنه المخاطَب دون سواه؛ ليتحقَّق بذلك كون الصيام مدرسة تربوية لصناعة الأخلاق وتعزيز الإرادة وبناء الشخصية الإنسانية الفعَّالة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].





3

الفصل الثالث

ربانية الصوم

«كلُّ عمل ابن آدمَ له، إِلَّا الصومَ،
فإنه لي، وأنا أجزي به»



ربانية الصوم

نخطُو وما خَطوُنا إلَّا إلى الأجلِ ... وننقضي وكأنَّ العمرَ لم يطُلِ

ونستلذُّ الأماني وهي مُرْوِيةٌ ... كشارب السُّمِّ ممزوجًا مع العسلِ[١]

إنَّ الصومَ عبادةٌ شريفة، ويكفيه شرفًا أن الصوم لم يُعبَد به غيرُ الله؛ ففي حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**يقولُ الله** عز وجل: **الصومُ لي، وأنا أَجْزِي به**»[٢].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «سبب الإضافة إلى الله؛ أن الصيام لم يُعبَد به غيرُ الله، بخلاف الصلاة والصدقة والطواف ونحو ذلك»[٣].

وكأنه يبعد فيه الرياء؛ لأن المرائي يقدر أن يفطر سرًّا، ولأن الصوم لا يقع إلا بالنية، والمرائي غير ناوٍ للصيام؛ ولأنه سرٌّ بين العبد وربه لا يعلمه الناس، بل يعلمه الله عز وجل[٤].

والصوم مدرسة ربانية، ومحضن إيماني، يتلقَّى فيه الصائم دروس الأخلاق،

---

(١) ينظر: «ديوان الشريف الرضي» (ص٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٩٢)، ومسلم (١١٥١).

(٣) ينظر: «فتح الباري» (٤/ ١٠٨).

(٤) ينظر: «نداء الريان» (١/ ٥٢).

ويتربَّى على جميل الطباع، وما أطيب أن يتعاقد الصائم مع نفسه منذ أول الشهر على أن يُعنى بواحد أو أكثر من الأخلاق الرفيعة، فيتعاهد نفسه ويراقبها ويحاسبها ويعاتبها، حتى تلين وتنقاد، كما قيل:

ما إن دَعاني الهوى لفاحشةٍ إلا نهاني الصيامُ والكـرمُ
فلا إلى مُنكرٍ مَـددْتُ يـدِي ولا مشت بي لرِيبَـةٍ قـدَمُ[(١)]

قال ابن الجوزي رحمه الله: «كان ابن عَقِيل يقول: إن التبذُّل فيه سبحانه أحسن من التجمُّل في غيره.

هل رأيتَ قطُّ عُراةً أحسنَ من المُحْرِمين؟! هل رأيتَ للمُتزيِّنين برِيَاش الدنيا سَمْتًا كأثواب الصالحين؟! هل رأيت خُمَارًا[(٢)] أحسنَ من نُعاس المُتهجِّدين؟! هل رأيتَ سُكْرًا أحسنَ من صَعْق الواجدين؟! هل شاهدتَ ماءً صافيًا أصفى من دموع المتأسِّفين؟! هل رأيتَ رؤوسًا مائلة كرؤوس المُنْكَسِرين؟! هل لُصِق بالأرض شيءٌ أحسنَ من جِباه المصلِّين؟! هل حرَّك نَسِيمُ الأسحار أوراقَ الأشجار؛ فبلغ مبلغُ تحريكه أذيالَ المُتهجِّدين؟! هل ارتفعت أكفٌّ، وانبسطت أيدٍ، فضَاهَت أكفَّ الراغبين؟! هل حرَّك القلوبَ صوتُ ترجيع لحن أو رَنَّةُ وَتَر، كما حُرِّك حنينُ المشتاقين؟! وإنما يَحسُن التبذُّل في تحصيل أوفَى الأغراض؛ فلذلك حسن التبذُّل في خدمة المُنْعِم»[(٣)].

فالصوم صدمة روحية، وهذا سر من أسراره لمَن لم يتعوَّد أن ينكفَّ عن

---

(١) ينظر: «اعتلال القلوب» للخرائطي (١/ ٦٢)، و«ذم الهوى» لابن الجوزي (ص٢٣٨) منسوبًا إلى علي بن الحسن الإِسْكافي. ونُسب إلى المبرّد، كما في «ربيع الأبرار» (٣/ ٤١٩)، و«حياة الحيوان الكبرى» (١/ ٤١١)، و«المستطرف» (٢/ ٣٥١).

(٢) الخُمار: ما يعقب شرب الخمر من صداع وأذى.

(٣) ينظر: «صيد الخاطر» (ص٤٣٢).

الحرام، وربما كان مدمنًا، فيفطمه الصيام عن الحلال أيضًا، ويذكِّره بالمعاني الربانية.

والعلاج بالصدمة مفيد ومجرَّب في حالات عديدة، والصدمة هنا مدروسة ومرتَّبة ومتدرِّجة، يشارك فيها المريض ذاته، حين يستجمع إرادته عل الدخول في تجربة جديدة بالصيام الربَّاني الصادق.

غضُّ البصر عن محارم الله:

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

وعن عبادةَ بن الصَّامت رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «**اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمنْ لكمُ الجنة: اصدُقوا إذا حدَّثتم، وأَوْفُوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا ائتُمِنتم، واحفظوا فروجَكم، وغُضُّوا أبصارَكم، وكُفُّوا أيديَكم**»[(١)].

وقال النبيُّ ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**يا عليُّ، لا تُتْبِع النظرةَ النظرةَ؛ فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة**»[(٢)].

وفي «صحيح مسلم» عن جَرِير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «سألتُ رسولَ الله ﷺ عن نظر الفُجَاءة، فأمرني أن أصرفَ بصري»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧٥٧)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١٩٣)، وابن حبان (٢٧١)، والحاكم (٤/ ٣٥٨-٣٥٩)، والبيهقي (٦/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٧٣)، وأبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وابن حبان (٥٥٧٠)، والحاكم (٢/ ١٩٤).

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٢١٥٩).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «حفظُ البصر أشدُّ من حفظ اللسان»[١].

وقال أيضًا: «الإثمُ حَوَازُّ القلوب، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع»[٢].

وما أكثر المناظر التي أصبح من المحتم فِطام النظر عنها؛ فالقنوات التي يتفنَّن القائمون عليها باختيار الوجوه الحسان، والقامات الرشيقة، والأصوات الناعمة، والمواقع الإلكترونية المختلفة والتي يصل بعضها إلى حد الإباحية، ونشر الرذيلة والعُري، والمتاجرة بالأجساد، والأسواق التي تكتظ بالنساء، وفيهن المحجبة العفيفة المصونة، والمتبرِّجة المتطلِّعة الفاتنة المفتونة، حتى أصبحت مجاهدة النفس على غض البصر من أهم المهمات، وصار الفشل فيها لدى الشباب ذريعة إلى الوقوع في الفحشاء، والانقطاع عن عمل الخير، وضعف تأثير العبادة كالصوم والصلاة، وسبب لكثير من المعاناة والضيق وكدر الحياة.

ولغض البصر عما حرم الله فوائد، منها:

١- أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده.

٢- وهو يمنع وصولَ أثر السهم المسموم الذي ربما هلاكُ قلبه فيه.

٣- ويورث القلب أُنْسًا بالله.

٤- ويُقوِّي القلبَ ويُفرحه، كما أن النظر إلى المحرمات يُضعف القلبَ ويُحزنه.

٥- ويكسب القلب نورًا، كما أن إطلاقه يورثه ظلمة.

٦- ويورث الفراسة الصادقة التي يُميِّز بها بين المحقِّ والمبطل، والصادق والكاذب.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٦١).

(٢) أخرجه هنَّاد في «الزهد» (٩٣٤)، وأبو داود في «الزهد» (١٢٥)، والطبراني (٨٧٤٩)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦١٣).
وحواز: هي الأمور التي تحز، أي: تؤثِّر.

٧- ويورث القلب شجاعة وقوة، فيجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة.

٨- ويسدُّ على الشيطان مدخلَه إلى القلب؛ فإنه يسرع إلى القلب مع النظرة أسرع من الهواء إلى المكان الخالي.

٩- ويفرِّغ القلب إلى مصالحه، والاشتغال بها.

وعلى الشاب ألا ييأس ولا يستسلم، ولو أغراه الشيطان فتسلَّل إلى موقع، أو رمى نظرة إلى صورة؛ وليدمن الاستغفار، ويجعله على لسانه في الليل والنهار، ولا يحرم نفسه من الانضمام إلى قافلة ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]؛ فللاستغفار سر عجيب، من محو آثار النظر، وصفاء القلب، وتجديد العزيمة، وبسط سلطان السعادة على النفس، والحمد لله الذي شرع للمؤمنين التوبة، وحفَّزهم على الاستغفار، ووعدهم بالعفو[(١)].

ومنها حفظ اللسان:

قال النووي رحمه الله: «اعلم أنه لكلِّ مكلَّف أن يحفظَ لسانَه عن جميع الكلام، إلا كلامًا تظهرُ المصلحة فيه، ومتى استوى الكلامُ وتركُه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجرُّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه؛ بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدلُها شيء»[(٢)].

وعن ثَوْبان رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ [التوبة:٣٤] قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: أُنزل في الذهب والفضة ما أُنزل، لو علمنا أيُّ المال خير فنتخذه؟

(١) ينظر: «ذم الهوى» لابن الجوزي (ص١٤٤)، و«الجواب الكافي» (ص١٢٧)، و«روضة المحبين» (ص١٠٤)، و«رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص١٦٤).

(٢) ينظر: «الأذكار» للنووي (ص ٣٣٢).



فقال: «**أفضَله لسانٌ ذاكرٌ، وقلبٌ شاكرٌ، وزوجةٌ مؤمنةٌ تعينه على إيمانه**»[(١)].

وفي المتفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر، فليقلْ خيرًا أو ليصمت**»[(٢)].

وفيهما: قال النبيُّ ﷺ: «**المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمونَ من لسانه ويده، والمهاجرُ مَن هجرَ ما نهى الله عنه**»[(٣)].

وفيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «**إن العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمة، ما يتبيَّنُ فيها، يَزِلُّ بها في النار أبعدَ مما بين المشرق والمغرب**»[(٤)].

وفي «المسند»، و«جامع الترمذي»: «**أمسكْ عليك لسانَكَ، ولْيَسَعْكَ بيتُكَ، وابكِ على خطيئتِكَ**»[(٥)].

وفيهما: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا معاذُ! وهل يَكُبُّ الناسَ على وجوههم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم**»[(٦)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما من شيء أحقُّ بطول سجن من اللسان»[(٧)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣٩٢، ٢٤٤٧٠)، والترمذي (٣٠٩٤)، وابن ماجه (١٨٥٦).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٠١٨)، و«صحيح مسلم» (٤٧).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٩)، و«صحيح مسلم» (٤٠).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٤٧٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٨٨).

(٥) أخرجه أحمد (٢٢٢٣٥)، والترمذي (٢٤٠٦)، والطبراني (١٧/ ٢٧٠) (٧٤١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٨٤)، وينظر: «فتح الباري» (١١/ ٣٠٩).

(٦) أخرجه الطيالسي (٥٦١)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، والحاكم (٢/ ٤١٣)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤١٢).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٣)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٥)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٤٩٣)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٣٦٢)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص ٤٨)، والطبراني (٨٧٤٦، ٨٧٤٧).

ويُروى أن قُسَّ بن ساعدةَ وأَكْثَمَ بنَ صَيفِي اجتمعا- وهما من حكماء العرب- فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تُحصى، والذي أحصيتُه ثمانية آلاف عيب، ووجدتُ خصلةً إن استعملتها سترت العيوب كلها. قال: ما هي؟ قال: «حفظ اللسان»(١).

ومن آفات اللسان:

١- الطعن في الأنساب الثابتة في ظاهر الشرع، والفخر بالأحساب، وإثارة النزعات العنصرية والقبلية والإقليمية التي تفرِّق وحدة المجتمع والأمة، مع قوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، والحسب: هو التقوى والعلم وحسن الخلق، وليس أن يكون أبوك فلانًا أو فلانًا!

٢- الكذب، وقد قال ﷺ: «.. **إياكم والكذبَ؛ فإن الكذبَ يَهْدِي إلى الفجورِ، وإن الفجورَ يَهْدِي إلى النارِ، وما يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يُكْتَبَ عند الله كذَّابًا**»(٢).

٣- التحديث بكل ما سمع إذا لم يظن صحته، وفي «صحيح مسلم»: «**كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكل ما سمع**»(٣). وفي محكم التنزيل: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]، وفي قراءة: (فَتَثَبَّتُوا)(٤).

---

(١) ينظر: «الأذكار» للنووي (ص ٣٣٥).
وينظر: «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٣٤)، و«نداء الريان» (١/ ٣٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٤، ٢٦٠٧)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٥)، و«سنن أبي داود» (٤٩٩٢)، و«صحيح ابن حبان» (٣٠)، و«غرر الفوائد المجموعة» للرشيد العطار (ص ٣٠٩-٣١١)، و«الإلزامات والتتبع» للدارقطني (ص ١٣٠)، و«علل الدارقطني» (٥/ ٣١٧)، (١٠/ ٢٧٥-٢٧٦)، و«شرح النووي على صحيح مسلم» (١/ ٢٧٢)، و«فتح الباري» (١٠/ ٤٠٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٣٦١)، (٢١/ ٣٤٩)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ١١٤، ١٣٠)، و«حجة القراءات» (ص ٢٠٩)، و«معجم القراءات» (٩/ ٧٩).

٤- إظهار الشماتة بالمسلم.

٥- احتقار المسلمين والسخرية منهم بأشكالهم أو صورهم أو طريقة حديثهم.

٦- شهادة الزور، وشهوده: حضوره، ومثله: الشهادة أمام القاضي بغير الحق.

٧- المنُّ بالعطية ونحوها.

ومن أعظم آفات اللسان عامة، وفي رمضان خاصة: الغيبة.

والغيبة تضر بالصيام، وقد حُكي عن عائشة رضي الله عنها أن الغيبة تفطر الصائم، وتُوجِب عليه قضاء ذلك اليوم، وبه قال الأوزاعي، وأفرط ابن حزم فقال: يبطله كل معصية من متعمِّد لها، ذاكر لصومه؛ سواء كانت فعلًا أو قولًا. والصواب أنها تخدش الصوم، وتنقص أجره، لكنها لا تبطله ولا تُوجِب القضاء[(١)].

والغيبة هي كما قال النبيُّ ﷺ: «**ذكرك أخاك بما يكره**». قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتبتَهُ، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّهُ**»[(٢)]. سواء كان ذلك في بدن الشخص، أو دينه، أو دنياه، أو نفسه، أو خَلْقه، أو خُلُقه، أو ماله، أو والده، أو ولده، أو زوجه، أو خادمه، أو ثوبه، أو حركته، أو طلاقته، أو عبوسته، أو غير ذلك مما يتعلق به، وسواء ذكرته باللفظ أو بالإشارة والرمز[(٣)].

---

(١) ينظر: «فتح الباري» (٤/ ١٠٤).

(٢) أخرجه أحمد (٧١٤٦)، ومسلم (٢٥٨٩)، وأبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٤)، والنسائي (٥٣٨)، وابن حبان (٥٧٥٨).

(٣) ينظر في التحذير من الغيبة للصائم: «الترغيب والترهيب» (٢/ ٩٣)، و«لطائف المعارف» (ص ٢١٤)، و«فتح الباري» (١٠/ ٤٦٩).

وللغيبة أسباب تبعث عليها، منها:

الاستهزاء الناشئ عن الكِبر والتعاظم وتحقير الآخرين، بسبب الحسد على ما آتاهم الله، ورفع النفس وتزكيتها، ومحاولة تبرئتها مما ينسبه المغتاب لَمن يغتابه، وقد يبعث عليها مجاملة الجالسين، وخشية نفرتهم إن لم يشاركهم.

ومن أعظم أسبابها: حب الانتقام، وشفاء النفس عن طريق ذكر المساوئ والسلبيات، حتى ولو تعريضًا؛ كقول بعضهم عند ذكر إنسانٍ ما: نسأل الله العافية!

وبالجملة، فكل قدح في الغير مما يكرهه لا يحل، وهو من الغيبة، **وهي درجات**: فبعضها أعظم من بعض، بحسب مَن تُكلِّم فيه منزلةً، وبحسب الدافع لها والحامل عليها، وبحسب المقالة التي قيلت فيه، فمَن اغتاب إنسانًا في دينه، فهذا أعظم من القدح في لون ثوبه أو طريقة مشيه..

والعجب أن كثيرًا من الذنوب العظيمة قد هانت على الناس، وخفَّ وقعُها، حتى إن الكبيرَ والصغيرَ والعالم والجاهل يعملُها ويكرِّرها، ولا يأنفُ ولا يستنكفُ ولا يتردَّدُ، بينما يتجادل الناس في مسائل صغيرة، ويعظِّمون أمرها، ويبالغون في النكير على مَن خالفهم فيها، وقد تكون من المكروهات، أو مما هو خلاف الأولى، أو من اللَّمم.

إذا لم يكنْ في السَّمــع مني تـصـاونٌ
وفي بصـــرِي غـــضٌّ وفي منطقي صَمْتُ

فحظِّي إذًا من صَومِيَ الجوعُ والظمأ
وإن قلتُ إني صُمتُ يومًا فما صُمتُ[١]

(١) ينظر: «لطائف المعارف» (ص ١٥٥)، و«زهر الأكم» (ص١٤١)، و«معجم السفر» (ص٥٠)، ونسبه إلى ابن عطية المحاربي، و«تاج العروس» (٤/ ٥٩٠).

فيتوجَّب على الصائم أن يحفظ صومه، وأن يتقي الله في لسانه وبصره وقلبه وجوارحه، وأن يحرص أن لا يكون حظُّه من صيامه الجوع والعطش.

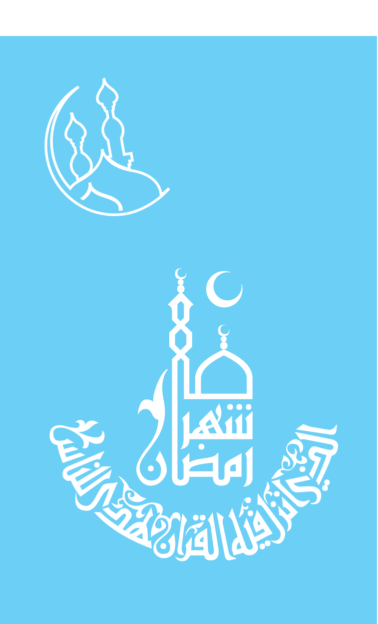
ولأن اللسان خُلِق للكلام، فلا شيء يحمي من زَلَلِـه مثل إشغال اللسان بالقول المعروف، والقول السديد، والقول الحسن، كالذكر والقرآن والتسبيح، والكلام الطيب مع الناس، كالثناء عليهم باعتدال، والدعاء لهم، وذكر محاسنهم، وتطييب نفوسهم، وتقديم الخبرة والمشورة والتجربة والنصيحة لهم، وما شاكل هذا من المعاني الجميلة التي تعود على صاحبها بالنفع، وعلى المجتمع بالتواصل والترابط والنجاح[1].

قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة:٨٣]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو قال لي فرعونُ: باركَ اللهُ فيك. لقلْتُ: وفيك»[2].



(١) ينظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٤٦)، و«بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية» (٤/ ٤٢٠)، و«مختصر منهاج القاصدين» (٣/ ٣١).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١١٣)، وابن المنذر في «التفسير» (٢٠٧٢)، والطبراني (١٠٦٠٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٢٢).



4

الفصل الرابع

شهر القرآن

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾



شهر القرآن

رمضان شهر القرآن، ابتدأ نزول القرآن فيه، ونزل القرآن بذكر الصوم وإيجابه، وشرع الإكثار من القراءة فيه، حتى كان جبريلُ عليه السلام يدارس النبيَّ ﷺ القرآنَ في شهر رمضان خاصة[1]؛ تأكيدًا على أهمية الترابط بين الشهر والذكر، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَن قرأ حرفًا من كتاب الله، فله به حسنةٌ، والحسنةُ بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف**»[2].

وعن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآنَ؛ فإنه يأتي يومَ القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزَّهْراوين[3]: البقرةَ وسورةَ آلِ عمرانَ؛ فإنهما تأتيان يومَ القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان[4]**،

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦، ٣٦٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٨، ٢٤٥٠).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، والحاكم (١/ ٥٥٤).
(٣) سُمِّيتا الزهراوين؛ لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما، وهي بمعنى الغمامة.
(٤) الغياية: كل ما أظل الإنسان من فوق رأسه؛ كالسحابة ونحوها.

أو كأنهما فِرْقان من طير صَوافَّ[١]، **تُحاجَّان عن أصحابهما، اقرؤوا سورةَ البقرة؛ فإن أخذها بركةٌ، وتركها حَسْرةٌ، ولا تستطيعها البَطَلَةُ**». قال معاوية بن سلَّام: بلغني أن البَطَلَةَ: السحرةَ[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**الماهرُ بالقرآن مع السَّفَرة الكِرام البَرَرة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، له أجران**»[٣].

وقد أمر الله بتلاوة كتابه، وبيَّن أن هذا دَأْبُ الصالحين الصادقين؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٢٩-٣٠].

هو الكتابُ الذي مَن قـام يـقـرؤه ... كأنَّما خاطب الرحمنَ بالكَـلِمِ

هو الصِّراط هو الحَبل المتينُ هو الْـ ... ميزانُ والعُروة الوُثقى لمعتصِمِ

هو البيانُ هو الذِّكرُ الحكيمُ هو التْـ ... تَفصيل فاقنعْ به من كلِّ منبَهِمِ[٤]

فقراءة القرآن هي التجارة الرابحة، وذلك في جميع الدُّهور، وعلى مدى الأيام والشهور؛ لكنَّ لها في رمضان شأنًا أعظم وآكد؛ فإن النبيَّ ﷺ كانت تزيد عنايته بالقرآن في رمضان، **وذلك لأسباب:**

الأول: أن ابتداء نزول القرآن كان في رمضان، فإن الليلة التي نزل فيها جبريل

---

(١) جمع صافة؛ أي: باسطات أجنحتها في الطيران.

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٤).
ومعاوية بن سلَّام يروي الحديث عن زيد بن سلَّام، عن أبي سلَّام، عن أبي أُمامة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

(٤) ينظر: «المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية» لحافظ حكمي (ص١٤).
وكل أمر منبهم: كل أمر خفي عليك من المعاني.

السَّلَامُ على النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق:١-٥]، كانت في شهر رمضان[١].

وقصة نزول جبريل ﷺ على النبي ﷺ جاءت في «الصحيحين» عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «أولُ ما بُدِئ به رسولُ الله ﷺ مِن الوحي الرؤيا الصالحةُ في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءَت مثلَ فَلَقِ الصبحِ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغارِ حراءٍ، فيتحنَّثُ فيه -وهو التعبُّدُ[٢]- الليالِيَ ذواتِ العددِ، قبلَ أن يَنْزِعَ إلى أهلِهِ ويتزوَّدُ لذلك، ثم يرجِعُ إلى خديجةَ، فيتزوَّدُ لمثلِها، حتى جاءَه الحقُّ وهو في غارِ حِرَاءٍ، فجاءه المَلَكُ فقال: **«اقرأْ. قال: ما أنا بقارِئٍ. قال: فأخذَني فغطَّني، حتى بلَغَ مني الجَهْدَ، ثم أرسلَني[٣]، فقال: اقرأ. قلتُ: ما أنا بقارِئٍ. فأخذَني فغطَّني الثانيةَ، حتى بلغَ مني الجَهْدَ، ثم أرسلني، فقال: اقرأْ. فقلتُ: ما أنا بقارِئٍ. فأخذني فغطَّني الثالثة ثم أرسلني، فقال:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ١-٣]». فرجَع بها رسولُ الله ﷺ يرجُفُ فؤادُهُ، فدخَل على خديجةَ بنتِ خُويلِدٍ رضي الله عنها، فقال: **«زمِّلوني زمِّلوني[٤]»**. فزمَّلوه، حتى ذهَب عنه الرَّوْعُ[٥]، فقال لخديجةَ وأخبَرها الخبرَ: **«لقد خَشِيتُ على نفسي»**. فقالت خديجةُ: كلا والله، ما يُخْزِيكَ اللهُ أبدًا؛

---

(١) سيأتي بيان ذلك.

(٢) قوله: «وهو التعبد» مدرج من كلام الزهري، وهو يروي الحديث عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) غطني: عصرني وضمني. والجهد، بفتح الجيم وضمها: الغاية والمشقة. وتُروى بنصب الدال ورفعها؛ فعلى النصب: بلغ جبريلُ مني الجهدَ. وعلى الرفع: بلغ الجهدُ مني مبلغه وغايته. وأرسلني: أطلقني.

(٤) أي: لفوني وغطُّوني.

(٥) أي: الفزع.

إنك لتصلُ الرَّحمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ[١]، وتَقْري الضيفَ، وتُعين على نوائبِ الحقِّ. فانطلَقَتْ به خديجةُ، حتى أتت به ورقةَ بنَ نوفلِ بنِ أسدِ بن عبدِ العُزَّى ابنَ عمِّ خديجةَ، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العِبْرانيَّ، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتبَ، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ، فقالت له خديجةُ: يا ابنَ عمِّ، اسمعْ من ابن أخيك. فقال له ورقةُ: يا ابنَ أخي، ماذا ترى؟ فأخبَره رسولُ الله ﷺ خبرَ ما رأى، فقال له ورقةُ: هذا الناموسُ[٢] الذي نَزَّل اللهُ على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا[٣]، ليتني أكونُ حيًّا إذْ يُخْرِجُكَ قومُك. فقال رسولُ الله ﷺ: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هم؟!**». قال: نعم، لم يَأْتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جِئْتَ به إلا عُودِيَ، وإن يُدْرِكْني يومُك أَنصُرْك نصرًا مُؤَزَّرًا. ثم لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوفِّي، وفتَرَ الوحيُّ[٤].

هذه الحادثة كانت في رمضان، كما هو مقتضى ما ذكره ابنُ إسحاق، وأبو سليمان الدمشقي، فيما نقله ابن الجوزي في كتابه «زاد المسير في علم التفسير»[٥]، عند تفسير قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]، أي: ابتدأ إنزاله فيه.

ويحتمل أن يكون هذا هو معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ...﴾

---

(١) تحمل الكلَّ، أي: مَن لا يستقل بأمر نفسه، ويدخل فيه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال. وتكسب المعدوم، أي: تكسب المال العظيم الذي يعجز عنه غيرك، ثم تجود به في وجوه الخير وأبواب المكارم.

(٢) الناموس: جبريل عليه السلام. والناموس في اللغة: صاحب سر الخير.

(٣) أي: شابًّا فتيًّا.

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

(٥) ينظر: «زاد المسير» (١/ ١٤٣).

[القدر:١]، إلى آخر السورة، ذلك أن ليلة القدر من رمضان.

الثاني: أن رمضان هو الذي أُنزل فيه القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكما أطبق السلف على أن القرآن فُصِل من اللوح المحفوظ وأُنزِل إلى بيت العزة في سماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان، ثم كان ينـزل على الرسول ﷺ نجومًا بحسب الوقائع والأحوال، كما هو معروف في أسباب النـزول.

وقد نُقِل هذا المعنى عن جماعة من الصحابة، كواثلة بن الأَسْقَع، وعائشة رضي الله عنهما، وجاء مرفوعًا إلى النبي ﷺ[١].

ونُقِلَ أن الحسن بن علي لما استشهد أبوه علي رضي الله عنهما، وكان ذلك في رمضان، سنة (٤٠هـ) - قام فخطبَ الناسَ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعدُ، والله، لقد قتلتم الليلةَ رجلًا في ليلةٍ نزل فيها القرآن، وفيها رُفع عيسى ابنُ مريم، وفيها قُتل يُوشع بنُ نُون، فتى موسى عليه السلام، وفيها تِيْبَ على بني إسرائيل»[٢].

وفي ذلك يقول أبو الأسود الدُّؤلي:

أفي شهرِ الصيامِ فجَعتُمـونـا ... بخير الخلق طُرًّا أجمعِيـنـا
قتلتم خيرَ مَن ركـب الـمَطَايـا ... وذلَّلَها ومَن ركب السَّفينَا

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٦٩٨٤)، و«قيام رمضان» للمروزي (ص٢٤٨-٢٤٩ - مختصره للمقريزي)، و«الإيمان» لابن منده (٢/ ٧٠٥)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (١/ ٥٦٨)، (٢/ ٢٧٤)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١٨٨)، و«الأحاديث المختارة» (١١/ ٣٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٠٢)، (٥/ ١٢٧)، (٦/ ١١٠)، (٨/ ٤٤١)، و«السلسلة الصحيحة» (١٥٧٥)، و«نداء الريان» (١/ ١٨٥).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٦٧٥٧)، والطبري في «التاريخ» (٣/ ١٦٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨٤٦٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢/ ٥٨٢).

ومَن لبس النِّعالَ ومَن حذَاها ... ومَن قرأ المثاني والـمِئِيـنَا
إذا استقبلتَ وجهَ أبي حُسينٍ ... رأيتَ البدرَ فوقَ الناظرينا
لقد علمتْ قريشٌ حيثُ كانت ... بأنـك خيرُها حسبًا ودينا[١]

ومراد أبي الأسود فضله على مَن سواه في وقته رضي الله عنه.

والآثار عن السلف كثيرة في أن القرآن أُنزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، التي هي من رمضان.

الثالث: أن جبريل عليه السلام كان يأتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم في رمضان، فيدارسه القرآن كل ليلة، كما في «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس، وكان أجودُ ما يكونُ في رمضانَ حين يلقاه جبريلُ، وكان يلقاه في كلِّ ليلة من رمضانَ، فيدارسُهُ القرآنَ، فلَرسولُ الله صلى الله عليه وسلم أجودُ بالخير من الرِّيح المُرْسلة»[٢].

وفي العام الذي تُوُفِّي فيه الرسولُ صلى الله عليه وسلم عارضه جبريلُ القرآنَ مرَّتين[٣].

إذن، فقد كان رمضان مخصَّصًا لتدارس القرآن بين جبريل عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في كل سنة، بحيث يتم في كل رمضان مراجعة ما أُنزل من القرآن، فيقرأ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وجبريلُ يستمع إليه، ومن خلال المعارضة يتم إثبات ما أمر الله تعالى بإثباته، ونسخ ما أمر بنسخه ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، وقد يتم تدارس معانيه أيضًا.

وقد أخذ أهل العلم من ذلك: مشروعية ختم القرآن في رمضان؛ لأن

---

(١) ينظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٢٠/ ١٣٣)، و«الأغاني» للأصبهاني (١٢/ ٣٨١).
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٨).
(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

جبريلَ والنبيَّ عليهما صلوات الله وسلامه، كانا يُنْهِيَان في كل رمضان ما سبق نزوله من القرآن، وفي آخر سنة أنهياه مرتين بالمدارسة والمعارضة، فهذا دليل على أنه يُستحب للمسلم أن يقرأ القرآن الكريم كاملًا في رمضان مرة أو أكثر؛ بل إن السُّنة أن يختم القرآن في كل شهر مرة، وإن استطاع ففي كل أسبوع مرة، كما صح ذلك عن النبي ﷺ[(١)].

ولذلك كان السلف يخصِّصون جزءًا كبيرًا من وقتهم في رمضان لقراءة القرآن، حتى كان الزهري رحمه الله إذا دخل رمضانُ، فإنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام[(٢)].

وكان الإمام مالك رحمه الله إذا دخل رمضانُ ترك قراءةَ الحديث، وأقبل على قراءة القرآن الكريم من المصحف[(٣)].

وحول موضوع العناية بالقرآن ينبغي الإشارة إلى تنبيهات:

الأولى: أن بعض الناس يظنون أن ختم القرآن مقصود لذاته، فَيَهُذُّ الواحدُ منهم القرآنَ هَذَّ الشِّعر -والهذُّ: سرعة القراءة[(٤)]- بدون تدبر، ولا خشوع، ولا ترقيق للقلب، ولا وقوف عند المعاني؛ بل همه الوصول إلى آخر السورة أو آخر الجزء، أو آخر المصحف.

وليس لهذا أُنزل القرآن؛ فإن الله تعالى يقول في هـذا الكتاب الكريم نفسه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤]، فمن الخطأ أن يحمل أحدَنَا الحماسُ إذا سمع بعض الآثار عن

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٠٥٢)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).
(٢) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ١١١).
(٣) ينظر: «لطائف المعارف» (ص ١٧١).
(٤) ينظر: «لسان العرب» (٣/ ٥١٧).

السلف التي تفيد كثرة ختمهم للقرآن، فيمضي يهذُّ القرآن هذًّا، غير متمعِّن ولا متدبِّر، ولا مراعٍ لأحكام التجويد، أو مخارج الحروف الصحيحة قدر الإمكان.

أن يقرأ المؤمن بعضًا من القرآن: جزءًا، أو حزبًا، أو سورة بتدبُّر وتفكُّر، خير مَن أن يختم القرآن كاملًا بدون أن يعي شيئًا منه.

وقد ثبت في «الموطأ» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه أخذ في تحصيل سورة البقرة ثماني سنين يتعلَّمها[1].

وهل كان ابن عمر رضي الله عنهما محتاجًا أن يمكث ثماني سنين ليستظهر سورة البقرة؟ كلا! فإن صبيان الكتاب يحفظون القرآن كله في سنة أو سنتين، ولكنه استغرق ثماني سنين في سورة البقرة: يحفظها، ويتعلَّم معانيها، وأحكامها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ويقف عند ما ورد فيها.

ولأَنْ يقرأ الإنسان وحده ليتدبر ويتمعن ويخشع؛ خير من اجتماع على زعق وضجيج وأصوات، ولقد ذكر الرسول ﷺ أنَّ من السبعة الذين يظلُّهم اللهُ في ظلِّه، يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه؛ الذي يذكر اللهَ خاليًا فيبكي، حيث قال ﷺ: «**ورجلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا، ففاضتْ عيناهُ**»[2].

وعموم النصوص تدل على أن الأجر متعلِّق بثلاثة:

١- الوقت الذي يقضيه في القراءة.

٢- الجودة «المهارة».

٣- الأثر الذي تُحدثه القراءة، ومنه التدبُّر والتأمُّل؛ لأنه المقصود الأعظم.

كيف يؤثِّر فينا القرآن، إذا كانت نفوسنا ملأى بآراء راسخة، ليس لدينا

---

(١) ينظر: «الموطأ» (٤٧٩)، و«شعب الإيمان» (١٨٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

استعداد لتغييرها، وطبائع نفسية، وأذواق وأمزجة، هي جزء من شخصيتنا، وأقوال لفلان وفلان من العلماء أو الفقهاء أو الساسة أو غيرهم، وهي مقدَّمة لا يمكن تجاوزها، وشهوات سيطرت يعزُّ الخلاص منها؟!

لكي يتأثر القارئ، عليه أولًا أن يملك الاستعداد للتأثُّر وتهيئة النفس والعقل لاستقبال النص وفهمه وتفعيله.

كيف نسلِّم أنفسنا للقرآن؟ أن ننتصر على الدوافع الغريزية، كما انتصر النبيُّ ﷺ حين قال: «**أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابهم مَن يعبده، لا يشرك به شيئًا**»[١]. مع وضعهم سَلَى الجزور عليه وهو يصلِّي[٢].

وكما انتصر أبو بكر رضي الله عنه حين قال: «أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟!». وهم يضربونه ويَمْرُطون شَعْره[٣].

لنجرِّب التعامل مع العصبية القبلية، أو العادات الاجتماعية، أو المراسيم السلطوية، أو الكبرياء الفردية، أن نتعلَّم التواضع والهدوء والتراجع والاعتذار والمصارحة في الأخطاء مع أنفسنا قبل الآخرين.

الثانية: احترام المصحف واجب على كل مسلم يعرف الله ويعرف كلامه، وتعمُّد إهانة المصحف عمل بشع دنيء منحط.

قد يفهم الناس أن يصدر من حقود غلب عليه الغيظ من انتشار الإسلام؛ فتصرَّف بطريقة تتناسب مع أخلاقه وذوقه، وهي لا تزيد القرآن إلا رفعة

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٤).

(٣) ينظر: «مسند الحميدي» (٣٢٤)، و«مسند أحمد» (٧٠٣٦)، و«صحيح البخاري» (٣٦٧٨)، و«مسند أبي يعلى» (٥٢).
ومرط الشعر: نتفه.

وانتشارًا، ولا تزيد فاعلها إلا ذلة وانحدارًا.

لكن أن تصدر الإهانة من مسلمين، فهذا هو الأمر الغريب العجيب!

لذا شُرع لنا الوضوء عند مس المصحف؟ وهو واجب عند الأئمة الأربعة[1].

يقول تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩]. وفي الحديث: «**لا يمس القرآن إلا طاهر**». وهو حديث حسن، تلقَّاه العلماء بالقبول، واشتهر شهرةً تُغني عن إسناده؛ كما قال الإمام ابن عبد البر، وله شواهد كثيرة، ذكرتُها في «شرح بلوغ المرام»[2].

فكيف يرمي بعض الطلاب المصحف أو جزءًا منه بعد الفراغ من الدراسة في أماكن غير لائقة، بل أي كتاب دراسي آخر، كيف يُرمى بطريقة لا تليق بالعلم، فكيف بالقرآن العظيم؟!

وكيف يتجرَّأ آخرون على أن يكتبوا على المصحف ما لا يليق من الكلمات، تشجيعًا لفريق، أو سبًّا لفريق آخر، أو سخرية بزملائهم، أو عبارات حب وغرام؟!

المجتمعات الإسلامية وحكوماتها مطالبة بموقِف صارم ممن امتهن الأنبياء

---

(١) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (١/ ١٧٣)، و«مواهب الجليل» (١/ ٣١٧)، و«المجموع» (٢/ ١٧٨)، و«المغني» (١/ ٩٨)، و«كشاف القناع» (١/ ١٣٤)، و«الأوسط» لابن المنذر (٢/ ١٠٣)، و«المحلى» (١/ ٧٧-٨١)، و«نيل الأوطار» (١/ ٢٦٠)، و«شرح بلوغ المرام» للمؤلِّف (٢/ ٨٨٢-٨٨٥).

(٢) أخرجه الدارمي (٢٢٦٦)، وأبو داود في «المراسيل» (٢٥٩)، وابن حبان (٦٥٥٩)، والحاكم (١/ ٥٥٢)، والبيهقي (١/ ٨٧، ٣٠٩)، (٤/ ٨٩-٩٠)، (٨/ ٧٣)، وغيرهم.
وقد اختُلف في وصله وإرساله، وينظر الكلام عليه في «الإرواء» (١٢٢)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (١/ ٣٩٩-٤٠٠)، و«شرح بلوغ المرام» (٢/ ٨٨٠).

وكتبهم السماوية، وعلى رأسها القرآن الكريم، وإعلان الرفض والشجب والاستنكار، واستصدار قرارات دولية تحرِّم ذلك وتدينه وتجرِّم فاعله؛ باعتباره نشرًا للكراهية والعنصرية.

ومطالبة بتربية أبنائها وبناتها على تعظيم القرآن وحبِّه واحترامه وتلاوته عن إيمان ورغبة، وليس كمقرَّر دراسي ينتهي بنهاية العام.

الثالثة: حول «الختمة»، والمراد بها: قراءة القرآن في صلاة التراويح والقيام، ثم الدعاء المعروف عند إتمام القرآن الكريم.

والناس يكثرون الجدل حول هذه المسألة:

فمنهم مَن يقول: إنها بدعة. ولا يفصِّل.

ومنهم مَن يقول: إنها سنة. ويعمل بها.

ويمكن النظر إليها بشيء من التفصيل كما يلي:

أولًا: إتمام القرآن الكريم في صلاة التراويح والقيام مشروع كما سبق، قال ابن تيمية رحمه الله: «وأما قراءة القرآن في التراويح، فمستحب باتفاق أئمة المسلمين؛ بل من أجل مقصود التراويح قراءة القرآن فيها؛ ليسمع المسلمون كلام الله»(١).

ثانيًا: الدعاء عند ختم القرآن الكريم، فالمذهب: أنه مستحب، وبه قال متأخِّرو الحنفية والشافعية؛ لحديث العِرْباض بن سارية رضي الله عنه عند الطبراني في «الكبير»: «**مَن ختم القرآن، فله دعوةٌ مستجابةٌ**»(٢). وفي إسناده عبد الحميد بن سليمان الخزاعي، وهو ضعيف(٣).

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ١٢٢).

(٢) ينظر: «معجم الطبراني الكبير» (١٨/ ٢٥٩) (٦٤٧).

(٣) ينظر: «الجرح والتعديل» (٦/ ١٤)، و«المجروحين» (٢/ ١٤١)، و«تهذيب التهذيب» (٦/ ١١٦).

وقال بعض الحنفية: يستحب خارج الصلاة، ويكره داخلها. وقال بعض المالكية: لا يشرع، لا داخل الصلاة ولا خارجها؛ بل هو بدعة؛ لعدم وروده[(١)].

والحاصل أن دعاء ختم القرآن خارج الصلاة قد صح من فعل أنس رضي الله عنه، أنه كان إذا ختم جمع أهله وولده فدعا لهم. كما في «مصنف ابن أبي شيبة»، و«مسند الدارمي»[(٢)].

وعن الحكم قال: أرسل مجاهدٌ وعَبْدَةُ بنُ أبي لُبابةَ قالا: إنا أرسلنا إليك، أنا نريد أن نختم القرآن، وكان يقال: إن الدعاء يُستجاب عند ختم القرآن. فلما فرغوا من ختم القرآن دعوا بدعوات[(٣)].

وأما داخل الصلاة، فلم يصح فيه شيء؛ لكن لو جعل الدعاء في قنوت الوتر، سواء في التراويح أو في القيام، فهذا سهَّل فيه الإمام أحمد؛ لأنه محل للدعاء، ولأن الوتر هو الموضع الذي ثبت شرعًا أنه مكان الدعاء، وقد علَّم النبيُّ ﷺ الحسنَ رضي الله عنه -كما في «المسند»، و«السنن» - أن يقولَ في الوتر: «**اللهمَّ اهدني فيمَن هَدَيْتَ، وعافني فيمَن عافيتَ، وتولَّني فيمَن تولَّيتَ، وبارك لي فيما أعطيتَ، وقِني شرَّ ما قضيتَ، فإنك تقضِي ولا يُقضَى عليك، إنه لا يذِلُّ مَن واليتَ، تباركتَ ربَّنا وتعاليتَ**»[(٤)].

---

(١) ينظر: «الفتاوي الهندية» (٥/ ٣١٨)، و«الذخيرة» (٢/ ٤٠٨)، و«المجموع» (٢/ ١٨٦)، و«كشاف القناع» (١/ ٤٢٨)، و«الشرح الممتع» (٤/ ٤٢).

(٢) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٠٠٣٨)، و«مسند الدارمي» (٣٤٧٤).

(٣) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٠٠٤٠)، و«فضائل القرآن» للفرياني (٨٨)، و«فضائل القرآن» لابن الضُّريس (٨١)، و«شعب الإيمان» (٢/ ٣٦٨).

(٤) أخرجه الطيالسي (١٢٧٥)، وأحمد (١١٧٨)، والدارمي (١٥٩١)، وأبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، وابن ماجه (١١٧٨)، والنسائي (١٧٤٥)، وابن حبان (٧٢٢).

فالسنة أن يكون الدعاء في الوتر، سواء كان ذلك قبل الركوع أو بعده.

وجاء عن إبراهيم النخعي رحمه الله عندما سُئل عن مقدار القنوت في الوتر، فقال: «بمقدار سورة الانفطار».

وعندما ذُكر هذا لأحمد رحمه الله قال: هذا قليل. وأجاز الزيادة عليه[١].

وبالنظر لما نُقل في قنوت النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته، وقنوت أصحابه رضي الله عنهم؛ نجد البون الكبير بين مقدار ما قنتوا به وما يفعله بعض الأئمة اليوم كمًّا وكيفًا، مما يصل إلى حد الإطالة والإملال، والخروج عن المقصود في الدعاء، فضلًا عن أنه يُتعِب مَن وراءهم، ويُكرِّه إليهم عبادة ربهم.

ولا مانع من إطالته دون تكلُّف بمناسبة ختم القرآن، وإضافة أدعية تتعلَّق بالقرآن الكريم، مثل ما يقول بعض الأئمة: اللهمَّ انفعنا وارفعنا بالقرآن العظيم، اللهمَّ اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصَّتك يا أرحم الراحمين، اللهمَّ اجعل القرآن لنا شفيعًا...

أما الدعاء الشائع عند الناس الذي يبدأ بقولهم: «صدق الله العظيم الذي لم يزل عليمًا قديرًا، صدق الله ومَن أصدق من الله قيلًا، صدق الله العظيم، وبلَّغ رسولُه الكريم، ونحن على ما قال ربنا من الشاهدين، ولما أوجب وأنزل غير جاحدين..» إلخ؛ فهذا مما انتشر عند الناس، حتى ظنه بعضهم من السنن، وهو غير وارد بنصه، وإن كانت معانيه في الجملة حسنة، ولو قرأه إمام لم يحسن مخالفة المأمومين له، ولا أن يكون ذلك سببًا لإثارة الخلاف، والقيل والقال، فالأمر يسير، والحرص على وحدة القلوب وسلامة النفوس أهم من مراعاة فرعٍ أو جزئيةٍ من هذا القبيل.

(١) ينظر: «صلاة الوتر» للمروزي (ص ٣٢١ – مختصره للمقريزي).

على أن الأولى أن يدعو الإمام بما ورد أو جنسِ ما ورد، ويتجنَّب الأسجاع المتكلَّفة، والألفاظ المتقعَّرة، والمعاني الغامضة؛ لأن الدعاء في هذه الحال عبادة جماعية، يشترك فيها الداعي والمؤمِّن.

وبعض الناس يزيد في دعاء ختم القرآن مواعظ تتعلَّق بذكر القبر والصراط والبعث والجزاء والحساب والجنة والنار، ولا شك أن هذا ليس محله؛ بل هذا من الاعتداء المنهي عنه.

إذن، فالتفصيل في مسألة الختمة أمر جيد، وهو قول وسط بين المانعين بإطلاق، والمجيزين بإطلاق.

على أن الأمر لا ينبغي التشديد فيه، فحتى الذين يقرؤون دعاء الختمة في غير الوتر -أي يقرؤونه في صلاة ثنائية من التراويح- يقولون: إن النبي ﷺ كان يقنت في صلاة الفجر، كما ثبت ذلك عنه مرات[(١)]؛ بل ثبت عنه القنوت في غير صلاة الفجر؛ في الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، في أحاديث عديدة[(٢)]، وهذا من هذا عندهم!

والقدر المتفق عليه هو إقبال الناس على صلاتهم، وظهور أثرها في معاملاتهم، وفي حسن إدارة الخلاف فيما بينهم، ووضع الأمور في نصابها، وعدم الإسراف في الإنكار.

فمن الخطأ الكبير أن يتحوَّل القرآن والذكر إلى مجادلات ومقاولات بين الناس، مع الغفلة عن المعنى العظيم الذي ترشد إليه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [البقرة:١٧٦].

---

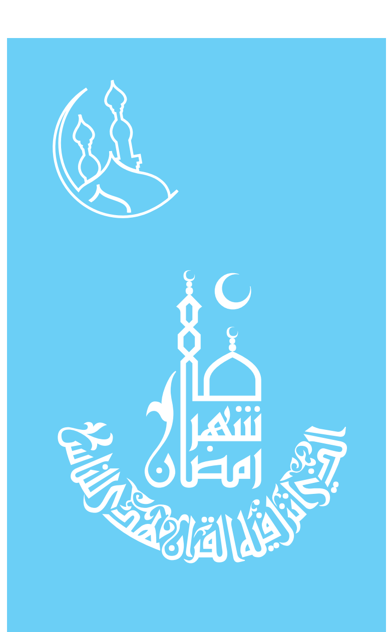
(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٠٠١)، و«صحيح مسلم» (٦٧٧).
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٩٧)، و«صحيح مسلم» (٣٩٢).

وقد دلَّت السنة على كراهية المراء والجِدال في غير فائدة؛ كما في الحديث حين خرج ﷺ عليهم وهو يريد أن يخبرهم بليلة القدر، فتلاحى رجلان منهم، فقال: «**إني خرجتُ لأخبركم بليلة القدر، وإنه تلاحى فلانٌ وفلانٌ، فرُفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم...**»[١].

فنسأل الله العظيم أن يفتح عقولنا وقلوبنا لفهم القرآن وتدبُّره والغوص في أسراره، والاعتبار بمواعظه، والوقوف عند حدوده، إنه جَوَاد كريم.



(١) أخرجه البخاري (٤٩، ٢٠٢٣) من حديث عبادة رضي الله عنه.



5

الفصل الخامس

من أحكام الصيام

«صُومُوا لرؤيته، وأَفْطِرُوا لرؤيته»



من أحكام الصيام

فديــتُـكَ زائــرًا في كــلِّ عــامٍ	تُـحيًّـا بالتَّـحـيـةِ والسَّـــلامِ
وتُقبل كالغمام يَـفِـيـض حِـيـنًا	ويَبقى بعــده أثــرُ الـغـمـامِ
وكم في الناس من كَلِف مَشُوقٍ	إليك وكم شجي مُستـهـامِ
ولم أرَ قبل حبِّـك مـن حـبيبٍ	كفى العشاقَ لوعات الغرامِ
فلو تَدري العوالــمُ مــا درينا	لحَنَّتْ للصــلاة وللصِّـيـامِ[1]

إن الكلام عن أحكام الصيام يطول، ولكن لا بأس بالحديث عن أبرزها باختصار:

أولًا: ما يثبت به دخول رمضان:

يثبت دخوله بإكمال عدة شعبان ثلاثين يومًا، أو برؤية هلال رمضان؛ قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتُمُوهُ فصُومُوا، وإذا رأيتُمُوهُ فأفطروا، فإن غُمَّ عليكم فاقدُرُوا له**»[2]. وفي لفظ: «**فأكملُوا عدَّةَ شعبانَ ثلاثينَ يومًا**»[3].

---

(١) ينظر: «ديوان مصطفى صادق الرافعي» (ص٣١).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٠)، ومسلم (١٠٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٠٩)، ومسلم (١٠٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يُعتمد على مجرد الحَدْس أو الظن أو الرؤيا.

ومن طريف ما يُروى: أن القاضي حسين -من فقهاء الشافعية- جاءه رجلٌ، فقال له: أنا رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام، فقال لي: إن الليلة من رمضان. فقال القاضي حسين: إن الذي تزعم أنك رأيته في المنام، رآه الصحابة في اليقظة، وقال لهم: «**صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته**»(١).

ولا يجوز -**على الراجح**- أن يصومَ المسلمُ آخر يوم من شعبان احتياطًا لرمضان، وأما مَن صام ذلك اليوم لأنه يوافق يومًا كان يصومه؛ فلا حرج، كأن يصومه لأنه يوافق يوم الاثنين أو الخميس، أو لأنه يصوم يومًا ويفطر يومًا، فوافق يوم صومه آخر يوم من شعبان، أو غير ذلك؛ لقوله ﷺ: «**لا يتقدَّمنَّ أحدُكم رمضانَ بصوم يومٍ أو يومين، إلا أن يكونَ رجلٌ يصومُ صومَهُ، فلْيَصُمْ ذلكَ اليومَ**»(٢).

ثانيًا: النية:

لابد من تبييت النية في صوم الفرض؛ لما روت حفصةُ رضي الله عنها، أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَن لم يبيِّت الصيام قبل الفجر، فلا صيامَ له**»(٣).

---

(١) ينظر: «طرح التثريب» (٤/ ١٥٩)، (٨/ ٢١٥)، و«المجموع» (٦/ ٢٨٤)، و«مواهب الجليل» (٢/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٩١٤)، ومسلم (١٠٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وينظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٣٧٦)، و«بلغة السالك» (١/ ٤٤٤)، و«المجموع» (٦/ ٣٩٩)، و«الإنصاف» (٣/ ٢٤٦)، و«كشاف القناع» (٢/ ٣٤١).

(٣) أخرجه مالك (٦٣٧)، وأحمد (٢٥٩١٨)، والدارمي (١٦٩٨)، وأبو داود (٢٤٥٤)، والترمذي (٧٣٠)، وابن ماجه (١٧٠٠)، والنسائي (٢٣٣١)، وفي «الكبرى» (٢٦٤٢)، وابن خزيمة (١٩٣٣)، والطبراني (٣٦٧)، والدارقطني (٢/ ١٧٢)، والبيهقي (٤/ ٢٠٢)، وينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٤٢٦).

أما صيام النفل، فلا يجب فيه تبييت النية من الليل؛ بل يجوز بنية من الليل أو النهار، فلو نوى المرءُ صوم النافلة بعد طلوع الشمس -مثلًا- فصومه صحيح[١]، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ النبيُّ ﷺ ذات يوم، فقال: «**هل عندكم شيءٌ؟**». فقلنا: لا. قال: «**فإني إذن صائمٌ**»[٢].

وهنا تنبيهان حول تبييت النية:

الأول: بعض الناس يوسوسون في النية، ويتكلَّفون ويشكُّون في تبييتهم لنية الصيام، وهذا من تلبيس إبليس الذي يجب أن لا يلتفت إليه الصائمون؛ فإن المسلم بمجرد دخول رمضان يستقر في نفسه أنه سيصوم رمضان كله، وهذا يكفي.

الثاني: أن الليل يشمل جميع المدة التي قبل طلوع الفجر، فلو نام أحد بدون أن يعلم أن تلك الليلة من رمضان، ثم استيقظ قبل طلوع الفجر، وعلم أن الليلة من رمضان، وأمسك؛ لكان ذلك كافيًا، وليس المقصود بتبييت النية أنه يلزمه أن ينام وقد نوى أنه سوف يصوم.

ثالثًا: السُّحور:

أمَر النبيُّ ﷺ بالسُّحور، كما في الحديث المتفق عليه عن أنس رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «**تسحروا؛ فإن في السَّحور بركةً**»[٣].

وفي «صحيح مسلم» عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «**فَصْلُ**

---

(١) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٣٨٠)، و«الذخيرة» (٢/ ٥٠٠)، و«المجموع» (٦/ ٢٨٩)، و«كشاف القناع» (٦/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه مسلم (١١٥٤).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٢٣)، و«صحيح مسلم» (١٠٩٥).

ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب؛ أكلةُ السَّحر»[١].

فاليهود والنصارى لا يتسحرون؛ ومخالفةً لهم أَمَرَ النبيُّ ﷺ المؤمنينَ بأن يتسحروا[٢]، فينبغي الحرص على السحور، ولو على شربة ماء، إن لم يجد المسلم غيرها.

رابعًا: الإفطار:

يستحب تعجيل الفطر، وتأخير السحور، كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا يزال الناسُ بخير ما عجَّلوا الفطر**». متفق عليه[٣].

وفي «المسند» من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه: «**لا تزالُ أمتي بخير ما عجَّلوا الإفطارَ، وأخَّروا السُّحورَ**»[٤].

وفي «صحيح مسلم» أن عائشة رضي الله عنها سُئلت عن رجلين من أصحاب النبي ﷺ، أحدهما يعجِّل الإفطار ويعجِّل الصلاة، والآخر يؤخِّر الإفطار ويؤخِّر الصلاة: أيهما أفضل؟ فقالت عن الذي يعجِّل الإفطار ويعجِّل الصلاة: «كذلك كان يصنع رسولُ الله ﷺ»[٥].

فيستحب للصائم أن يبادر بالفطر بمجرد ما يتيقن غروب الشمس، وأن يفطر على رطب، فإن لم يجد فعلى تمر، فإن لم يجد حَسَا حَسَوَاتٍ من ماء، كما رَوى

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٠٩٦).
(٢) ينظر: «المفهم» (٣/ ١٥٦).
(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٥٧)، و«صحيح مسلم» (١٠٩٨).
(٤) ينظر: «مسند أحمد» (٢١٣١٢، ٢١٥٠٧). وقال ابن عبد البر: «أخبار تعجيل الإفطار وتأخير السحور صحاح متواترة». وينظر: «فتح الباري» (٤/ ١٩٩).
(٥) ينظر: «صحيح مسلم» (١٠٩٩).

أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه كان يُفطر على رُطَبَاتٍ، فإن لم يجد فعلى تمرات، فإن لم يجد حَسَا حسَوَاتٍ من ماء(١). ومعنى حسا حسوات، أي: تجرع جرعة بعد جرعة(٢).

ويحسن أن يقول عند الإفطار: **«ذَهَبَ الظَّمَأُ، وابتلَّتِ العروقُ، وثَبَتَ الأجرُ إن شاء الله»**(٣).

وهذا أصح ما ورد عن النبي ﷺ عند الإفطار، ولا يثبت أدعية خاصة للإفطار؛ لكن يدعو بما شاء من خير الدنيا والآخرة.

خامسًا: المفطِّرات:

المفطِّرات هي التي تفسد الصوم وتوجب القضاء، وهي:

أولًا: الأكل والشرب والجماع، إذا تعمَّد الصائم شيئًا منها، من غير إكراه ولا نسيان، فإنه يفسد صومه بنص القرآن، وإجماع أهل العلم(٤).

قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [البقرة:١٨٧].

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٦٧٦)، وأبو داود (٢٣٥٦)، والترمذي (٦٩٦)، والدارقطني (٢/ ١٨٥)، والحاكم (١/ ٤٣٢)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (٤/ ٤١١-٤١٢) (١٥٨٤-١٥٨٦).

(٢) ينظر: «المعجم الوسيط» (١/ ١٨١).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٣٥٧)، والنسائي في «الكبرى» (٣٣٢٩)، والدارقطني (٢/ ١٨٥)، والحاكم (١/ ٤٢٢)، والبيهقي (٤/ ٢٣٩)، وفي «شعب الإيمان» (٣٩٠٢)، وفي «الدعوات الكبير» (٤٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) ينظر: «مراتب الإجماع» (ص٣٩)، و«التمهيد» (١٠/ ٦٣)، و«المغني» (٣/ ١٤)، و«المجموع» (٦/ ٣٣٤-٣٣٥).

فمَن أفطر بالأكل أو الشرب عمدًا، فعليه التوبة والاستغفار، وأن يقضي يومًا مكان يومه الذي أفسد صومه فيه، وليس عليه كفارة[(١)].

وأما من أفطر بالجِمَاع، فإن عليه أربعة أمور:

١- يمسك بقية اليوم؛ لأن هذا فطر غير مشروع، فليس له أن يأكل أو يشرب حتى تغرب الشمس.

٢- التوبة؛ لأنه ارتكب إثمًا عظيمًا يُوجِب التوبة والإنابة.

٣- يقضي اليوم الذي جامع فيه.

٤- عليه الكفارة، وهي عتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا، فإن لم يجد سقطت عنه[(٢)].

ثانيًا: القيء عمدًا، وهو أن يتعمد المرء إفراغ ما في معدته، إما بإدخال إصبعه في فمه، أو بشم شيء يهيِّج المعدة، أو بغير ذلك، فإذا بدر من الصائم هذا العمل فقد فسد صومه، وعليه قضاء يومه ذلك.

وأما مَن غلبه القيء بدون إرادة منه أو تعمُّد، فصومه صحيح، ولا قضاء عليه[(٣)].

وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «**مَنْ ذَرَعَهُ القيءُ**[(٤)]**، فليس عليه قضاءٌ، ومَن**

---

(١) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٣٩٤)، و«بداية المجتهد» (٢/ ٦٤)، و«المجموع» (٦/ ٢٩٨)، و«المغني» (٣/ ١٣٨)، و«الشرح الممتع» (٦/ ٤١١).

(٢) ينظر: «الفتاوى الهندية» (١/ ٣٠٤)، و«التاج والإكليل» (٢/ ٤٢٧)، و«المجموع» (٦/ ٣٣٠)، و«الإنصاف» (٣/ ٢٢١).

(٣) ينظر: «فتح القدير» (٢/ ٣٣٤)، و«المدونة» (١/ ٢٧١)، و«المجموع» (٦/ ٣٤٤)، و«المغني» (٣/ ٢٣)، و«المحلى» (٦/ ١٧٥).

(٤) أي: غلبه.

استقاءَ عمدًا، فليَقْضِ»[١].

وذكر ابن تيمية رحمه الله في كتابه «حقيقة الصيام» أنه حديث صحيح، وضعفه جماعة[٢].

ثالثًا: الحيض والنفاس، فإن المرأة إذا حاضت أو نفست فإنه لا يصح منها الصوم بالإجماع[٣].

فقد قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يصيبُنا ذلك، فنُؤمرُ بقضاء الصوم، ولا نُؤمرُ بقضاء الصلاة»[٤].

هذه هي المفطِّرات المشهورة، ويدخل فيها ما كان في معنى أحدها؛ فالإبر المغذِّية التي يستغني بها الإنسانُ عن الأكل والشرب تفطر الصائم؛ لأنها في معنى الأكل والشرب، والاستمناء يفطر؛ لأنه في معنى الجماع[٥].

وأما الحجامة، فالذي أميل إليه -والله أعلم- أنها لا تُفطر، وهو مذهب الجمهور، ومرويٌّ عن جماعة من الصحابة؛ كأبي سعيد، وابن مسعود، وسعد، وعائشة، وأم سلمة رضي الله عنهم، وبعض التابعين؛ كعروة، وسعيد بن جبير، وغيرهم[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٤٦٣)، وأبو داود (٢٣٨٠)، والترمذي (٧٢٠)، وابن ماجه (١٦٧٦)، وابن الجارود (٣٨٥)، وابن خزيمة (١٩٦٠)، وابن حبان (٣٥١٨)، والحاكم (١/ ٤٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «حقيقة الصيام» (ص ١٣) وما بعدها، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٤٠٣).

(٣) ينظر: «الإجماع» لابن المنذر (٦٧، ٦٨)، و«ومراتب الإجماع» لابن حزم (ص ٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢١)، ومسلم (٣٣٥).

(٥) ينظر: «بدائع الصنائع» (٢/ ٩٣)، و«التاج والإكليل» (٣/ ٣٤٣)، و«المجموع» (٦/ ٣٥٠)، و«المغني» (٣/ ٢١)، و«سبل السلام» (١/ ٥٦٨).

(٦) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٤/ ٢١٣)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٢/ ٣٠٨-٣٠٩)، و«فتح الباري» (٤/ ٢٠٨)، و«المبسوط» (٣/ ٥٧)، و«المنتقى شرح الموطأ» (٢/ ٥٦)، و«المجموع» (٦/ ٣٨٩-٣٩٠).

ومن الأدلة: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «رخَّص النبيُّ ﷺ في الحجامة للصائم»[(١)].

وقوله: «رَخَّصَ» دليل على أنه كان ممنوعًا ثم رخّص فيه، فهذا حجة لمَن قالوا بأن آخر الأمرين هو الرخصة بالحجامة للصائم.

وكذلك حديث أنس رضي الله عنه أنه سُئل: أكنتم تكرهونَ الحجامةَ للصائم؟ قال: «لا، إلا من أجل الضعف»[(٢)].

والمعنى: لم يكونوا يكرهون الحجامة لكونها تفطر، ولكن كانوا يكرهونها خشية أن يضعف الصائم فيفطر.

وعن عبد الرحمن بن أبي لَيْلَى قال: حدَّثني رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ، أن رسولَ الله ﷺ نهى عن الحجامة، والمواصلة، ولم يحرِّمها؛ إبقاءً على أصحابه...[(٣)].

وقوله: «إبقاءً على أصحابه» متعلِّق بقوله: «نَهى»؛ أي: نهى النبيُّ ﷺ عن الحجامة رفقًا بأصحابه؛ لأن الإنسان إذا احتجم يضعف عن الصيام، وهكذا الوصال في رمضان، فإنه قد يضعف، فيكون النهي ليس نهي تحريم، وإنما هو

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٣٢٢٤، ٣٢٢٨)، وابن خزيمة (١٩٦٧)، والطبراني في «الأوسط» (٧٧٩٧)، والدارقطني (٢/ ١٨٢)، والبيهقي (٤/ ٢٦٤).
وأخرجه النسائي في «الكبرى» (٣٢٢٥-٣٢٢٧، ٣٢٢٩-٣٢٣١)، وابن خزيمة (١٩٦٩،١٩٧١)، والدارقطني (٢/ ١٨٢)، والبيهقي (٤/ ٢٦٤) موقوفًا على أبي سعيد رضي الله عنه، وهو أرجح.
وينظر: «علل الترمذي الكبير» (١٢٦)، و«علل ابن أبي حاتم» (١/ ٢٣٩)، و«علل الدارقطني» (١١/ ٣٤٧)، و«إرواء الغليل» (٤/ ٧٤).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٤٠).
(٣) أخرجه أحمد (١٨٨٢٢)، وأبو داود (٢٣٧٤).

نهي كراهة.

ومسائل الصيام من القضايا العامة التي تحتاج إلى بيان شافٍ، وأدلة ظاهرة، كما يقول ابن تيمية رحمه الله.

أما إخراج الدم من الإنسان بالطرق الحديثة، سواء كان إخراجه للتحليل أو لغيره، فقد ألحقه بعض العلماء بالحجامة؛ لأنه استخراج للدم من العروق على وجه يضر بالإنسان ويضعفه.

وآخرون رأوا أنه لا يلتحق به؛ لأنه قد يكون في الحجامة معنى لا يوجد في هذه الأشياء، **وهذا أقرب.**

فاستخراج الدم للتحليل أو غيره بطريقة مختلفة، الأقرب أنه لا يفطر، حتى على القول بالتفطير بالحجامة، ولذلك ينص بعضهم على أن الجرح اليسير لا يضر، ولا يلحق بالحجامة، وكذلك التبرُّع بالدم[١].

وثمة رخص عديدة امتنَّ اللهُ بها على الصائمين؛ رفعًا للحرج والمشقة عن العباد، منها:

أولًا: مَن أكل أو شرب ناسيًا وهو صائم؛ فصومه صحيح، ولا قضاء عليه، وهذا الراجح عند جمهور العلماء[٢]، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**مَن نسيَ وهو صائمٌ، فأكَل أو شربَ، فليتمَّ صومَه؛ فإنَّما أطْعَمَهُ اللهُ وسَقَاهُ**»[٣].

لكن يجب عليه إذا تذكَّر وفي فمه شيءٌ أن يلفظه، وكذلك يجب على الذي

---

(١) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٤٠٧-٤١٤).

(٢) ينظر: «المبسوط» (٣/ ١٣١)، و«الاستذكار» (١٠/ ١٠٠)، و«الحاوي الكبير» (٤/ ١٠٦)، و«المغني» (١٠/ ٣٦).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٦٦٩)، و«صحيح مسلم» (١١٥٥).

يراه وهو يأكل أن يذكِّره أنه في نهار رمضان؛ لأن هذا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى.

ثانيًا: أن مَن أصبَح جُنبًا من جماع أو احتلام؛ فإنه يصوم ولا شيء عليه، ويغتسل بعد ذلك، فتصح نية الصيام وهو جنب[(١)]، خلافًا لما أفتى به أبو هريرة رضي الله عنه في أول الأمر[(٢)]، فإنَّ هذا كان أول الأمر ثم نسخ، ولحديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، أن النبيَّ ﷺ كان يصبحُ جنبًا وهو صائم، ثم يصوم ولا يفطر[(٣)].

ثالثًا: السواك بعد الزوال، فإنه مرخَّص فيه للصائم بعد الزوال؛ بل هو مستحب في المواضع التي يستحب فيها في سائر الأحوال، وسيأتي الحديث عنه إن شاء الله تعالى.

رابعًا: المضمضة والاستنشاق ينبغي أن لا يبالغ فيهما؛ خشية أن يصل شيء من الماء إلى حلقه[(٤)]؛ ففي حديث لَقِيط بن صَبِرَة رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال له: «**وبالغ في الاستنشاق، إلا أن تكون صائمًا**»[(٥)]. وفي بعض الروايات: «**وبالِغْ في المضمضة والاستنشاق، إلا أن تكون صائمًا**»[(٦)]. وهي زيادة لا تثبت.

---

(١) ينظر: «المجموع» (٦/ ٣٣٣)، و«مجموع الفتاوى» (٢٥/ ٢٢٤)، و«الإنصاف» (٣/ ٣٠٧).

(٢) ينظر: «الإحكام» لابن دقيق العيد (٢/ ٢١٠)، و«فتح الباري» (٤/ ١٤٤)، والمراجع السابقة.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٢٥)، و«صحيح مسلم» (١١٠٩).

(٤) ينظر: «بدائع الصنائع» (٢/ ٩٣)، و«المدونة» (١/ ٢٦٩)، و«المجموع» (٦/ ٣٣٥)، و«المغني» (٤/ ٣٥٦)، و«الإنصاف» (٣/ ٢٩٩).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٩٤٦)، والدارمي (٧٠٥)، وأبو داود (٢٣٦٦)، والترمذي (٧٨٨)، وابن ماجه (٤٠٧)، والنسائي (١٤٤).

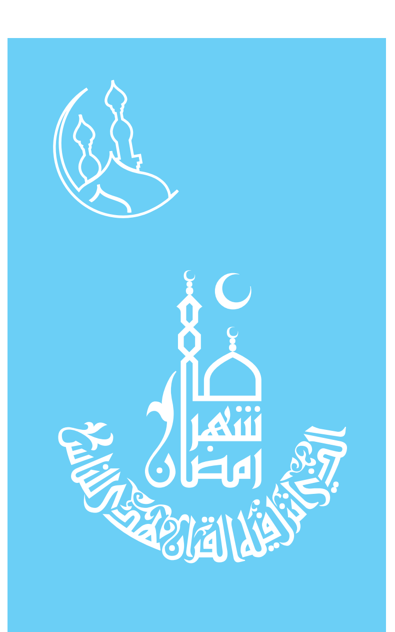
(٦) أخرجه الدولابي في «جزء من حديث الثوري»، كما في «نصب الراية» (١/ ١٦)، و«التلخيص الحبير» (١/ ٨١). وينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (١/ ١٦٩-١٧٠).

خامسًا: جواز الفطر في نهار رمضان للمسافر، وهو أفضل من الصوم، إن كان الصوم يشق عليه، حتى لو كان سفره في الطائرة، أو في سيارة مريحة، أو نحو ذلك[١].

اللهم فقهنا في ديننا، وعلِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزدنا علمًا، يا أرحم الراحمين.



(١) ينظر: «المبسوط» (٢/ ٩٦)، و«منح الجليل» (٢/ ١١٩)، و«المجموع» (٦/ ٢٦٣)، و«حاشية قليوبي» (١/ ٣٠٥)، و«المغني» (٤/ ٣٤٩)، و«كشاف القناع» (٢/ ٣١١).



6

الفصل السادس

مع القيام

«مَن قام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا،
غُفر له ما تقدَّم من ذنبه»



مع القيام

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:١-٥].

دعوة إلى النهوض والمناجاة، وإعداد للمهمة الثقيلة التي تنوء بحملها الجبال الراسيات.

يقول سبحانه في صفة عباده المحسنين: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «**أفضلُ الصلاة بعد الفريضة: صلاةُ الليل**»[١].

وفي «جامع الترمذي» عن عبد الله بن سلَام رضي الله عنه قال: لما قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ، انجفَلَ الناس إليه[٢]، وقيل: قدم رسولُ الله ﷺ. فجئتُ في الناس لأنظر إليه، فلما اسْتبنتُ وجهَ رسول الله ﷺ، عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذَّاب، وكان أولُ شيء تكلَّم به أن قال: «**أيها الناسُ، أَفْشوا السَّلامَ، وأَطْعِموا الطَّعامَ،**

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١١٦٣).

(٢) أي: ذهبوا مسرعين نحوه.

وصلُّوا والناسُ نيامٌ، تدخلوا الجنةَ بسلَامٍ»[1].

فضل قيام الليل عظيم، بدلالة تلك النصوص، وهو دأب الصالحين، وصفة المؤمنين، وشعار الناجين، ومن الحكمة أن يكون للمسلم من ذلك حظٌّ قلَّ أو كَثُرَ.

وفي قيام رمضان خاصة يقول النبيُّ ﷺ -في الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه-: «**مَن قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**»[2].

وقد ثبت أن النبيَّ ﷺ قام بأصحابه في رمضان، كما في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، أن رسولَ الله ﷺ خرج ذات ليلة من جوف الليل، فصلَّى في المسجد، فصلَّى رجالٌ بصلاته، فأصبَح الناسُ فتحدَّثوا؛ فاجتمَع أكثرُ منهم، فصلَّوا معه، فأصبَح الناسُ فتحدَّثوا؛ فكَثُرَ أهلُ المسجد من الليلة الثالثة، فخرَج رسولُ الله ﷺ، فصلُّوا بصلاته، فلما كانت الليلةُ الرابعةُ، عَجَزَ المسجدُ عن أهله، فلم يخرج إليهم رسولُ الله ﷺ، فَطَفِقَ رجالٌ منهم يقولونَ: الصلاةَ! فلم يخرج إليهم رسولُ الله ﷺ حتى خَرَجَ لصلاة الصبح، فلما قضى الفجرَ أقبلَ على الناس، فتشهَّد، ثم قال: «**أما بعدُ، فإنه لم يَخْفَ عليَّ مكانُكُم، لكني خَشِيتُ أن تفرضَ عليكم، فتعجزوا عنها**»[3].

ورَوى أهلُ «السنن» عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صُمنا مع رسول الله ﷺ رمضانَ، فلم يَقُمْ بنا شيئًا منه، حتى بقيَ سَبْعُ ليالٍ، فقامَ بنا ليلةَ السابعة، حتى مضى

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٧٨٤)، والدارمي (١٤٦٠)، والترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤)، والحاكم (٣/ ١٣).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٧)، و«صحيح مسلم» (٧٦٠).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٩٢٤)، و«صحيح مسلم» (٧٦١).

نحوٌ من ثلث الليل، ثم كانت الليلةُ السادسةُ التي تليها فلم يقمها، حتى كانت الخامسةُ التي تليها، ثم قام بنا حتى مضى نحوٌ من شَطْر الليل، فقلتُ: يا رسولَ الله، لو نَفَّلْتَنَا بقيةَ ليلتنا هذه[1]. فقال: «**إنه مَن قام مع الإمام حتى ينصرفَ، فإنه يَعْدِلُ قيامَ ليلةٍ**». ثم كانت الرابعةُ التي تليها، فلم يقمها، حتى كانت الثالثةُ التي تليها، قال: فجمع نساءَهُ وأهلَهُ واجتمعَ الناسُ، قال: فقام بنا حتى خشينا أن يفوتَنَا الفَلَاحُ. قيل: وما الفَلَاحُ؟ قال: السَّحور. قال: ثم لم يقم بنا شيئًا من بقية الشهر[2].

سبحانَ مَن عنَتِ الوجوهُ لوجهِهِ ... وله سجودٌ أوجهٌ وجباهُ
طوعًا وكرهًا خاضعين لعزِّهِ ... فلهُ عليها الطَّوْعُ والإكراهُ
سَلْ عنه ذرَّاتِ الوجود فإنَّها ... تدعوهُ معبودًا لها ربَّاهُ
ما لي إذا ضاقتْ وُجوهُ مذاهبي ... أحدٌ ألوذُ برُكنِه إلَّا هو
حجبتْهُ أسرارُ الجلالِ فدونه ... تقِفُ الظُّنونُ وتَخْرُسُ الأفواهُ[3]

وحول قيام رمضان تنبيهات:

الأول: حول عدد صلاة التراويح:

فالناس مختلفون اختلافًا كبيرًا في عددها، من إحدى عشرة ركعة، إلى تسع وأربعين ركعة، وما بين هذين العددين، والذي يعنينا في هذا المقام أمور، **منها:**

(١) أي: لو أعطيتنا قيام بقية الليل وزدتنا إياه، كان أحسن.
(٢) أخرجه الدارمي (١٧٧٧)، وأبو داود (١٣٧٥)، والترمذي (٨٠٦)، وابن ماجه (١٣٢٧)، والنسائي (١٣٦٤)، ومحمد بن نصر المروزي في «قيام الليل» (ص٢١٥ - مختصره للمقريزي).
(٣) ينظر: «ديوان البرعي» (ص ٣٦).

أولًا: كم صلَّى رسول الله ﷺ؟

أصح ما ورد عنه ﷺ ما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما كان رسولُ الله ﷺ يزيدُ في رمضانَ، ولا في غيره على إحدَى عشْرَةَ ركعةً»(١).

لكنه ﷺ كان يطيلها ويحسنها، كما ذكرت عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث نفسه.

ثانيًا: ما الذي فعله الصحابة رضي الله عنهم؟

لما توفِّي النبيُّ ﷺ زال الخوف أن تفرض صلاة التراويح؛ فأمر عمرُ رضي الله عنه المسلمينَ أن يجتمعوا على الصلاة؛ حيثُ دخَل المسجدَ فوجدهم أوزاعًا، يصلِّي الرجلُ لنفسه، ويصلِّي الرجلُ فيصلِّي بصلاته الرجلُ والرجلان والرهطُ... فرأى عمرُ أن يجمعهم على إمام واحد، فأمر أُبَيَّ بنَ كعبٍ وتميمَ بنَ أوسٍ الداريَّ رضي الله عنهما أن يصليا بالناس. **فكم -يا تُرى- صليا بالناس؟**

ورد في ذلك روايتان:

الأولى: أن عمرَ رضي الله عنه أمرهما أن يصليا بالناس إحدى عشرة ركعة(٢).

والثانية: أن تميمَ بنَ أوس الداريَّ وأُبَيَّ بنَ كعب رضي الله عنهما صلَّيا بالناس عشرين ركعة(٣).

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٠١٣)، و«صحيح مسلم» (٧٣٨).

(٢) ينظر: «الموطأ» (٢٥١)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٧٦٧١)، و«قيام رمضان» للمروزي (ص٢٢٠ - مختصره للمقريزي)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٤٦٨٧)، و«سنن البيهقي» (٢/ ٤٩٦).

(٣) ينظر: «مسند ابن الجعد» (٢٨٢٥)، و«الصيام» للفريابي (١٧٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٧٦٨٢، ٧٦٨٤)، و«قيام رمضان» للمروزي (ص٢٢٠ - مختصره للمقريزي)، و«سنن البيهقي» (٢/ ٤٩٦)، و«الترغيب والترهيب» لِقوام السنة (١٧٨٨، ١٧٩٠)، و«الأحاديث المختارة» للضياء (٣/ ٣٦٧) (١١٦١)، و«إتحاف الخيرة» (١٧٢٦).

وفي رواية: إحدى وعشرين ركعة[١].

وفي رواية: ثلاثًا وعشرين ركعة[٢].

وبعض أهل العلم حكم على رواية: «عشرين»، و«إحدى وعشرين»، و«ثلاث وعشرين» بالشذوذ[٣].

وبعضهم جمع بينها؛ كما فعل الحافظ ابن حجر رحمه الله، حيث قال: «والجمع بين هذه الروايات ممكن، باختلاف الأحوال، ويحتمل أن ذلك الاختلاف بحسب تطويل القراءة وتخفيفها، فحيث يطيل القراءة تقل الركعات وبالعكس»[٤].

فهو يُحمل على التنوُّع والتعدُّد بحسب الأحوال وحاجة الناس، فأحيانًا كانوا يصلون إحدى عشرة، وأحيانًا إحدى وعشرين، وأحيانًا ثلاثًا وعشرين، بحسب نشاط الناس وقوتهم، فإن صلُّوا إحدى عشرة، أطالوا حتى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام، وإن صلُّوا إحدى وعشرين أو ثلاثًا وعشرين، خفَّفوها بحيث لا يشق ذلك على الناس.

وأما رواية «عشرين ركعة»، فعلى عدم حساب الوتر؛ فإنهم كانوا يقومون

---

(١) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٧٧٣٠).

(٢) ينظر: «الموطأ» (٢٥٢)، و«الصيام» للفريابي (١٧٩، ١٨٠)، و«مصنف عبد الرزاق» (٧٧٣٣)، و«قيام رمضان» للمروزي (ص٢٢٠ - مختصره للمقريزي)، و«سنن البيهقي» (٢/ ٤٩٦)، و«شعب الإيمان» (٣٠٠٠)، و«الترغيب والترهيب» لِقوام السنة (١٧٨٧).

(٣) ينظر: «المجموع» (٤/ ٣٢-٣٣)، و«عارضة الأحوذي» (٤/ ١٩)، و«فتح الباري» (٤/ ٢٥٢-٢٥٤)، و«تحفة الأحوذي» (٣/ ٤٣٨-٤٤٠)، و«التراويح أكثر من ألف عام في المسجد النبوي» للشيخ عطية محمد سالم، و«صلاة التراويح» للشيخ الألباني، و«تصحيح صلاة التراويح عشرين ركعة» للشيخ إسماعيل الأنصاري، و«رهبان الليل» للدكتور سيد حسين العفاني (٢/ ١٦٦-٢١٠).

(٤) ينظر: «الاستذكار» (٢/ ٦٨-٦٩)، و«التمهيد» (٨/ ١١٣-١١٤)، و«فتح الباري» (٤/ ٢٥٣).

بعشرين ركعة، ثم يوترون بركعة أو بثلاث، كما رجَّح ذلك البيهقي وغيره[١].

وثمة احتمال آخر، وهو أن عمر رضي الله عنه أمرهما أن يصليا بالناس إحدى عشرة ركعة -وهذا لم تختلف فيه الروايات- ولكنَّ أُبيًّا وتميمًا رضي الله عنهما صلَّيا بالناس عشرين، أو إحدى وعشرين، أو ثلاثًا وعشرين؛ فالأمر من عمر بإحدى عشرة، والفعل منهما كان بعشرين، أو إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، وذلك قد يكون بناء على أمر عرض لهما، رأيا فيه أن المصلحة أن يصليا إحدى وعشرين أو ثلاثًا وعشرين؛ لحاجة الناس إلى ذلك، كأن يكون الناس يستطيلون القيام والركوع والسجود وغيره حينما يصلُّون إحدى عشرة ركعة، فرأوا أن تكون الصلاة إحدى وعشرين، أو ثلاثًا وعشرين، يخفِّفون فيها القيام والركوع والسجود؛ ليكون أمكنَ لهم في العبادة.

والأمر في ذلك قريب، والأظهر أن رواية إحدى عشرة أصح، وأن الأخرى دخلها شيء من الوهم أو اللبس، والله أعلم.

وسواء صلَّى الناس إحدى عشرة، أو إحدى وعشرين، أو ثلاثًا وعشرين؛ فإن الأمر الذي ينبغي التنبيه إليه: أن ما ذهب إليه بعض أهل العلم من أنه لا تجوز الزيادة في التراويح على إحدى عشرة ركعة؛ قول ضعيف، لا ينبغي الالتفات إليه؛ **لسببين**:

الأول: لأن الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ يسأله عن صلاة الليل، فقال له النبيُّ ﷺ: «**مَثْنَى مَثْنَى**..»[٢].

وهذا الأعرابي ما كان يعرف صفة صلاة الليل، ولم يكن يعلم كم كان ﷺ

(١) ينظر: «سنن البيهقي» (٢/ ٤٩٦)، و«التمهيد» (٨/ ١١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢)، ومسلم (٧٤٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

يصلِّي، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، فأطلق ﷺ ولم يقيِّد بعدد، وقال له النبي ﷺ مع ذلك: «مثنى مثنى» أي: تُسَلِّم من كل ركعتين، ولم يحدِّد له في ذلك عددًا محدودًا؛ بل أطلق الأمر.

الثاني: أن النوافل المطلقة جائزة ليلًا ونهارًا، إلا في أوقات النهي، فلو صلَّى الإنسان قبل الظهر، أو بعد الظهر، أو بعد المغرب، أو بعد العشاء، أو في الضحى ما تيسر له: ركعتين، أو أربعًا، أو عشرًا، أو عشرين؛ فلا بأس، فهذه نوافل مطلقة، وجماهير الأمة - بما فيهم الأئمة الأربعة- على أنها لا تُحدُّ بعدد لا تجوز الزيادة عليه، وإن كان منهم مَن يقول: إن عددًا أفضل من عدد آخر[(١)].

قال القاضي عياض في «شرح مسلم»: «ولا خلاف أنه ليس في ذلك حدٌّ يزاد عليه ولا ينقص منه، وأن صلاة الليل من الفضائل والرغائب التي كلما زيد فيها زيد في الأجر والفضل»[(٢)].

التنبيه الثاني: أن الصلاة فرضها ونفلها شُرعت لتهذيب النفوس، وتصفية القلوب وتطهيرها من الحقد والحسد والبغضاء، وجعلها متآخية متحابة متقاربة، وهذا من أعظم مقاصد العبادات؛ فإن العبد إذا أقبل على صلاته رقَّ قلبه، وسَمتْ نفسه، فكيف يجوز أو يسوَّغ شرعًا أو عقلًا أن يكون هذا الأمر الذي شُرِع لهذه المقاصد السامية مجالًا للخصام والتنافر والتباغض حول مسألة علمية تحتمل البحث والجدل بالتي هي أحسن؟ فهل يجوز أن تتحوَّل العبادة التي شرعها الله تعالى لتهذيب الأمة أفرادًا ومجتمعات ولجمع الكلمة، إلى ميدان لأضداد مقاصدها، فنسأل الله أن يرد الأمة إلى الفقه في دينه، والاجتماع عليه.

---

(١) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٢٣)، و«العزيز» (٤/ ٢٥٧)، و«مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٧٢-٢٧٣)، و«كشاف القناع» (١/ ٤٢٥).

(٢) ينظر: «إكمال المعلم» (٣/ ٨٢).

إن جمع الكلمة، وسلامة القلب، وطهارة النفس، من مقاصد الشرع المُجْمَع عليها عند جميع المسلمين، أما عدد الركعات فمن المختلف فيه، فكيف نقدِّم العناية بالمختلف فيه على العناية بالمُجْمَع عليه؟!

التنبيه الثالث: بعض الناس يتتبَّعون الصوتَ الحسن ويصلُّون خلف صاحبه، وهذا لا بأس به؛ لقول النبي ﷺ: «**ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ، ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصوت، يَتَغَنَّى بالقرآن يجهرُ به**»[(١)].

أي: ما استمع الله لشيء مثل استماعه لذلك الصوت.

وللصوت الحسن أثر في سكينة النفس وخشوعها، وغوصها على المعاني، وزوال السآمة والملل والتعب عنها.

وقال النبيُّ ﷺ لأبي موسى رضي الله عنه: «**لو رأيتَني وأنا أستمعُ لقراءتك البارحةَ، لقد أوتيتَ مِزمارًا من مَزَامير آل داودَ**». قال: لو علمتُ مكانك، لحبَّرتُ لك تحبيرًا[(٢)].

وقد أصبح الناسُ يعرفون مساجد تزدحم، وأئمة يُصلِّي خلفهم مئات الألوف في سائر بلاد المسلمين، كالمغرب وقطر والكويت ومصر وليبيا وغيرها، فالحمد لله على ذلك كثيرًا.

على أن صلاة المرء في مسجد حيِّه خير وأولى؛ لما فيها من إحياء المساجد، واجتماع الجيران والتعارف، ومجاهدة النفس.

وقد سُئل الإمام أحمد رحمه الله عن تتبُّع الأئمة، فقال: «انظر ما هو خير لقلبك فافعله»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٨٢)، ومسلم (٧٩٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣)، وابن حبان (٧١٩٧).

(٣) ينظر: «الفروع» (٢/ ٣٥١)، و«كشاف القناع» (١/ ٤١٤).

أي: يبحث المرء عمَّا يعالج قلبه ويقوِّي يقينه، ويختار ما هو أدعى للخشوع والتأثُّر، ولا ينبغي تحجير ما وسَّع الله فيه، وهذا يقود إلى:

التنبيه الرابع: أن من المهم التوسعة في هذه الأمور على الناس؛ فإننا نعلم من هَدي الإسلام أنه دين يسر وسماحة.

ومن نماذج ذلك: ما جاء في الحديث المتفق عليه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس رضي الله عنهما وغيرهما، أن رسولَ الله ﷺ وقف في حجة الوداع، فجعلوا يسألونه، فقال رجلٌ: لم أشعرْ، فحلقتُ قبل أن أذبحَ؟ قال: «**اذبحْ ولا حَرَجَ**». فجاء آخرُ فقال: لم أشعرْ، فنحرتُ قبل أن أرمي؟ قال: «**ارْمِ ولا حَرَجَ**». فما سُئل يومئذ عن شيء قُدِّم ولا أُخِّر إلا قال: «**افْعَلْ ولا حَرَجَ**»(١).

فكان ﷺ يحب التوسعة على أمته، وهذا مسلك الراشدين من علماء الأمة عبر العصور.

ولذا يجب علينا في هذا العصر أن نبتعد عن المشقة على الناس في صلاة التراويح وفي غيرها.

ومن الابتعاد عن المشقة أن يراعي الإمام حال المأمومين، فلا يشق عليهم بكثرة الركعات ولا بتطويلها، بل يراعي الاعتدال وما يناسب الحال.

وقد روى مسلم في «صحيحه» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أفضلُ الصلاة طولُ القنوتِ**». وفي رواية: سُئل رسولُ الله ﷺ: أيُّ الصلاة أفضلُ؟ قال: «**طولُ القنوت**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣)، ومسلم (١٣٠٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
والبخاري (٨٤)، و مسلم (١٣٠٧) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٧٥٦).



قال الإمام ابن تيمية رحمه الله مبيِّنًا معنى هذا الحديث: «النبي ﷺ بيَّن أن طول القنوت أفضل الصلاة، وهو يتناول القنوت في حال السجود وحال القيام، وأن تطويل الصلاة قيامًا وركوعًا وسجودًا، أولى من تكثيرها قيامًا وركوعًا وسجودًا؛ لأن طول القنوت يحصل بتطويلها لا تكثيرها»[(١)].

وهذا موافق من وجوه لقول الشافعي رحمه الله: «إن أطالوا القيام وأقلُّوا السجود فحسن، وأن أكثروا السجود وأخفوا القراءة فحسن، والأول أحب إليَّ»[(٢)].

وقد قال أحمد رحمه الله: «يقرأ بالقوم في شهر رمضان ما يخف على الناس، ولا يشق عليهم، لاسيما في الليالي القصار، والأمر على ما يحتمله الناس»[(٣)].

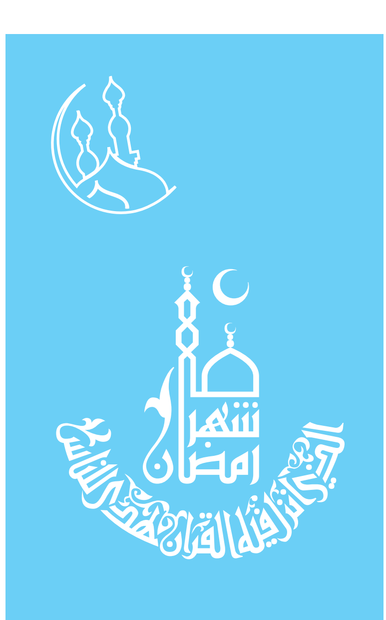
فليراع الأئمة ترك المشقة، وتأليف الناس على صلاة التراويح بتخفيفها وتسهيل إكمالها، والاعتناء بالقراءة، مع تهيئة جو المسجد وما حوله، وإبعاد كل ما هو سبب في الإزعاج أو المضايقة، أو تكدير نفوس وفود الله تعالى في بيته.

فكم من عين دامعة، وكم من قلب خاشع، وكم من نفس آبت إلى ربها وانكسرت بين يديه، في هذه الأوقات الطيبة، والتجمعات التي تغشاها السَّكينة، وتنزَّل عليها الرحمة، وتحفُّها الملائكة، ويذكرها الله تعالى فيمَن عنده.

كتب الله لنا ثواب الصيام والقيام وجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنه سميع قريب مجيب الدعوات.



(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٧١).
(٢) ينظر: «فتح الباري» (٤/ ٢٥٣)
(٣) ينظر: «المغني» (٢/ ٦٠٦)



7

الفصل السابع

من معاني الصوم

«الصومُ لي، وأنا أَجْزِي به»



من معاني الصوم

للصيام معانٍ عظيمة، ومقاصدُ سامية، لو تفكَّر فيها المؤمنُ مليًّا لطال عجبه، ولأدرك مدى عظمة هذا التشريع، مما يقطع به العقل أنه تعالى غني عن تعذيبنا، وفي «الصحيح» أن النبيَّ ﷺ رأى شيخًا يُهادَى بين ابنيهِ، فقال: «**ما بالُ هذا؟**». قالوا: نذر أن يمشي. قال: «**إنَّ اللهَ عن تعذيب هذا نفسَه لغنيٌّ**». وأمره أن يركب[1]. وغنيٌّ عن أعمالنا، كما في الحديث القدسي: «**إنكم لن تبلُغوا ضَرِّي فتضُرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»[2].

فمقصود العبادات إصلاح النفس وتزكيتها، وإصلاح المجتمع وبناؤه على أساس محكم ومتين.

ومن معاني الصيام:

أولًا: **تحقيق العبودية لله والاستسلام له**؛ وتدريب العبد على الطاعة والامتثال، وتذكيره بأنه عبد لله تعالى لا لغيره، ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى العبدَ أن يأكل في وقت، فلو صام لكان عاصيًا، كما في العيد، أو في مواصلة الصيام أيامًا متتالية دون فطر أو سحور، وفي أحوال أخرى يأمره سبحانه بالصوم، فلو أفطر لكان عاصيًا.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٦٥)، ومسلم (١٦٤٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

ويتحقق هذا المعنى في الإحرام؛ فالعبد يمتنع من أشياء في الإحرام، ويُؤمر بها في غيره؛ ليتذكَّر بها أنه عبدٌ لله ﷻ يأتمر بأمره، ويقف عند حده.

وهذا معنى عظيم، لو أن الناس أدركوه وتفطنوا له في عباداتهم، لكان أثره ممتدًا في حياتهم كلِّها، وليس مقصورًا على الأركان الأربعة، فهو يجعل المسلم في أحواله مستعدًّا، إذا أُمر أن يُقدِم أقدم، وإذا أُمر أن يُحجِمَ أحجم، وإذا غلبته نفسه وزلَّ، سارع في الاعتذار والتنصُّل.

والعبودية لله من أعظم مقاصد العبادات، وبعض المسلمين يُخِلُّون بهذا المعنى؛ وقد يؤدُّون العبادة، لكن بلا روح ولا قلب، فلا تؤثِّر الأثر المطلوب في وجدانهم وسلوكهم وتفكيرهم وأنماط حياتهم وتعاملاتهم.

ولعَمْري، إن العبودية لله هي الحرية الحقَّة، فكمال الحرية في كمال العبودية.

ومما زادني شرفًا وتيهًا ... وكدتُ بأخمَصي أطأُ الثُّريَّا

دخولي تحت قولك: ﴿يَٰعِبَادِى﴾ ... وأن صيَّرت أحمدَ لي نبيًّا[1]

وقال آخر:

أطعتُ مطامِعي فاستَعْبَدتني ... ولو أنِّي قنعتُ لكنتُ حرًّا[2]

ثانيًا: الصوم مرتبط بالإيمان؛ فهو عبادة سرية بين العبد وبين ربه، فالمرء بإمكانه أن لا يصوم، وإن أمسك طوال نهاره، وظهر للناس أنه صائم.

فامتناع العبد عن المفطرات مع قدرته عليها، دليل استشعاره اليقيني باطلاع ربه على سرائره وخفاياه.

---

(١) من شعر القاضي عياض. ينظر: «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» (٢/ ٣٧٢).

(٢) ينظر: «ديوان أبي العتاهية» (ص٦١).

ولو تأملت لوجدت هذا السرَّ الإيماني يجري في سائر العبادات، فالوضوء والغسل -مثلًا- يتطهر بهما العبدُ من الأحداث، ولو أتى إلى الصلاة دون طُهور لما علم به الناس، وكذلك الصلاة بأذكارها، من قراءة قرآن، وتسبيح في السجود والركوع، يقول المصلِّي ذلك سرًّا لا يسمعه مَن يجاوره، وما حمله على ذلك إلا إيمانه العميق بربه الذي يعلم السرَّ وأخفى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه:٧].

ثالثًا: أنه يربِّي العبد على التقوى؛ ولهذا قال الله جل جلاله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]؛ لأن الصائم يتذكر أنه لا يشرب ولا يأكل، مع أن هذا في الأصل مباح له؛ لأنه مرتبط مع الله ﷻ بوعد، فهو ممسك ابتغاء ثواب الله سبحانه، فمن باب أولى أن يكُفَّ عن المعاصي التي يعرف أنها محرمة في كل الظروف.

ولهذا جاء في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعملَ به، فليس لله حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَهُ وشرابَهُ**»(١).

ومعنى الحديث: أن الله جل جلاله لم يشرع الصيام لحاجته إليكم أن تدعوا طعامكم وشرابكم، وإنما شرع الصيام من أجل أن تتدربوا على ترك قول الزور والعمل به، فإذا لم تتركوا قول الزور ولم تتركوا العمل به، فأي معنى لصيامكم؟! فإذا لم يحدث الصيام فيكم هذا المعنى، فصيامكم حينئذ غير ذي جدوى لهذه العلة.

وهذا معنى لطيف إذا تأمله الصائم وجده ظاهرًا، فالصوم يربِّي الإنسان على التقوى، وترك المحرمات كلها، من الغيبة، والنميمة، والفحش، والبهتان، وغيرها من الأخلاق السيئة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٣).

رابعًا: **الصوم تربية للمجتمع**؛ فالصائم عندما يرى مَن حوله صيامًا، يحس بروح المجموع، وهذا من بين الأسباب التي سهل لأجلها صوم الفرض، فصائم رمضان أينما ذهب وجد مَن حوله صائمين، فيستشعر مشاركة الآخرين له، وأنه يقوم بعمل يؤدِّيه الناس جميعًا، بخلاف النافلة.

ومن هنا أصبح الصوم تربية للمجتمع، حتى المجتمعات التي يغلب عليها الضعف والتهاون، تجد آثار رمضان ظاهرة عليها، ويندر في الناس مَن يجاهر بالفطر ويعلنه.

خامسًا: **الصيام يربِّي العبدَ على التطلُّع إلى الدَّار الآخرة**؛ فالصائم يترك ما يحب ويشتهي تطلعًا إلى ما عند ربه من الأجر والثواب، فمقياس ربحه وخسارته مقياس أخروي، وفي ذلك أعظم الدروس لتوطين قلب الصائم على الإيمان بالغيب والآخرة، والتعلُّق بها، والترفُّع عن عاجل ملاذِّ الدنيا التي تقود إلى التثاقل والإخلاد إلى الأرض. هذا مع وافر الخير المعجَّل له في الدنيا، ونعيم حياته بصحة البدن، وفرح القلب بالطاعة، وانشراح الصدر بالإيمان.

وأصحاب المقاييس المادية لا يرون في الصوم أكثر من حرمان من لذة الأكل والشرب والوقاع، والتي بها سعادة النفس وتلبية الحاجات الجسمية.

سادسًا: **الصوم يربِّي الإنسان على قوة الإرادة، وعلى الصبر**؛ فمن أسماء الصوم: الصبر، ولذلك سُمِّي شهر رمضان: شهر الصبر؛ وفي قول الله جل جلاله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، قال بعض المفسرين: المقصود بالصبر هنا: الصوم[(١)]. أي: استعينوا بالصوم

(١) وهو قول مجاهد. ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ١١)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٣٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٢٥١).

والصلاة؛ وذلك لأن الصوم يربِّي مَلكة الصبر وقوة الإرادة، وكثير من الناس يحتاجون دائمًا إلى تقوية إرادتهم.

والنجاح يفتقر إلى ثلاثة أشياء:

١- الرغبة: فكل إنسان يود أن يكون قويًّا، وأن يكون ناجحًا، وموفَّقًا، وغنيًّا.

٢- القوة أو القدرة: فأكثر الناس يملك عقلًا، وجسمًا، وإمكانيات لو وظفها لنجح.

٣- الإرادة: فتقوية الإرادة من أعظم أسباب النجاح للإنسان في دنياه وأخراه، وتحقيق آماله وتطلعاته، وتوظيف قدراته فيما ينفعه عاجلًا وآجلًا.

والصوم يقوِّي ذلك كله ويوظِّفه، ويربِّي الإنسان على تحمُّل المشاق في أمور الحياة كلها، وهو شيء لا يوجد إلا عند الناجحين الذين استطاعوا أن يحقِّقوا هذه الرغبات من خلال استخدام ما وهبهم ربهم.

تَعَزَّ فإن الصبرَ بالحُرِّ أجملُ	وليس على ريبِ الزمان مُعوَّلُ
فإن تكن الأيامُ فينا تبدَّلت	بنُعمَى وبُؤسَي والحوادث تفعلُ
فما ليَّنت منا قناةً صليبةً	ولا ذلَّلتنا للتي ليس يجمُلُ
ولكن رَحلْناها نفوسًا كريمةً	تُحمَّل ما لا يُستطاع فتحمِلُ[١]

فالصبر ضرورة دينية لصلاح العبد، وضرورة حياتية لنجاحه، وضرورة اجتماعية لإقامة علاقة معتدلة ودائمة مع الآخرين، وهو أعظم خُلُق يحتاجه المرء

(١) الأشهر نسبتها لإبراهيم بن كُنيف النبهاني. ينظر: «الوافي والوفيات» (٢/ ٦٢)، و«الأعلام» للزركلي (١/ ٥٨)، و«ديوان الحماسة» (ص٨٦)، ونُسبت إلى البسامي، كما في «روضة العقلاء» (ص١٦٢).

لتحقيق آماله وتطلعاته، ثم لديمومة النجاح، ثم لتحمُّل الإخفاقات التي لا تخلو منها الحياة، ويحتاجه مع زوجه وولده، وحتى مع نفسه التي لا تطاوعه في أحيان كثيرة، ومع أصدقائه وقرابته، ومع خصومه وأعدائه، ولذا قال سبحانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

سابعًا: **الصوم يقمع الشهوة**؛ ولهذا جاء في الحديث، أن النبي ﷺ قال: «**يا معشرَ الشباب، مَن استطاع منكمُ الباءَةَ فليتزوجْ، ومَن لم يستطعْ فعليه بالصوم؛ فإنه له وِجَاءٌ**». متفق عليه(١).

فأشار النبيُّ ﷺ إلى أن الصوم يمنع من اندفاع الإنسان إلى الشهوات.

وربط بعض أهل العلم هذا الحديث بالحديث الآخر المتفق عليه من حديث صفية رضي الله عنها، وفيه قول النبي ﷺ: «**إن الشيطانَ يجري من ابن آدمَ مَجْرَى الدَّمِ**»(٢).

وجاء في رواية زيادة: «**فضيِّقوا مجارِيهِ بالجوعِ، أو بالصوم**». لكن هذه الزيادة باطلة، ليس لها أصل، ولا تُعرف في شيء من كتب الحديث(٣).

فالصوم يقمع الشهوة، بأنه يضيِّق المجاري، كما يقول بعض العلماء، أو أنَّ تلبُّس الإنسان بالعبادة التي تستغرق النهار كله؛ تُحْدِث ذلك الأثر المعنوي، ولا مانع من إرادة المعنيين معًا، والله أعلم.

ويواكب هذا ما تيسر من الصلاة والقيام والذكر في ليالي رمضان خاصة، فهذا يمنعه من الاندفاع والنظر الحرام، ويمنعه من الوقوع فيما حرم الله.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٠٦٥)، و«صحيح مسلم» (١٤٠٠).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٠٣٨)، و«صحيح مسلم» (٢١٧٥).

(٣) ينظر: «الأحاديث التي في إحياء علوم الدين التي ليس لها أصل» (٦/ ٢٩٩- طبقات الشافعية)، و«السلسلة الضعيفة» (٣/ ٧٩).

ثامنًا: الآثار النفسية والبدنية المترتبة عليه؛ وهي كثيرة، ويتكلَّم بعض الأطباء عن الصيام وأثره على البدن، وتنظيم الطعام، وأنه نوع من الحِمْيَة، وقد يوصي به بعض أهل الطب.

ولا شك أن هذه من الفوائد التابعة، كما يقال مثل هذا عن الصلاة، أو الحج، أو غيرها.

لكن العبد إنما يمتثل هذه الأوامر تعبُّدًا لله وطاعة، حتى ولو لم يكن لها فائدة على بدنه؛ والله تعالى لم يأمرنا بما فيه ضرر إلا إذا كان يقابله نفع أعظم منه، فقاعدة الشريعة أنها جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، ودفع المفاسد وتعطيلها أو تقليلها.

وصلاح قلب الإنسان وصفاؤه وتجرُّده هو أساس كل خير، وسرُّ كل نهوض أو تغيير، وعليه تدور سائر الأحوال، فالإصلاح السياسي والعلمي والإداري والاقتصادي، يفتقر إلى النيات الصادقة والقلوب السليمة، ومتى سلم الناسُ من تَقَصُّد السوء وإرادته، وتوجَّهوا إلى الخير يطلبونه ويبحثون عنه؛ فإن الله معهم بالتوفيق والسداد والإسعاد والنجاح، كما قال سبحانه: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [النساء:٣٥]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١].

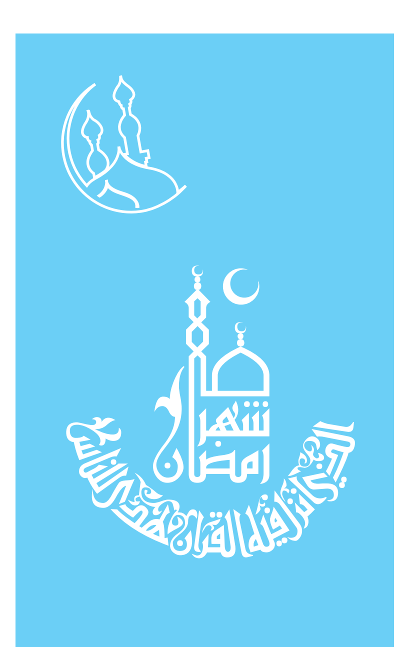
وعلى الصائم ألَّا يكون انتقائيًا فيما يفعل ويترك، فالصوم يحبس النفس عن الشهوات المحرَّمة، والكلام الفاسد، ولكنه يمنع أيضًا عن السرقة، وخصوصًا سرقة المال العام، والتحايل على ذلك بشتى الوسائل، والتساهل بزعم أن له فيه حقًّا؛ مما يفضي إلى التربية على الغش والكذب والخداع والاحتيال، وسرقة الوقت العام بالتخلُّف عن الدوام، تحت ذريعة التعب والصيام، أو إهمال المستفيدين

والمراجعين وزجرهم، أو سرقة أموال الناس، تحت مسمَّى مساهمات وهمية، أو شركات غير قائمة، أو مضاربات لا حقيقة لها؛ مما يضرُّ بالضعفاء والفقراء والمساكين وأصحاب الدخول القليلة، ويحيل أحلامهم بالغنى إلى سراب خادع، وغُصَّة لا تُمحى في حلوقهم، ويشوِّه سمعة الفاعل ومَن على شاكلته، فمدرسة الصوم هي سلاح جذري شامل لذلك كله(١).

نسأله جل وتعالى باسمه الأعظم الذي إذا سُئل به أَعْطَى، وإذا دُعي به أجاب، أن يثبِّت قلوبنا على دينه، وأن يصرِّف قلوبنا على طاعته، وأن يُلهمنا رشدنا، ويقينا شُحَّ أنفسنا.



(١) ينظر: «نداء الريان» (١/ ١٢)، و«رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص٤٥)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٣٤١).



8

الفصل الثامن

الصوم والصحة

«الصَّومُ جُنَّة»



الصوم والصحة

حين يقول الله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:١٨٤]، فالخيرية هنا تشمل الدنيا والآخرة، وقد أثبت الطب الحديث بعد دراسات عديدة وأبحاث دقيقة على جسم الإنسان ووظائفه الفسيولوجية، أن الصيام حالة ضرورية، يجب على الجسم أن يمارسها، حتى يمكِّنه من أداء وظائفه الحيوية بكفاءة، وأنه ضروري لصحة الإنسان كالأكل والشرب تمامًا، وكالحركة والنوم، وهو يقوم بعملية الهدم التي يتخلَّص فيها الجسم من الخلايا القديمة والخلايا الزائدة عن حاجته.

وفي الحديث: «**الصيام جُنة**»[١]. فهو جُنة من أدواء الروح والقلب والبدن؛ مَنافعُه تفوت الإحصاء، وله تأثير عجيب في حفظ الصحَّة، وإذابةِ الفضلات، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها، ولاسيما إذا كان باعتدال وقصد.

ثم إنَّ فيه من إراحة الأجهزة والأعضاء ما يحفظ عليها قواها.

وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية، وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعًا وشرعًا؛ عظم انتفاع قلبه وبدنه به، وحبس عنه المواد الغريبة الفاسدة التي هو مستعِدٌّ لها، وأزال الموادَّ الرديئةَ الحاصلةَ بحسب كماله ونقصانه، وترك الطعام والشراب مقصود، وهو معنى الصوم الشرعي، وهو

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يحقِّق مصلحة صحية عظيمة.

والمقصود الآخر: اجتماعُ القلب والهمِّ على الله تعالى، وتوفيرُ قُوى النفس على محابِّهِ وطاعته[١].

ومع أن الصوم عبادة جزاؤها الأجر والثواب في الآخرة، ورضوان المولى جل وتعالى، والطمأنينة في الدنيا بطاعة الله وذكره، وسرور القلب بإنجاز العمل؛ إلا أن من بديع الحكمة والرحمة أن يتعبدنا ربنا بما فيه خيرنا في العاجل والآجل، فتكون العبادات سببًا في العافية وصحة البدن ونظافته، **ومن فوائد الصوم القيِّمة للجسد والروح والنفس ما يلي:**

١- الصوم راحة للجسم، يمكِّنه من إصلاح أعطابه ومراجعة ذاته.

٢- الصوم يُوقِف عملية امتصاص المواد المتبقية في الأمعاء، ويعمل على طرحها، والتي يمكن أن يؤَدِّي طول مكثها إلى تحولها لنفايات سامة، كما أنه الوسيلة الوحيدة الفعالة التي تسمح بطرد السموم المتراكمة في البدن والآتية من المحيط الملوَّث.

٣- بفضل الصوم تستعيد أجهزة الإطراح والإفراغ نشاطَها وقوتَها، ويتحسَّن أداؤها الوظيفي في تنقية الجسم، مما يؤدِّي إلى ضبط الثوابت الحيوية في الدم وسوائل البدن. ولذا نرى الإجماعَ الطبي على ضرورة إجراء الفحوص الدموية على الريق، أي يكون المفحوص صائمًا، فإذا حصل أن عاملًا من هذه الثوابت في غير مستواه، فهو دليل على وجود خلل ما.

٤- بالصوم يستطيع البدن تحليل المواد الزائدة والترسبات المختلفة داخل الأنسجة المريضة.

---

(١) ينظر: «زاد المعاد» (٤/ ٣٣٤-٣٣٥).

٥- الصوم أداة يمكن أن تعيد الشباب والحيوية إلى الخلايا والأنسجة المختلفة في البدن. ولقد أكَّدت أبحاثٌ علميةٌ أن الصوم سبب في إعادة الشباب الحقيقي للجسد.

٦- الصوم يضمن الحفاظ على الطاقة الجسدية، ويعمل على ترشيد توزيعها حسب حاجة الجسم.

٧- الصوم يُحسِّنُ وظيفةَ الهضم، ويسهِّل الامتصاص، ويسمح بتصحيح فرط التغذية.

٨- الصوم يفتِّح الذهنَ ويقوِّي الإدراك، وقديمًا قيل: «البِطْنَةُ تذهب الفِطْنَةَ».

٩- للصوم تأثيرات مهمة على الجلد، تمامًا كما يفعل مرهم التجميل، يُجَمِّل وينظِّف الجلد.

١٠- الصوم علاج شافٍ، هو الأكثر فعالية والأقل خطرًا لكثير من أمراض العصر المتنامية؛ فهو يخفِّف العبء عن جهاز الدوران، وتهبط نسبة الدسم وحمض البول في الدم أثناء الصيام، فيقي البدين من الإصابة بتصلب الشرايين، وداء النقرس، وغيرها من أمراض التغذية والدوران وآفات القلب.

وهكذا، وبعد أن ينظِّف الجسم من سمومه، وتأخذ أجهزته الراحة الكاملة بسبب الصوم؛ يتفرغ إلى لأم جروحه وإصلاح ما تلف من أنسجته، وتنظيم الخلل الحاصل في وظائفها؛ إذ يسترجع الجسد أنفاسه ويستجمع قواه لمواجهة الطوارئ بفضل الراحة والاستجمام اللذين أُتِيحا له أثناء الصوم.

يقول الدكتور (ليك): يوفِّر الجسم بفضل الصوم الجهد والطاقة المخصَّصة للهضم، ويدَّخرها لنشاطات أخرى ذات أولوية وأهمية قصوى؛ كالتئام

الجروح، ومحاربة الأمراض.

هذا فضلًا عن تأثير الجانب النفسي من الإحساس بالحرمان، والذي يَعْرِض لغير المتدرِّب على الصيام[١].

ومن وصايا لقمان عليه السلام لابنه: «يا بني، إذا امتلأت المعدةُ نامت الفكرةُ، وخرست الحكمةُ، وقعدت الأعضاءُ عن العبادة».

وقال سفيان الثوري رحمه الله: «بقلّة الطعام يُملك سهرُ الليل».

وقال سُحنون: «لا يصلح العلم لَمن يأكل حتى يشبع»[٢].

قال الشاعر عمر الأميري:

قالوا: سيتعبُك الصيامُ	وأنت في السَّبعين مُضْنَى
فأجبتُ: بل سيشُدُّ من	عزمي ويحبو القلبَ أمنَا
ذكرًا وصبرًا وامتثالًا	للَّذي أغنَى وأقْنَى
ويمدُّني روحًا وجسمًا	بالقُوَى معنًى ومبنَى
رمضانُ عافيةٌ فصمْهُ	تقًى لتَحْيَا مطمئنًّا[٣]

وهذه عشر فوائد للجوع المنضبط بالصوم الشرعي:

الأولى: صفاء القلب، وإيقاد القَرِيحة، وإنفاذ البصيرة؛ فإن الشبع يُورِث

(١) ينظر: «فيض القدير» (٤/ ٢١٢)، و«الآداب الشرعية» (٢/ ٣٦١)، و«نداء الريان» (٢/ ٢٨٣)، و«رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص٨٣)، و «الإعجاز العلمي في الطب الوقائي» (ص٩٢).

(٢) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٦٠٠)، و«الشفا» للقاضي عياض (١/ ٧٢، ٨٥)، و«إحياء علوم الدين» (٣/ ٨٢).

(٣) ينظر: «ديوان بهاء الدين الأميري» (ص٥٤).

البَلَادة، ويعمي القلب، فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك.

الثانية: رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيَّأ لإدراك لذة المثابرة والتأثُّر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب، ولكن القلب لا يلتذُّ به ولا يتأثر، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثُّره بالذكر وتلذُّذه بالمناجاة، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه.

الثالثة: الانكسار والذل، وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى؛ فإن الجوع يكشف للإنسان ضعفه وعجزه ومحدودية قواه، ولا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع.

الرابعة: أن لا ينسى بلاء الله وعذابه، ولا ينسى أهل البلاء؛ فإن الشبعانَ ينسى الجائعَ، وينسى الجوعَ.

الخامسة: كسرُ شهوات المعاصي، والاستيلاءُ على النفس الأمَّارة بالسوء؛ فإن منشأَ المعاصي الشهواتُ، ومادة الشهوات الأطعمة، فتقليلها يضعف الشهوة، وإنما السعادة كلُّها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكَه نفسُه.

ولا شيء يدمِّر قوى البشر اليوم مثل الإدمان السلبي على العادات الضارة، فالإدمان دافع كافٍّ ليفعل الإنسان ما اعتاد، حتى لو كان فيه عطبه وهلاكه.

السادسة: دفع الكسل والخمول؛ فإنَّ مَن شبع واكتظ، أُتْخِم وكثر نومه، ولأجل ذلك قال بعض السلف: «لا تأكلوا كثيرًا، فتشربوا كثيرًا، فترقدوا كثيرًا، فتخسروا كثيرًا».

وفي كثرة النوم والخمول: ضياع العمر، وبلادة الطبع، وقساوة القلب،

والعمر أنفس الجواهر، وهو رأس مال العبد.

السابعة: تيسير المواظبة على العبادة؛ فإنَّ الأكل بنَهَمٍ يمنع من كثرة العبادات؛ لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل، وزمان للاسترخاء والهضم، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام ومئونته وغير ذلك.

الثامنة: يستفيد من قلة الأكل صحة البدن، ودفع الأمراض التي سببها كثرة الأكل، والمرض يعوق عن العبادات، ويشوِّش القلب، ويمنع من الذكر والفكر، وينغِّص العيش، ويُحْوِج إلى الدواء والطبيب.

التاسعة: خفة المئونة والاقتصاد في النفقة؛ وقد أصبح الناس يتفنَّون اليوم في تنويع المطاعم والمشارب، ويبالغون فيها مما يأكلون وما لا يأكلون.

وهذا يقود إلى الفائدة العاشرة، وهي: أن يتمكَّن من الإيثار والتصدُّق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين، فينعم يوم القيامة بفضل صدقته[1].

قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧]، وقال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١].

وهذه الآية هي أحد أصول الطب الوقائي في الأمر بالعناية بالأكل والشرب الصحي المعتدل الملائم للجسم، وتجنُّب الضار منها، بما في ذلك إدمان الوجبات السريعة المطهية بالدهون المؤيَّنة؛ مما سبَّب انتشار السمنة وشيوع أمراض أخرى لدى الشباب[2].

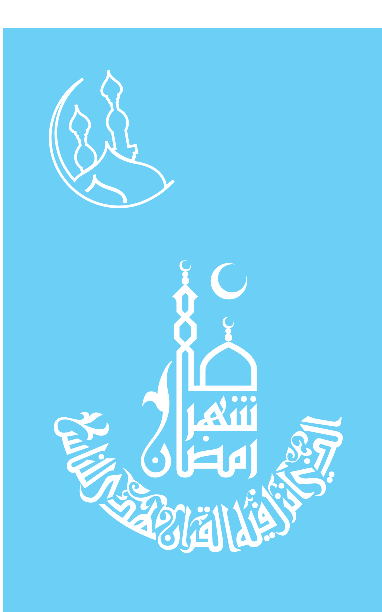
(١) ينظر: «الزهد» لأحمد (ص ١٢٩)، و«الترغيب والترهيب» لِقوام السنة (٨٩١)، و«إحياء علوم الدين» (١/ ٣٥٦)، (٢/ ٣٥٦)، (٣/ ٨٤-٨٦).

(٢) ينظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ٨٤)، و«نداء الريان» (٢/ ٢١٤).

وقد كان النبيُّ ﷺ يستعيذ بالله من سيِّء الأسقام[١]، ويسأل اللهَ العافية، فنعوذ بالله من جَهْد البلاء، ودَرَك الشقاء، وسوء القضاء، وعُضال الداء، وشماتة الأعداء.



(١) ينظر: «مسند الطيالسي» (٢٠٠٨)، و«مسند أحمد» (١٣٠٠٤)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٨٧٦)، و«مسند أبي يعلى» (٢٨٩٧)، و«صحيح ابن حبان» (١٠١٧، ١٠٢٣)، و«الدعاء» للطبراني (١٣٤٢)، و«المستدرك» (١/ ٥٣٠).



9

الفصل التاسع

شهر الجود

«فلَرَسولُ الله ﷺ أجودُ بالخير من الرِّيح المرسلة»



شهر الجود

الجودُ والكرمُ من الأخلاق العظيمة التي مَن تحلَّى بها أحبَّه الله وأحبَّه الناس، وهي دليلُ المروءةِ والرجولة والإنسانية الصادقة. كرم النفس: بالمال والجاه، وبالعلم والوقت، وبالنفس والنفيس.

والجود عشر مراتب:

أحدها: الجود بالنفس، وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجُودُ بالنَّفس إن ضَنَّ البخيلُ بها   والجودُ بالنَّفْس أَقْصى غاية الجودِ[1]

ومعناه: الإقدام في ميدان الجهاد الشرعي، وطلبه الشهادة، كما قيل:

يا نفسُ مالَكِ تَكرهين الجنَّـةْ

أقسمتُ بالله لتنزِلِنَّهْ

طائعةً أو لتُكرَهِنَّهْ

لطالما قد كنتِ مُطمئنَّـةْ

هل أنتِ إلا نطفةٌ في شَنَّـةْ

(١) من شعر مسلم بن الوليد. ينظر: «الإيضاح في علوم البلاغة» (ص١٧٢)، و«جمهرة الأمثال» (١/ ٩٥).

قد أجلَب الناسُ وشدُّوا الرَّنَّـةْ[(١)]

الثانية: الجود بالرياسة، فيحمل الجَوَاد جودُه على امتهان رياسته، والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس، أو يتخلَّى عنها؛ حفظًا لأمن الناس ووحدتهم ومصالحهم وحقن دمائهم.

الثالثة: الجود بالمال، وقد تعب في جمعه وحفظه وصيانته، ثم يبذل منه للسائل والمحروم والفقير والمسكين وابن السبيل والعافي الذي لم يتعب في جمعه، وهي درجة عظيمة من السمو ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

الرابعة: الجود بالعلم وبذله، وهو أفضل من الجود بالمال؛ من وجه أن العلم أشرف من المال، على أن المال يذهب والعلم لا يذهب.

ومن جود العلم أن يُبذَل لَمن يسأل عنه ويُطرَح عليه طرحًا، وأن يكون الجواب شافيًا، وليس بقدر ما تُدفع به الضرورة.

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه؛ كالشفاعة والمشي إلى ذي سلطان وغيره في قضاء حاجة أو إسقاط دين أو مطالبته أو إنجاح مقصد.

وإذا امرُؤٌ أَسْدَى إليك صَنِيعةً ... من جـاهِـهِ فكأنَّـهـا مِن مالِهِ[(٢)]

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه، كما قال ﷺ: «**كُلُّ سُلَامَى**[(٣)] **من الناس عليه صدقةٌ، كلَّ يوم تطلعُ فيه الشمسُ؛ يعدلُ بين الاثنين صدقةٌ،**

---

(١) قاله عبد الله بن رواحة رضي الله عنه. ينظر: «سنن ابن ماجه» (٢٧٩٣)، و«الجهاد» لابن أبي عاصم (٢٥٨)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١٥٤)، و«تاريخ دمشق» (٢٨/ ١٢٦).

والشنة: القِربة البالية. وأجلَب الناس: أي: اشتد ضجيجهم. والرَّنة: صوت مع البكاء، فيه ترجيع.

(٢) ينظر: «ديوان أبي تمام» (ص١٢٠).

(٣) السُّلامى: المفصل.

ويُعينُ الرجلَ على دابته، فيحملُ عليها أو يرفعُ عليها متاعَهُ صدقةٌ، والكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ، وكلُّ خُطوةٍ يخطُوها إلى الصلاة صدقةٌ، ويميط الأَذَى عن الطريق صدقةٌ». متفق عليه[(١)].

فيجود براحته ورفاهيته وإجمام نفسه في تحصيل مصالح الآخرين.

السابعة: الجود بالعِرض، كما رُوي بسند فيه مقال، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**أيعجزُ أحدُكم أن يكونَ مثل أبي ضَمْضَمٍ؟**». قالوا: ومَن أبو ضَمْضَمٍ؟ قال: «**رجلٌ فيمَن كان قبلكم، قال: عرضي لـمَن شتمني**»[(٢)]. وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلُّص من معاداة الخلق ما فيه.

هَنيئًا مَريئًا غيرَ داءٍ مُخامرٍ ... لِعَزَّةَ مِن أعراضِنا ما استحلَّتِ[(٣)]

الثامنة: الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء، وهو أنفع لصاحبه من الجود بالمال، ولا يقدر عليه إلا أصحاب النفوس الكبار؛ فمَن صعُب عليه الجود بماله، فعليه بهذا الجود؛ فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة:٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٨٩)، و«صحيح مسلم» (١٠٠٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨٧)، والبزار (٦٨٩٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٠٨٢)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (٢/ ٣٢٥) (١٧٧٠).
وينظر: «العلل» للدارقطني (١٢/ ٣٨-٤٠)، و«إرواء الغليل» (٨/ ٣٢-٣٤).

(٣) ينظر: «ديوان كُثَيِّر عَزَّة» (ص١٠٠)، ونسب أيضًا إلى جرير بن عطية، كما في «ديوانه» (ص٧٢)، وينظر: «الزهد» لهناد (٢/ ٦٠٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١/ ٥١٨)، و«المجالسة» للدينوري (٣/ ١٦٢).
ومخامر: من خامر الداء، أي: دخل جوفه.

التاسعة: الجود بالخُلُق والبشر والبَسْطَة، وهو الذي يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان(١)، وفيه من المنافع والمسارِّ وأنواع المصالح ما فيه، والعبد لا يمكنه أن يسعَ الناسَ بماله، ويمكنه أن يسعهم بخُلُقه واحتماله.

أُضاحِكُ ضَيفي قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ
ويُخْصِبُ عندي والمَحَلُّ جَدِيبُ
وما الخِصْبُ للأضيافِ أن يَكثُرَ القِرَى
ولكنَّما وجهُ الكريمِ خَصيبُ(٢)

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس، فلا يلتفت إليه ولا يستشرف له، وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك أنه أفضل من سخاء النفس بالبذل(٣).

والجود من صفات الله العليا، والجَوَاد من أسمائه الحسنى، ولهذا قال رسولُ الله ﷺ: «**إن اللهَ كريمٌ يحبُّ الكرماءَ، جَوَادٌ يحبُّ الجُودَ، يحبُّ معالي الأخلاقَ، ويكرهُ سَفْسَافَهَا**»(٤).

---

(١) ينظر: «مسند الطيالسي» (١٠٧١)، و«الأدب المفرد» (٢٨٤)، و«سنن أبي داود» (٤٧٩٨)، و«الكرم والجود» للبرجلاني (١٥)، و«مكارم الأخلاق» للخرائطي (٥١-٥٣)، و«صحيح ابن حبان» (٤٨٠)، و«مكارم الأخلاق» للطبراني (٢، ٣)، و«المستدرك» (١/ ٦٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٥٢٢، ٧٩٤، ١٥٩٠).

(٢) من شعر يعقوب الخريمي، كما في «ديوانه» (ص١٢)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (٣/ ٢٦٢)، ونسب إلى حاتم الطائي، كما في «العقد الفريد» (١/ ١٩٧، ١٩٩)، و«الروض الأنف» (٢/ ٦٥). والخِصب: كثرة الكرم. والقِرى: هو ما يقدَّم للضيف.

(٣) أخرجه ابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد» (٥/ ٨٢).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٨)، والطبراني (٢٨٩٤، ٥٩٢٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩)، والحاكم (١/ ٤٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٠١١). وسفسافها: فاسدها وحقيرها.

وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي، لو أن أَوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجِنَّكم، قاموا في صَعِيد واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إِلَّا كما ينقُصُ المِخْيَط إذا أُدخل البحرَ**»[(١)].

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسولُ الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودُ ما يكونُ في رمضانَ حين يلقاه جبريلُ، وكان يلقاه في كلِّ ليلة من رمضانَ فيدارسُهُ القرآنَ، فلرسولُ الله ﷺ أجودُ بالخير من الرِّيح المُرْسلة»[(٢)].

وعن صفوانَ بن أُميَّةَ رضي الله عنه قال: «والله، لقد أعطاني رسولُ الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأَبغضُ الناس إليَّ، فما بَرِحَ يُعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليَّ»[(٣)].

وقد أعطى النبيُّ ﷺ صفوانَ يومئذ واديًا من الإبل والنَّعَم، فقال صفوان: «أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي»[(٤)].

وفي «صحيح البخاري» أن محمد بن جُبير قال: أخبرني جُبير بن مُطْعِم، أنه بينا هو مع رسول الله ﷺ ومعه الناسُ، مقبلًا من حُنين، عَلِقَت رسولَ الله ﷺ الأعرابُ يسألونه، حتى اضطرُّوه إلى سَمُرَة، فخطِفَت رداءَه، فوقف رسولُ الله ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي، فلو كان عددُ هذه العِضَاهِ**[(٥)] **نعـمًا لقَسَمْتُه بينكم، ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا**»[(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣١٣).

(٤) ينظر: «تاريخ دمشق» (٢٤/ ١١٤)، و«لطائف المعارف» (ص ١٦٤)، وعزاه إلى «مغازي الواقدي».

(٥) العضاه: كل شجر له شوك، مفرده: عضيهة، وعضاهة، وعضة.

(٦) ينظر: «صحيح البخاري» (٣١٤٨).

وأخرج البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، أن امرأةً جاءت النبيَّ ﷺ ببُردةٍ منسوجةٍ فيها حاشيتها، أتدرون ما البُردة؟ قالوا: الشَّمْلَة. قال: نعم. قالت: نَسَجْتُها بيدي، فجئتُ لأَكْسُوكَهَا. فأخذها النبيُّ ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها إزارُه، فحسَّنها فلانٌ، فقال: اكْسُنيها، ما أحسنَها! قال: «**نعم**». فجلس النبيُّ ﷺ في المجلس، ثم رجَع فطواها، ثم أرسل بها إليه. فقال القوم: ما أحسنتَ؛ لبسها النبيُّ ﷺ محتاجًا إليها، ثم سألْتَه وعلمتَ أنه لا يَرُدُّ! قال: إني والله ما سألتُه لألبسه إنما سألته لتكون كفني. قال سهل: فكانت كفنه[(١)].

وعن ابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: دخل النبيُّ ﷺ على بلال وعنده صُبْرَةٌ من تمر[(٢)]، فقال: «**ما هذا يا بلالُ؟**». قال: أُعِدُّ ذلك لأضيافك. قال: «**أنفقْ بلالُ، ولا تخشَ من ذي العرش إقْلَالًا**»[(٣)].

كان جودُه ﷺ كلُّه لله، وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال إما لفقير أو محتاج، أو ينفقه في سبيل الله، أو يتألف به على الإسلام فيُعطي عطاءً يعجَزُ عنه الملوكُ، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهرُ والشهران لا يُوقد في بيته نار، وربما ربط على بطنه الحجرَ من الجوع[(٤)]، وكان قد أتاه سَبْيٌ، فشكت إليه فاطمة رضي الله عنها ما تَلْقى من خدمة البيت، وطلبت منه خادمًا يكفيها مئونة بيتها، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد عند نومها، وقال: «**لا**

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٢٧٧).

(٢) الصُّبرة: الكومة المجموعة من الطعام.

(٣) أخرجه البزار (٩٨٩٣، ٩٩٣٠)، وأبو يعلى (٦٠٤٠)، والطبراني (١٠٢٥، ١٠٣٠٠)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١/ ٣٧٦) (١١٣٨-١١٤٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٨٣)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦١).

(٤) ينظر: «مسند أحمد» (١٤٢٢٠)، و«صحيح البخاري» (٢٥٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٠، ٢٩٧٢).

أعطيك خادمًا، وأدعُ أهلَ الصُّفَّةِ تَطْوَى بُطُوْنهم من الجوع...»[١].

تعوَّد بسْطَ الكفِّ حتى لو انَّـه ... ثَنَاها لقبضٍ لم تُـجِبْهُ أنـامـلُـهْ

تَـراه إذا ما جئـتَـه مُـتـهـلِّـلًا ... كأنَّك تُعطيهِ الذي أنت سائلُهْ

هو البحرُ مِن أيِّ النواحي أتيتَهُ ... فلُجَّتُهُ المعروفُ والجودُ ساحلُهْ

ولو لم يكُن في كفِّهِ غيرُ روحهِ ... لجَادَ بها فليتَّـقِ اللهَ سـائـلُـهْ[٢]

وللجود في رمضان خاصة فوائد:

منها: شرف الزمان، ومضاعفة أجر العامل فيه.

ومنها: إعانة الصائمين والقائمين والذاكرين على طاعتهم.

وعن زيد بن خالد الجُهني رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«مَن فطَّر صائمًا، كان له مثلُ أجره، غيرَ أنه لا ينقصُ من أجر الصائم شيئًا»**[٣].

ومنها: أن الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة، كما جاء في حديث علي رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: **«إن في الجنة غُرفًا، تُرى ظهورُها من بطونِها، وبطونُها من ظهورِها»**. فقام أعرابي فقال: لَمن هي يا رسولَ الله؟ قال: **«لمَن أطابَ الكلامَ، وأطعَم الطعامَ، وأدامَ الصيامَ، وصلَّى لله بالليل والناسُ نيامٌ»**[٤].

---

(١) أخرجه الحميدي (٤٤)، وأحمد (٥٩٦، ٨٣٨)، والطبراني في «الدعاء» (٢٣٠، ٢٣١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٢٠٥)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (١/ ٢٦٣) (٤٦٥).
وأصله في «صحيح البخاري» (٣٧٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٧٢٧).

(٢) ينظر: «ديوان أبي تمام» (ص١٥). واللُّجَّة: الماء الكثير الذي لا يُرى طرفه.
وينظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٠٣٣)، والترمذي (٨٠٧)، وابن ماجه (١٧٤٦)، وابن حبان (٤٦٣٣)، والبيهقي (٤/ ٢٤٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١٨١٨).

(٤) أخرجه الترمذي (١٩٨٤)، وأبو يعلى (٤٢٨)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١٥٤)، وابن حبان (٥٠٩)، والحاكم (١/ ٨٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٢٥).

ومنها: أن الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا، والمباعدة عنها، وخصوصًا إذا ضُمَّ إلى ذلك قيامُ الليل.

فالصيام جُنَّة، وفي حديث معاذ رضي الله عنه: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصومُ جُنَّةٌ، والصدقةُ تطفئ الخطيئَةَ، كما يطفئُ الماءُ النارَ، وصلاةُ الرجل من جوف الليل**». ثم تلا: «﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ...﴾». حتى بلغ: «﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٦-١٧]»[١].

وفي الحديث الذي رواه البخاري، ومسلم عن عَدِي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**اتقوا النار، ولو بشقِّ تمرةٍ**»[٢].

ومنها: أن الصدقة تجبر ما في الصوم من خلل؛ فالصيام يقع فيه الخلل أو النقص.

كان ابنُ عمرَ رضي الله عنهما يصومُ ولا يفطرُ إلا مع المساكينِ، فإذا منعه أهلُه عنهم لم يتعشَّ تلك الليلةَ، وكان يتصدَّق بالسُّكَّر، ويقول: «سمعتُ الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢]، واللهُ يعلمُ أني أحبُّ السكر».

قال الشافعي: «أحبُّ للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان؛ اقتداءً برسول الله ﷺ، ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، ولتشاغل كثير منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم». وكذا قال القاضي أبو يعلى وغيره[٣].

وفي الأثر: «أفضلُ الأعمال أن تُدخِل على أخيك المؤمن السرورَ، أو تقضي

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٦١)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٥٢٠).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٤١٧)، و«صحيح مسلم» (١٠١٦).

(٣) ينظر: «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٢٦)، و«لطائف المعارف» (ص ١٦٩).

عنه دينًا، أو تطعمه خبزًا»[١].

وجاء مرفوعًا وموقوفًا، والموقوف أصح: «أحبُّ الناس إلى الله أنفعهم، وأحبُّ الأعمال إلى الله عز وجل سرورٌ تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربةً، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهرًا...»[٢].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: **«السَّاعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل والصائم النهار»**[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: **«بينما كلبٌ يُطِيف برَكِيَّةٍ[٤]، قد كاد يقتله العطشُ، إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيلَ، فنزعت مُوقَها[٥]، فاستقتْ له به، فسقته إياه، فغُفر لها به»**[٦].

وفي رواية: **«غُفِرَ لامرأة مُومِسَة مرَّت بكلب على رأس رَكِيٍّ يلهثُ. قال: كاد يقتله العطشُ، فنزعتْ خُفَّها، فأوثقته بخمارها، فنزعتْ له من الماء، فغُفِر لها بذلك»**[٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (١١٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦٧٨)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٤٩٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (٣٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٦٤٦)، و«الأوسط» (٦٠٢٦)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (٨/ ٢٧٧) (٣٥٤٣)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٥٣)، ومسلم (٢٩٨٢).

(٤) أي: يدور حول البئر من شدة العطش.

(٥) الموق: الخف.

(٦) أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٧) أخرجه البخاري (٣٣٢١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا أنفقتِ المرأةُ من طعام بيتها، غيرَ مفسدةٍ، كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجرُه بما كسب، وللخازن مثل ذلك، لا ينقصُ بعضُهم أجرَ بعضٍ شيئًا**»(١).

والمرأة الموسرة جديرة بالبذل والإنفاق؛ فهي أقدر على الإحساس بآلام الفقير ومعاناته، خاصة والأصل أنها غير مطالبة بإنفاق، حتى على نفسها.

رمضانُ أقبلَ فاهنـئِـي	يا خيرَ ربَّاتِ الحِجَـالِ
ساعاتُه ونَـدى يديْـكِ	مُسلسلاتٌ باتصـالِ
كم منـةٍ فيـه كـفـلـتِ	بها الضِّعافَ من العِيالِ
كما أعتقتْ نُعمـاكِ مـن	رَقِّ الهوان رَقيقِ حـالِ
كم ساهرٍ يدعو لك الرْ	رَحمنَ في تلكَ اللَّيالـي(٢)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «لما مات النبيُّ ﷺ، جاء أبا بكرٍ مالٌ من قبل العلاء بن الحَضْرَمي، فقال أبو بكر: مَن كان له على النبي ﷺ دينٌ، أو كانت له قِبَلَهُ عِدةٌ، فليأتنا»(٣).

وصيغ البذل كثيرة، منها: الصدقة والزكاة، ومنها الوقف، وهو حفظ أصل المال وبذل عائداته وفائدته على وجوه الخير، وله أحكام خاصة فيها تشجيع على الإيقاف، وضبط لمسؤوليته، ومنها القرض الحسن، وربما كان سببًا في فك أزمة عن مسلم، أو بداية لمشروع يكفيه عن الناس، مع حق المُقْرِض في الاستيثاق، ومنه فتح مراكز للتدريب وإكساب الخبرة، وتقديم الاستشارات المتعلِّقة

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (١٠٢٤).
(٢) ينظر: «ديوان جبران خليل جبران» (ص٧٧٩). وربات الحجال: النساء.
(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٣)، ومسلم (٢٣١٤).

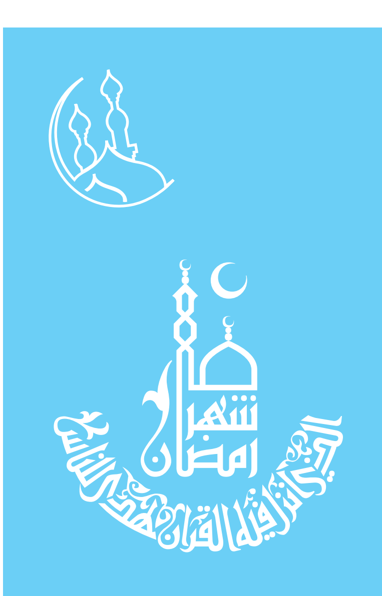
بالجدوى للمشاريع الصغيرة، ومنه كفالة الأسر والأيتام، ودعم الجمعيات الخيرية، والمؤسسات الإغاثية وتنسيق جهودها وتنظيم عملها وتوسيع دائرة المستفيدين منها.. في ألوانٍ من البذل والإنفاق، وكلما كان أدوم كان أحب إلى الله، كما قال ﷺ: «**أحبُّ العمل إلى الله، أدومُهُ وإن قلَّ**»[(١)].

تقبَّل الله من المحسنين، وضاعف أجرهم، وخلف عليهم بخير.



(١) أخرجه مسلم (٢٨١٨).

وينظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٤٤)، و«لطائف المعارف» (ص ١٦٣)، و«خلق المسلم» لمحمد الغزالي (ص٩٤)، و«شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (ص١٤٠٢)، و«نداء الريان» (١/ ٢٢٦).



10

الفصل العاشر

مع الرسول ﷺ في الصوم

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسولُ الله ﷺ يصومُ حتى نقول: لا يفطر. ويفطرُ حتى نقول: لا يصوم»



مع الرسول ﷺ في الصوم

ثَمَّ مَن يموت كل لحظة وهو حي، وثَمَّ أمواتٌ هم أحياء عند ربهم يرزقون، وأحياء بذكر الناس لهم، والتأسِّي بسيرهم واقتباس الحكمة من أقوالهم، ورسولُ الله ﷺ باعتراف الباحثين والمؤرِّخين من المسلمين وغير المسلمين، هو أكثر رجال العالم تأثيرًا في الناس وذكرًا على ألسنتهم، كما في كتاب «المائة الأوائل» لمايكل هارت.

يا أيُّها الحيُّ الذي تحتَ الثَّرى	ما زال صوتُــــك بيننا يتردَّدُ
ما زلتَ تأتِينا وتجــلـسُ بيننا	وتقـول: قال اللهُ، قال محـمـدُ
وكأنَّ وجهَك ليلـةٌ قـمـريـةٌ	النورُ من أنــوارِهــا يـتـزوَّدُ
وكــأن قبرَك رَوْضـةٌ مُخضرَّةٌ	فالطِّــيـنُ دُرٌّ والتُّراب زُمــرُّدُ
وثيابُـك البيضاءُ زاد بياضُها	فكأنَّها تحت الثَّـرى تـتـجـدَّدُ
لم تأتِ من قبرٍ ولا من حُفرةٍ	ما زال في عينيكَ كحلٌ أسودُ
هل أنت حيٌّ لا تـراه عيونُنا	أم ميِّتٌ في كـلِّ يــومٍ تولــدُ

وكان هديه ﷺ في الصوم أحسن الهدي وأكمله وأصحه وأسهله.

وقد كان يكثر من العبادات في رمضان، ويجتهد ما لا يجتهده في غيره؛ وكان يكثر من الصدقة والإحسان، وتلاوة القرآن، والصلاة، والذكر، والاعتكاف وغيره.

وكان لرمضان عنده مَزِيَّة لا يخص بها غيره، حتى إنه كان يواصل فيه ليوفِّر ساعات ليله ونهاره للعبادة، وكان ينهى أصحابه عن الوصال؛ معلِّلًا ذلك بأنَّه ليس كهيئتهم، وأنَّه ﷺ يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه[(١)].

لها أَحادِيثُ مِن ذِكْراكَ تَشْغَلُها   عن الشراب وتلهيها عن الزَّادِ
لها بوجهك نُورٌ تَسْتَضِيءُ بهِ   ومن حديثك في أَعْقابها حادِي
إذا شكتْ من كلالِ السيرِ أَوْعدها   روحُ القدومِ فتحيا عند ميعادِ[(٢)]

وكان ﷺ يعجِّل الفطرَ ويرغِّب فيه، ويتسحَّر ويؤخِّره ويحضُّ عليه[(٣)].

وكان من هديه الفطر على الرُّطب، فإن لم يجد فعلى التمر، فإن لم يجد فعلى الماء، وهذا مراعاة للطبيعة بدخول الحلو على خلو في المعدة، وانتفاع الكبد بعد الصوم بالماء فيه من الإعجاز ما لا يخفى، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله ﷺ يفطر على رُطبات قبل أن يصلِّي، فإن لم تكن رُطبات فعلى تمرات، فإن لم تكن حَسَا حَسَوَات من ماء»[(٤)].

وكان رسولُ الله ﷺ إذا أفطر قال: «**ذهب الظَّمأُ، وابتلَّت العروق، وثبت**

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٦٣)، و«صحيح مسلم» (١١٠٣- ١١٠٥).

(٢) ينظر: «زهر الآداب وثمر الألباب» (٢/ ٥٥١) منسوبًا إلى إدريس بن أبي حفصة.

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (٢١٣١٢، ٢١٥٠٧)، و«صحيح البخاري» (١٩٥٧)، و«صحيح مسلم» (١٠٩٨، ١٠٩٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٢٦٧٦)، وأبو داود (٢٣٥٦)، والترمذي (٦٩٦)، والدارقطني (٢/ ١٨٥)، والحاكم (١/ ٤٣٢)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (١٥٨٥).

الأَجر إِنْ شاء الله»[١].

وقد صام رسولُ الله ﷺ وأفطر في سفره، وخيَّرَ أصحابَه بين الفطر والصوم، وكان يأمرهم بالفطر أحيانًا إذا دنوا من قتال عدوهم[٢].

وقد كانت أعظم غزوات النبي ﷺ وأجلها في رمضان، وهي غزوة بدر والفتح، قال عُمر بنُ الخطاب رضي الله عنه: «غزونا مع رسول الله ﷺ في رمضان غزوتين؛ يوم بدر، والفتح، فأَفطرنا فيهما»[٣].

وأدرك النبيَّ ﷺ الفجرُ يومًا في رمضانَ وهو جنبٌ من أهله، فاغتسل بعد الفجر وصام، ففي «صحيح مسلم» عن سليمان بن يسار، أنه سأل أمَّ سلمةَ رضي الله عنها عن الرجل يُصبح جنبًا، أيصومُ؟ قالت: «كان رسولُ الله ﷺ يُصبحُ جنبًا من غير احتلام، ثم يصومُ». وفي «الصحيحين» عن أم سلمة وعائشة رضي الله عنهما مثله[٤].

ورحمة بأمته ﷺ كان من هديه إسقاط التبعة عمَّن أكل أو شرب ناسيًا؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَن نسي وهو صائمٌ، فأكلَ أو شربَ، فليتمَّ صومَه؛ فإنما أطعمه اللهُ وسقاه**»[٥].

ولم يصح عنه شيء في النهي عن الكحل للصائم[٦]، وكان يستاك وهو

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٣٥٧)، والنسائي في «الكبرى» (٣٣٢٩)، والدارقطني (٢/ ١٨٥)، والحاكم (١/ ٤٢٢)، والبيهقي (٤/ ٢٣٩)، وفي «شعب الإيمان» (٣٩٠٢)، وفي «الدعوات الكبير» (٤٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (١١٢٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٤٠، ١٤٢)، والترمذي (٧١٤)، والبزار (٢٩٦).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٢٥)، و«صحيح مسلم» (١١٠٩).

(٥) أخرجه البخاري (١٩٣٣)، ومسلم (١١٥٥).

(٦) ينظر: «زاد المعاد» (٢/ ٥٨).

صائم، ولا فرق في ذلك بين أول النهار وآخره.

وكان ﷺ يصوم حتى يقالَ: لا يفطرُ. ويفطرُ حتى يقالَ: لا يصومُ. ففي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسولُ الله ﷺ يصومُ حتى نقولَ: لا يفطرُ. ويفطرُ حتى نقولَ: لا يصومُ. فما رأيتُ رسولَ الله ﷺ استكمَل صيامَ شهرٍ إلا رمضانَ، وما رأيتُه أكثرَ صيامًا منه في شعبانَ»(١).

وكان النبيُّ ﷺ أول الأمر يصوم يوم عاشوراء قبل أن يُفرضَ عليه صيامُ رمضانَ، وذلك حين قدم المدينة، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «**ما هذا اليوم الذي تصومونه؟**». قالوا: هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرَق فرعونَ وقومه؛ فصامه موسى شكرًا؛ فنحن نصومه. فقال رسولُ الله ﷺ: «**فنحن أحق وأَوْلى بموسى منكم**». فصامه رسولُ الله ﷺ، وأمر بصيامه(٢).

وفي «الصحيحين» من حديث الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذٍ رضي الله عنها قالت: أرسَل رسولُ الله ﷺ غداةَ عاشوراءَ إلى قُرَى الأنصار التي حول المدينة: «**مَن كان أصبَح صائمًا، فليتمَّ صومه، ومَن كان أصبَح مفطرًا، فليتمَّ بقية يومه**». أي يمسك بقية يومه. فكنا بعد ذلك نصومُهُ، ونُصَوِّمُ صبيانَنَا الصغارَ منهم، ونذهبُ إلى المسجد، فنجعلُ لهم اللُّعبةَ من العِهْنِ -أي: الصوف- فإذا بكى أحدُهم على الطعام أعطيناه ذاك، حتى يكون عند الإفطار(٣).

فلما فُرِضَ رمضان كان صوم عاشوراء سُنَّة؛ مَن شاء صامه، ومَن شاء تركه.

وكان ﷺ إذا كان بعرفةَ أفطرَ؛ ففي «الصحيحين» عن أُمِّ الفَضْلِ بنت

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٦٩)، و«صحيح مسلم» (١١٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٦٠)، و«صحيح مسلم» (١١٣٦).

الحارث رضي الله عنها، أن ناسًا اختلفوا عندها يومَ عرفةَ في صوم النبيِّ ﷺ، فقال بعضُهم: هو صائمٌ. وقال بعضُهم: ليس بصائمٍ. فأرسلتُ إليه بقدحِ لبنٍ وهو واقفٌ على بعيره، فشربه[1].

وكان من سماحته ولين جانبه مع أهله وتعامله بتلقائية تامة، أنه دخل عليهم ذات يوم فقال: «**هل عندكم شيءٌ؟**». قالوا: لا. قال: «**فإنِّي إذًا صائمٌ**». ثم أتاهم يومًا آخر، فقالوا: يا رسولَ الله، أُهْدِي لنا حَيْسٌ. فقال: «**أَرينيه، فلقد أَصبحتُ صائمًا**». فأَكلَ[2].

وكان يكره تخصيص يوم الجمعة بصوم، وقد ورد عنه ﷺ ذلك بالفعل والقول، ففي «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**لا يصومنَّ أحدُكم يومَ الجمعة، إلا يومًا قبله أو بعده**»[3].

وكان ﷺ يعتكف في رمضان العشر الأواخر منه حتى توفَّاه الله عز وجل، وتركه مرة فقضاه في شوال.

وكان يعتكف كل سنة عشرة أيام، فلما كان في العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يومًا.

وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين[4].

وكان إذا اعتكف دخل قبته وحده، وكان لا يدخل بيته في حال اعتكافه إلا لحاجة الإنسان.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٦١)، و«صحيح مسلم» (١١٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (١١٥٤).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٨٥)، و«صحيح مسلم» (١١٤٤).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٦، ٣٦٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٨، ٢٤٥٠).



ولم يباشر امرأة من نسائه وهو معتكِف، لا بقبلة ولا غيرها، وكان إذا اعتكف طُرح له فراشه ووُضع له سريره في معتكفه[١].

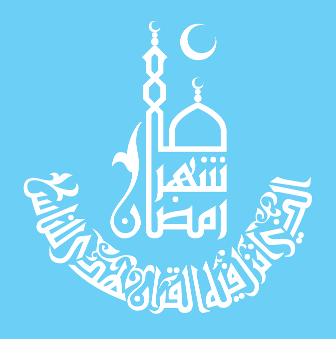
وخير الهَدي هَدي محمد ﷺ، فعلى الصائم أن يتعلَّم الـهَدي النبوي، ويسعى وسعه في التأسِّي به، في قوله وفعله وقراءته وسمته وأخلاقه، فمَن اقتدى به، فخَلِيقٌ أن يُحشر معه، وأن يَرِدَ حوضه، وأن يكون مشمولًا بشفاعته يوم العرض الأكبر.

رزقنا اللهُ اتِّباعه ظاهرًا وباطنًا، قولًا وفعلًا، علمًا وعملًا، وجعلنا من حزبه وأوليائه، وما أولياؤه إلا المتقون.



(١) سيأتي في الفصل التاسع عشر الكلام عن الاعتكاف.





11

الفصل الحادي عشر

الضعيف والموضوع في الصوم

«وما يزالُ الرجلُ يصدقُ ويتحرَّى الصدقَ حتى يُكْتَبَ عند الله صِدِّيقًا»

الضعيف والموضوع في الصوم

جاء في «مقدمة صحيح مسلم» عن عُبيدِ الله بنِ عُمرَ القواريريِّ قال: سمعتُ حمادَ بنَ زيد يقولُ لرجلٍ بعدما جلس مَهْديُّ بنُ هلالٍ للتحديث بأيام: ما هذه العينُ المالحةُ التي نبعتْ قِبَلَكُم؟! قال: نعم يا أبا إسماعيلَ[١]!

والعينُ المالحة كناية عن ضعف مَهْدي بن هلال، وجَرْحِه في الحديث[٢].

إن الحديث عن رسول الله شديد، وقد ورد في الحديث المتواتر عن ثمانين صحابيًّا أنه ﷺ قال: «مَن كذب عليَّ متعمِّدًا، فليتبوأْ مقعدَه من النار»[٣].

وهناك أحاديث تدور على الألسنة، وهي إما ضعيفة أو موضوعة، وينبغي أن يتنبَّه الصائم لها، ومنها:

١ - حديث: «صومُوا تصحُّوا».

حديث ضعيف، قال العراقيُّ في «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين»: «رواه الطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم في «الطب النبوي»، من حديث أبي

---

(١) ينظر: «مقدمة صحيح مسلم» (١/ ١٢).

(٢) ينظر: «الضعفاء» للعقيلي (٤/ ٢٢٧)، و«الكامل» لابن عدي (٨/ ٢٢٨)، و«الميزان» للذهبي (٤/ ١٩٥)، و«شرح النووي على مسلم» (١/ ١١٤).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٢٩١)، و«صحيح مسلم» (٣، ٤)، وكتاب «طرق حديث مَن كذب عليَّ متعمدًا» للطبراني.

هريرة بسند ضعيف»[1].

وقال الشوكاني في «الفوائد المجموعة»: «قال الصغانيُّ: موضوع. وقال في «المختصر»: «ضعيف»[2].

ومعناه صحيح؛ فالصوم عافية للروح والبدن كما سلف.

٢- عن سلمانَ رضي الله عنه قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ في آخر يوم من شعبانَ، فقال: «**أيُّها الناسُ، قد أظلَّكم شهرٌ عظيمٌ مباركٌ، شهرٌ فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر، شهرٌ جعَل اللهُ صيامَه فريضةً، وقيامَ ليله تطوعًا، مَن تقرَّبَ فيه بخَصلة من الخير، كان كمَن أدَّى فريضةً فيما سواه، ومَن أدَّى فيه فريضةً كان كمَن أدَّى سبعينَ فريضةً فيما سواه، وهو شهرُ الصبر، والصبرُ ثوابُه الجنةُ، وشهرُ المواساة، وشهرٌ يزاد فيه رزقُ المؤمن، مَن فَطَّرَ فيه صائمًا، كان مغفرةً لذنوبِه، وعتقَ رقبتِه من النارِ، وكان له مثلُ أجرِه، من غير أن يُنتقصَ من أجره شيءٌ**». قالوا: ليس كلُّنا نجدُ ما يُفطِّر الصائمَ؟ فقال: «**يُعطِي اللهُ هذا الثوابَ مَن فَطَّرَ صائمًا على تمرةٍ، أو شربةِ ماءٍ، أو مَذْقَةِ لبنٍ، و هو شهرٌ أوَّلُه رحمةٌ، وأوسطُه مغفرةٌ، وآخرُه عتقٌ من النارِ، مَن خفَّفَ عن مملوكِه، غفَر اللهُ له وأعتَقه من النارِ، واستكثِروا فيه من أربعِ خِصالٍ: خَصلتين تُرضون بهما ربَّكم، وخَصلتين لا غنى بكم عنهما؛ فأمَّا الخصلتان اللتان تُرضون بهما ربَّكم: فشهادةُ أن لا إله إلا الله، وتستغفرونه، وأما اللتان لا غنى بكم عنهما، فتسألونَ اللهَ الجنةَ وتعوذونَ به من النارِ، ومَن أشبَع فيه صائمًا سقاه اللهُ من حوضي شربةً لا يظمأُ حتى يدخلَ الجنةَ**».

---

(١) ينظر: «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» (٢/ ٧٥٤)، و«المعجم الأوسط» (٨٣١٢)، و«الطب النبوي» لأبي نعيم (١١٣).

(٢) ينظر: «الفوائد المجموعة» (ص ٩٠)، و«الموضوعات» للصغاني (ص ٥١)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٥٣).

أخرجه ابن خزيمة، وقال: «إن صح الخبر». وفيه: علي بن زيد بن جُدعان، وهو ضعيف، وقال الحافظ ابن حجر: «حديث ضعيف»[(١)].

٣- حديث: «**الصائمُ في عبادة، ما لم يَغْتَبْ**».

أخرجه ابن عدي في «الكامل»[(٢)]، وفيه: عبد الرحيم بن هارون: قال أبو حاتم: «مجهول». وكذَّبه الدارقطني. وقال الحافظ في «التقريب»: «ضعيف»[(٣)].

ورجَّح الدارقطني وغيره كونه من قول أبي العالية الرِّياحي، غير مرفوع[(٤)].

٤- حديث: «**إن هاتين صامتَا عمَّا أحلَّ اللهُ لهما، وأفطرَتَا على ما حرَّم اللهُ عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى، فجعلتا يأكلان لحومَ الناس**».

رواه أحمد عن رجل عن عُبيد مولى رسول الله ﷺ، أن امرأتين صامتَا، وأن رجلًا قال: يا رسولَ الله، إن هاهنا امرأتين قد صامتَا، وإنهما قد كادتا أن تموتَا من العطش. فأَعْرَض عنه أو سكت، ثم عادَ، وأُراهُ قال: بالهاجرة. قال: يا نبيَّ الله، إنهما والله قد ماتتا أو كادتا أن تموتا. قال: «**ادْعُهُما**». قال: فجاءَتا، قال: فجِيءَ بقدح أو عُسٍّ، فقال لإحداهما: «**قِيئِي**». فقاءَتْ قَيْحًا أو دمًا وصَدِيدًا ولحمًا، حتى قاءَتْ نصفَ القدح، ثم قال للأخرى: «**قِيئِي**». فقاءَتْ من قَيْحٍ ودم وصَدِيدٍ ولحم عَبِيطٍ وغيره، حتى ملَأَتِ القدحَ، ثم قال... فذكره[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٨٨٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٠٨)، وفي «الدعوات الكبير» (٥٣٢)، وينظر: «الجرح والتعديل» (٦/ ١٨٦)، و«المجروحين» (٢/ ١٠٣)، و«الكامل» (٦/ ٣٣٣)، و«تهذيب الكمال» (٢٠/ ٤٣٤)، و«ميزان الاعتدال» (٣/ ١٢٧)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٢٥٧)، و«السلسلة الضعيفة» (٨٧١).

(٢) أخرجه ابن عدي (٥/ ٢٨٣)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨٨٧).

(٣) ينظر: «الضعفاء والمتروكين» لابن الجوزي (١٩١٨)، و«تهذيب الكمال» (١٨/ ٤٤).

(٤) ينظر: «العلل» للدارقطني (١٠/ ٣٨)، و«السلسلة الضعيفة» (١٨٢٩).

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٦٥٣).

وسنده ضعيف بسبب الرجل الذي لم يُسمَّ.

وفي الباب عن أنس رضي الله عنه عند الطيالسي[(١)]، و فيه الرَّبيع بن صَبِيح: ضعيف، ويزيد الرقاشي: متروك[(٢)].

والصحيح أن الغيبة مع تحريمها المجمع عليه لا تفطر الصائم.

٥- حديث: «**الصائم في عبادة، وإن كان راقدًا على فراشه**».

رواه تـمَّام في «الفوائد» من حديث سلمان بن عامر الضبي رضي الله عنه، وفي إسناده مجاهيل[(٣)].

ورواه الدَّيْلَمي من حديث أنس رضي الله عنه، وفيه: محمد بن أحمد بن سهل الباهلي: قال ابن عدي: كان ممن يضع ويسرق حديث الضعفاء، ويلزقها على قوم ثقات[(٤)].

٦- حديث: «**رمضان بالمدينة، خيرٌ من ألف رمضان فيما سواها من البلدان**».

رواه الطبراني[(٥)]، وفيه: عبد الله بن كثير بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري الزُّرقي، قال عنه الذهبي في «الميزان»، وأورد له هذا الحديث من منكراته: «لا يُدرى مَن ذا، وهذا باطل، والإسناد مظلم». وأقره الحافظ في «لسان الميزان»، وضعَّفه أيضًا الهيثمي، وله طرق لا يصح منها شيء[(٦)].

---

(١) ينظر: «مسند الطيالسي» (٢٢٢١).

(٢) ينظر: «الجرح والتعديل» (٣/ ٤٦٥)، (٩/ ٢٥١)، و«المجروحين» لابن حبان (١/ ٢٩٦)، (٣/ ٩٨)، و«الكامل» لابن عدي (٤/ ٣٧)، (٩/ ١٣٠)، و«تهذيب الكمال» (٩/ ٨٩)، (٣٢/ ٦٤)، و«الميزان» للذهبي (٢/ ٤١)، (٤/ ٤١٨).

(٣) ينظر: «فوائد تمام» (١١٠٩)، و«السلسلة الضعيفة» (٦٥٣).

(٤) ينظر: «مسند الفردوس» (٣٨٢٤)، و«لسان الميزان» (٥/ ٣٤)، و«فتح القدير» (٤/ ٣٠٥).

(٥) ينظر: «المعجم الكبير» للطبراني (١١٤٤).

(٦) ينظر: «العلل المتناهية» (٩٤٧)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ٤٧٣)، و«لسان الميزان» (٤/ ٥٤٨)، و«مجمع الزوائد» (٣/ ٣٤٩)، و«السلسلة الضعيفة» (٨٣١).

٧- حديث: «مَن أدرك رمضانَ، وعليه من رمضانَ شيءٌ لم يقضه، لم يُتقبَّلْ منه، ومَن صام تطوعًا وعليه من رمضانَ شيءٌ لم يقضه، فإنه لا يُتقبَّلُ منه حتى يصومه».

أخرجه أحمد، وأبو يعلى، والطبراني في «الأوسط» - مختصرًا - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[(١)].

وقال الطبراني: «تفرد به ابن لهيعة». والحديث ضعيف[(٢)].

٨- حديث: «مَن أفطر يومًا في شهر رمضان في الحضر، فليُهْدِ بدنة، فإن لم يجد، فليُطعم ثلاثين صاعًا من تمر للمساكين».

أخرجه الدارقطني من طريق خالد بن عمرو الحمصي، عن أبيه، عن الحارث بن عَبيدة الكَلَاعي، عن مقاتل بن سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر رضي الله عنه[(٣)].

وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات»، وأقره السيوطي في «اللآلئ»، وقال الذهبي في «الميزان»: «هذا حديث باطل». ومقاتل بن سليمان: كذاب، وخالد ابن عمرو، قال عنه الذهبي: «تالف، كذبه الفريابي، ووهاه ابن عدي». والحارث ابن عَبيدة: ضعيف[(٤)].

٩- حديث: أمر النبيُّ ﷺ بالإثمد المُرَوَّح عند النوم، وقال: «ليتقه الصائم».

أخرجه أبو داود من طريق عبد الرحمن بن النعمان بن مَعْبَد بن هَوْذَة، عن

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٨٦٢١)، و«المعجم الأوسط» (٣٢٨٤). وأخرجه أبو يعلى، كما في «إتحاف الخيرة المهرة» (٢٣٣٤).

(٢) ينظر: «الجرح والتعديل» (٥/ ٥٤١)، و«المجروحين» (٢/ ١١)، و«تهذيب الكمال» (٥١/ ٧٨٤)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ٥٧٤) و«السلسلة الضعيفة» (٨٣٨، ٦٣٧٨).

(٣) ينظر: «سنن الدارقطني» (٢/ ١٩١).

(٤) ينظر: «الموضوعات» لابن الجوزي (٢/ ١٩٦)، و«ميزان الاعتدال» (١/ ٦٣٦-٦٣٧)، و«اللآلي المصنوعة» (٢/ ٩٠)، و«الفوائد المجموعة» (ص٩٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٦٢٣).

أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ.

وقال أبو داود: قال لي يحيى بن معين: «هو حديث منكر».

وأخرجه الدارمي، والبيهقي، بلفظ: «**لا تكتحل بالنهار وأنت صائمٌ، اكتحل ليلًا**»[١].

وعبد الرحمن بن النعمان: ضعيف، وأبوه النعمان بن معبد: مجهول[٢].

١٠- حديث: «**أول شهر رمضان رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار**».

أخرجه العُقيلي، وابن عدي، من طريق سلَّام بن سليمان بن سَوَّار، عن مسلمة بن الصلت، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه[٣].

وقال العقيلي: «لا أصل له من حديث الزهري».

وسلَّام: قال ابن عدي: «منكر الحديث». ومسلمة: قال أبو حاتم: «متروك الحديث»[٤].

وتقدم نحوه ضمن حديث سلمان رضي الله عنه.

١١- حديث: «**رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي**».

ذكره الحافظ ابن حجر في «تبيين العجب بما ورد في فضل رجب» من رواية أبي بكر النَّـقَّاش المفسِّر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

---

(١) ينظر: «سنن أبي داود» (٢٣٧٧)، و«مسند الدارمي» (١٧٣٣)، و«سنن البيهقي» (٤/ ٢٦٢).

(٢) ينظر: «الجرح والتعديل» (٥/ ٢٩٤)، (٨/ ٤٤٥)، و«تهذيب الكمال» (١٧/ ٤٥٨)، (٢٩/ ٤٥٨)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ٥٩٤)، (٤/ ٢٦٦)، و«السلسلة الضعيفة» (١٠١٤).

(٣) ينظر: «الضعفاء» للعقيلي (٢/ ١٦٢)، و«الكامل» لابن عدي (٣/ ٣١١).

(٤) ينظر: «الجرح والتعديل» (٨/ ٢٦٩)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ١٧٩)، (٤/ ١٠٩)، و«السلسلة الضعيفة» (١٥٦٩).

قال: «وسنده مُرَكَّب.. والكسائي المذكور في السند لا يدرى مَن هو»[(١)].

وأبو بكر النقاش، من رجال الإسناد: متهم بالكذب[(٢)].

١٢- حديث: «**إن الله تعالى أوحى إلى الحفظة أن لا يكتبوا على صوَّام عبيدي بعد العصر سيئة**».

أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد»، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات».

وقال ابن عَرَّاق في «تنزيه الشريعة»: «رواه الخطيب من حديث أنس، ولا يصح؛ فيه إبراهيم بن عبد الله المُخَرِّمي الدقاق، قال الدارقطني: له أحاديث باطلة هذا منها»[(٣)].

١٣- حديث: «**لا تقولوا: رمضان. فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا: شهر رمضان**».

أخرجه ابن عدي، والبيهقي من طريق محمد بن أبى مَعْشَرٍ، عن أبيه أبي مَعْشَرٍ، عن سعيد المَقْبُري، عن أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا[(٤)].

وحكم عليه ابن الجوزي بالوضع، وضعفه البيهقي، وقال: «وقد قيل: عن أبى مَعْشَرٍ، عن محمد بن كعب من قوله، وهو أشبه».

وصوَّب أبو حاتم الرازيُّ وقفه على أبي هريرة رضي الله عنه[(٥)].

---

(١) ينظر: «تبيين العجب» (٣٣).

(٢) ينظر: «ميزان الاعتدال» (٣/ ٠٢٥)، و«الفوائد المجموعة» (١٠٦)، و«كشف الخفاء» (١٣٥٨)، و«السلسلة الضعيفة» (٤٤٠٠).

(٣) ينظر: «تاريخ بغداد» (٦/ ١٢٤)، (٨/ ٩٩)، و«الموضوعات» لابن الجوزي (٢/ ١٩٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١٤/ ١٩٦-١٩٧)، و«لسان الميزان» (١/ ٣٠٤)، و«تنزيه الشريعة» (٢/ ١٤٧)، و«الفوائد المجموعة» (ص٩٢)، و«السلسلة الضعيفة» (٦٥٨٠).

(٤) ينظر: «الكامل» لابن عدي (٧/ ٥٣)، و«سنن البيهقي» (٤/ ٢٠١).

(٥) ينظر: «علل ابن أبي حاتم» (٧٣٤)، و«الموضوعات» لابن الجوزي (٢/ ١٨٧)، و«السلسلة الضعيفة» (٦٧٦٨).

١٤- حديث: «إذا سَلِمت الجمعةُ سَلِمت الأيامُ، وإذا سَلِم رمضانُ سَلِمت السنةُ».

رواه ابن حبان في «المجروحين»، وابن عدي في «الكامل»، والدارقطني في «الأفراد» من حديث عائشة رضي الله عنها[١].

وفي إسناده: أبو خالد القرشي عبد العزيز بن أبان، وهو متروك الحديث.

وقال أبو أحمد الحاكم: «هذا حديث منكر يشبه بالموضوع». وأورده ابن الجوزي وغيره في «الموضوعات»[٢].

١٥- حديث: «مَن أَفْطَرَ يومًا من رمضانَ، من غير رُخصةٍ رخَّصها اللهُ له، لم يَقْضِ عنه صيامُ الدَّهْرِ، وإنْ صامَهُ».

ذكره البخاري في «صحيحه» معلَّقًا بصيغة التمريض، وأخرجه أحمد، وأصحاب «السنن» من حديث أبي المُطَوِّس، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه[٣].

وقال الحافظ ابن حجر: «فيه ثلاث علل: الاضطراب، والجهل بحال أبي الـمُطَوِّس، والشك في سماع أبيه من أبي هريرة..»[٤].

---

(١) أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ١٤٠-١٤١)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ٢٨٨)، وأبو أحمد الحاكم في «الأسامي والكنى» (٤/ ٢٧١) (١٥٩٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٤٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ١٩٤) -من طريق الدارقطني- وقِوام السنة في «الترغيب والترهيب» (١٨١٥).

(٢) ينظر: «شعب الإيمان» (٣٤٣٤)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ٢٢٦)، و«تنزيه الشريعة» (٢/ ١٥٥)، و«الفوائد المجموعة» (ص ٩٣)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٥٦٥).

(٣) أخرجه الطيالسي (٢٦٦٣)، وأحمد (٩٠١٤، ٩٧٠٦، ٩٩٠٨، ١٠٠٨٠)، والدارمي (١٧١٤، ١٧١٥)، وأبو داود (٢٣٩٦)، والترمذي (٧٢٣)، وابن ماجه (١٦٧٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٣٢٧٨-٣٢٨٥)، وابن خزيمة (١٩٨٧)، والدارقطني (٢/ ٢١١)، والبيهقي (٤/ ٢٢٨).

(٤) ينظر: «فتح الباري» (٤/ ١٦١).

وضعفه: البخاري، والترمذي، وابن خزيمة، والمنذري، والقرطبي، والذهبي، وغيرهم[(١)].

١٦- حديث: «لو يعلمُ العبادُ ما في رمضانَ، لتمنَّتْ أمَّتي أن يكونَ رمضانُ السَّنَةَ كُلَّها».

أخرجه أبو يعلى، وابن خزيمة، والبيهقي، وغيرهم، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات»[(٢)].

وفي إسناده: جرير بن أيوب البجلي: متروك الحديث[(٣)].

١٧- حديث: كان النبيُّ ﷺ إذا دَخَلَ رجبٌ قال: «اللهُمَّ باركْ لنا في رجبٍ وشعبانَ، وبلِّغْنَا رمضانَ».

أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، والبزار، والطبراني في «الدعاء»، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» من حديث زائدة بن أبي الرُّقاد، عن زياد

---

(١) ينظر: «علل الترمذي الكبير» (ص١١٦)، و«علل ابن أبي حاتم» (٦٧٤، ٧٢٠، ٧٥٠، ٧٧٦)، و«علل الدارقطني» (٨/ ٢٦٦-٢٧٤)، (١٣/ ٢٧٤)، و«المجروحين» (٣/ ١٥٧)، و«تهذيب الكمال» (٢٨/ ٨٩)، (٣٤/ ٢٩٩)، و«ميزان الاعتدال» (٤/ ٥٧٤)، و«تغليق التعليق» (٣/ ١٧٠)، و«فيض القدير» (٦/ ١٠١)، و«عون المعبود» (٧/ ٢١)، و«تمام المنة» (ص٣٩٦-٣٩٧)، و«نداء الريان» (١/ ٤٢٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «فضائل رمضان» (٢٢)، وأبو يعلى (٢٥٧٣)، وابن خزيمة (١٨٨٦) -وقال: «إن صح الخبر»- وأبو الشيخ في «الثواب» -كما في «الترغيب والترهيب» للمنذري (٢/ ٦٢)- وابن شاهين في «فضائل رمضان» (١٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣٦١)، وفي «فضائل الأوقات» (٤٦)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ١٨٩)، وقِوام السنة في «الترغيب والترهيب» (١٧٦٥)، وعبد الغني المقدسي في «فضائل شهر رمضان» (٩).

(٣) ينظر: «المجروحين» (١/ ٢٢٠)، و«الكامل» (٢/ ٣٤٢)، و«ميزان الاعتدال» (١/ ٣٩١)، و«مجمع الزوائد» (٣/ ١٤١)، و«الفوائد المجموعة» (ص٨٨).

النُّمَيري، عن أنس رضي الله عنه[(١)].

وهذا حديث ضعيف؛ تفرد به زائدة بن أبي الرُّقاد، عن زياد النُّميري، وهما ضعيفان، وزائدة قال البخاري: «منكر الحديث». وقال أبو حاتم: «يحدِّث عن زياد النُّميري عن أنس أحاديث مرفوعة منكرة...»[(٢)].

١٨- حديث: «اللهمَّ لك صُمتُ، وعلى رزقك أفطرتُ».

هذا الحديث لا يثبت؛ أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن زُهرة مرسلًا[(٣)].

ورُوي من حديث ابن عباس وأنس رضي الله عنهما مرفوعًا، وإسنادهما ضعيف، وضعفه غير واحد[(٤)].

إن من حفظ الله لهذا الدين ولسنة سيِّد المرسلين؛ أن قيَّض الجهابذة من أهل العلم لدراسة أسانيد الحديث ومتونها، ومعرفة عللها، وتمييز صحيحها من سقيمها، وتحذير الأمة من تداول ما لا يثبت منها؛ حمايةً للمقام النبوي.

وما أكثر العادات الشائعة، والمفهومات الفاسدة، المبنيَّة على نصوص لم تثبت.

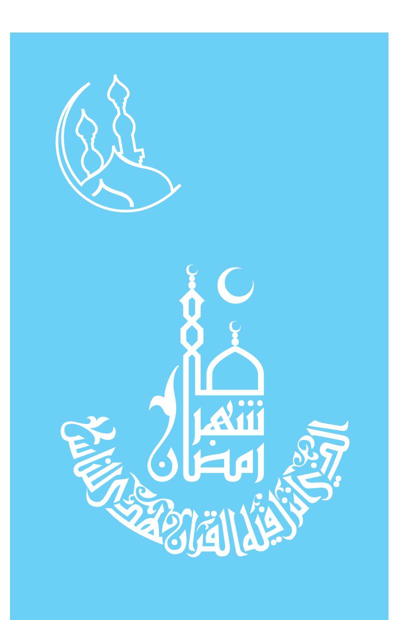


(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «فضائل رمضان» (١)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٢٣٤٦)، والبزار (٦٤٩٦)، والطبراني في «الدعاء» (٩١١)، وفي «المعجم الأوسط» (٣٩٣٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٥٩)، وأبو محمد الخلال في «فضائل شهر رجب» (١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٥٣٤)، وفي «فضائل الأوقات» (١٤)، وفي «الدعوات الكبير» (٥٢٩)، وقِوام السنة في «الترغيب والترهيب» (١٨٥٢).

(٢) ينظر: «التاريخ الكبير» (٣/ ٤٣٣)، و«الجرح والتعديل» (٣/ ٦١٣)، و«المجروحين» (١/ ٣٠٨)، و«تهذيب الكمال» (٩/ ٤٩٢)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ٦٥)، و«تبيين العجب» (ص١٣).

(٣) أخرجه أبو داود في «السنن» (٢٣٥٨)، وفي «المراسيل» (٩٩)، والبيهقي «السنن» (٤/ ٢٣٩)، وفي «الدعوات الكبير» (٥٠٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١٧٤١).

(٤) ينظر: «زاد المعاد» (٢/ ٥١)، و«التلخيص الحبير» (٢/ ٤٤٤-٤٤٥)، و«السلسلة الضعيفة» (٦٩٩٦)، و«إرواء الغليل» (٤/ ٣٦-٣٩).



12

الفصل الثاني عشر
رمضان والدعاء

«للصائم عند إفطاره دعوةٌ مستجابةٌ»

12

الفصل الثاني عشر

رمضان والدعاء

قال أعرابي في وصف دعوة المظلوم:

وساريـةٍ لم تَسْرِ في الأرض تبتـغـي	مَحَلًّا ولم يَقْطَعْ بها البِيـدَ قاطـعُ
سَرَتْ حيث لم تَسْرِ الركابُ ولم تُنَخْ	لِورْدٍ ولم يَقصُصْ لها القيْدَ مانعُ
تَحِـلّ وراءَ الليل والليلُ ســاقـطٌ	بأرواقِـهِ فيـه سميرٌ وهاجـعُ
تُفَتَّحُ أبــوابُ الســمــاوات دُونها	إذا قَرَع الأبــوابَ منهنَّ قارعُ
إذا أوفِدَتْ لم يَــرْدُدِ اللهُ وَفْــدَهـا	على أهلها واللهُ راءٍ وســامـــعُ
وإنِّي لأرجــو اللهَ حتـى كـأنــنـي	أرى بجميل الظنِّ ما الله صانعُ[1]

الدعاء هو الرغبة إلى الله عز وجل، واستمدادُ المعونةِ منه، في سائر أمور الدنيا والآخرة.

وحقيقته: إظهار الافتقار إلى الله تعالى، والتبرُّؤ من الحول والقوَّة، وهو سمةُ العبودية، ومظهر الإيمان، وعنوان اليقين.

وعجيب وجميل أن يذكر الدعاء وسط الكلام عن الصيام وأحكامه، قال

(١) ينظر: «بهجة المجالس» (٢/ ٢٧٤-٢٧٥)، و«العقد الفريد» (٣/ ١٨١)، ونسبت إلى محمد ابن حازم الباهلي، كما في «ديوانه» (ص٤٣)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (٤/ ٩١١).

تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

هذا التفات عن خطاب المؤمنين كافة بأحكام الصيام إلى خطاب الرسول ﷺ بأن يذكِّرهم ويعلِّمهم ما يراعونه في هذه العبادة وغيرها من الطاعة والإخلاص، والتوجُّه إليه وحده بالدعاء الذي يُعدُّهم للهُدى والرَّشاد[١].

ومن أسرار الإعجاز في الآية الكريمة، أنه تعالى لم يقل: (فقل لهم: إني قريب). بل قال لكمال قربه منه: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾. فخاطبهم مباشرة بجواب سؤالهم، ثم فسَّر قربه منهم بأنه يجيب الداعي، وهذا من القرب، وهو مقصود السؤال؛ لأنهم قالوا: «أقريبٌ ربُّنا فنناجيه، أم بعيدٌ فنناديه»[٢].

ومن قربه أنه يعلم السر وأخفى، كما قال: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، فهو سبحانه قريب بالإجابة وبالإثابة وبالعلم وبالسلطان.

قال رسولُ الله ﷺ: «مَن لم يسألِ اللهَ يغضبْ عليه»[٣].

اللهُ يغضَبُ إن تركتَ سؤالَه ... وبُنَيُّ آدمَ حين يُسألُ يغضَبُ
لا تَسألنَّ بُنَـيَّ آدمَ حاجـةً ... وسَلِ الَّذي أبوابهُ لا تُحجَـبُ[٤]

(١) ينظر: «تفسير المنار» (٢/ ١٦٧).
(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٤٨٠)، و«زاد المسير» (١/ ١٤٥)، و«تفسير القرطبي» (٢/ ٣٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٣٩).
(٣) أخرجه أحمد (٩٧١٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨)، والترمذي (٣٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٥٤).
(٤) ينظر: «العزلة» للخطابي (ص ٦٦)، و«جلاء الأفهام» (٤/ ١٣٢)، ونسبه ابن عبد الهادي إلى أبي العتاهية، كما في «أدب الدعاء» (ص ١٠٢)، و«مراقي الجنان» (ص ٣٦٣).

وقال رسولُ الله ﷺ: «**أفضلُ العبادة الدعاءُ**»[(١)].

وعن النعمان بن بَشِير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**الدعاءُ هو العبادةُ؛ قال ربُّكم: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾** [غافر: ٦٠]»[(٢)].

وقال ﷺ: «**إن أبخلَ الناس مَن بَخِلَ بالسلام، وأعجزَ الناس مَن عَجَزَ عن الدعاء**»[(٣)].

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: «إن الله حَيِيٌّ كريمٌ، يَسْتَحْيِي إذا رَفَع الرجلُ إليه يديه أن يَرُدَّهما صِفْرًا خائبتين»[(٤)]. وقد رُوي مرفوعًا، والموقوف أشبه[(٥)].

وقال النبيُّ ﷺ: «**ما على الأرض مسلمٌ يدعو اللهَ بدعوة، إلا آتاه اللهُ إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها؛ ما لم يَدْعُ بمأثم، أو قطيعة رحم**»[(٦)].

وقال رسولُ الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه**

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤٩١)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٩).

(٢) أخرجه الطيالسي (٨٣٨)، وأحمد (١٨٣٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، والحاكم (١/ ٤٩١).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٦٦٤٩)، وابن حبان (٤٤٩٨)، والطبراني في «الدعاء» (٦٠)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٠١).

(٤) أخرجه إسماعيل بن جعفر الزرقي في «حديثه» (١٢٧)، ووكيع في «الزهد» (٤٩٦)، وهناد في «الزهد» (١٥٥)، وابن أبي شيبة (٢٩٥٥٥، ٣٤٦٧٧)، وأحمد (٢٣٧١٤)، وفي «الزهد» (ص١٨٩)، والبرجلاني في «الكرم والجود» (٣٢)- ومن طريقه عبد الغني المقدسي في «الترغيب في الدعاء» (١٨)- والحاكم (١/ ٤٩٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠١٣).

(٥) أخرجه مرفوعًا: أحمد (٢٣٧١٥)، وأبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وابن حبان (٨٧٦)، والحاكم (١/ ٤٩٧)، والبيهقي (٢/ ٢١١)، وفي «الأسماء والصفات» (١٥٥).

(٦) أخرجه الترمذي (٣٥٧٣) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

إذا دعاني»[١].

وللدعاء آداب، على المسلم أن يلتزمها ويتحرَّاها؛ لأن ذلك من أسباب الإجابة:

الأول: أن يتحيَّن الأوقات الفاضلة، مثل:

١- وقت السحر: فعن عَمرو بن عَبَسَة رضي الله عنه، أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «**أقربُ ما يكونُ الربُّ من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعتَ أن تكونَ ممن يذكرُ اللهَ في تلك الساعة، فَكُنْ**»[٢].

وعن جابر رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «**إن من الليل ساعة، لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ، يسألُ اللهَ خيرًا إلا أعطاه**». أخرجه مسلم، وزاد أحمد: «**وهي كلَّ ليلةٍ**»[٣].

٢- في السجود: فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبيَّ ﷺ قال: «**وأما السجود، فاجتهدوا في الدعاء؛ فقَمِنٌ -أي جديرٌ- أن يستجابَ لكم**»[٤].

٣- عند الأذان: قال النبيُّ ﷺ: «**إذا نادى المنادِي فُتحت أبوابُ السماء، واستُجيب الدُّعاء**»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٩٧٤٩)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وهو في «صحيح البخاري» (٧٤٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٦٧٥) بلفظ: «وأنا معه إذا ذكرني».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٧٩)، والمروزي في «قيام الليل» (ص ٩٣ - مختصره)، والنسائي (٥٧٢)، وابن خزيمة (١١٤٧)، والحاكم (١/ ٣٠٩).

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٧٥٧)، و«مسند أحمد» (١٤٧٤٦).

(٤) أخرجه مسلم (٤٧٩).

(٥) أخرجه الطيالسي (٢٢٢٠)، وأحمد (١٤٦٨٩)، وأبو يعلى (٤٠٧٢)، والحاكم (١/ ٥٤٦-٥٤٧)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٤١٣).

٤- **بين الأذان والإقامة**: قال النبيُّ ﷺ: «**لا يُرَدُّ الدعاءُ بين الأذان والإقامة**».

وفي لفظ: «**الدعاء بين الأذان والإقامة مستجابٌ؛ فادعوا**»[(١)].

٥- **عند لقاء العدو**: فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ثنتان لا تُردَّان** -أو قلَّما تُردَّان-: **الدعاء عند النداء، وعند البأس، حين يلحم بعضُهم بعضًا**»[(٢)].

٦- **عند نزول المطر**: كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه المتقدِّم، وفيه: «**وتحت المطر**»[(٣)].

٧- **آخر ساعة من نهار الجمعة**: فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يومُ الجمعة ثنتا عشرةَ** -يريد: ساعة- **لا يوجدُ مسلمٌ يسأل اللهَ** عز وجل **شيئًا إلا آتاه الله** عز وجل، **فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر**»[(٤)].

وفي المسألة قول آخر مشهور: أنها من دخول الإمام إلى أن تُقضى الصلاة، وقال قوم: إنَّ الساعة ملتمسة بين هذين الوقتين[(٥)]. والله أعلم.

ومن ذلك أيضًا أن يتحرَّى الأحوال الشريفة، ومن ذلك:

١- **دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب**: قال رسولُ الله ﷺ: «**دعوةُ المسلم لأخيه**

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢١)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨٩٧)، وأبو يعلى (٣٦٨٠، ٤١٠٩)، وابن خزيمة (٤٢٥، ٤٢٦)، وابن حبان (١٦٩٦)، والبيهقي (١/ ٤١٠).

(٢) أخرجه الدارمي (١٢٠٠)، وأبو داود (٢٥٤٠)، وابن خزيمة (٤١٩)، والحاكم (١/ ١٩٨)، والبيهقي (١/ ٤١٠)، وفي «الدعوات الكبير» (٢٥٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٤٠)، والروياني (١٠٤٧)، والطبراني (٥٧٥٦)، والحاكم (٢/ ١١٣-١١٤)، والبيهقي (٣/ ٣٦٠).

(٤) أخرجه أبو داود (١٠٤٨)، والنسائي (١٣٨٩)، والحاكم (١/ ٢٧٩).

(٥) ينظر: «حاشية الطحطاوي» (ص ٥٢٠)، و«المجموع» (٤/ ٥٤٩)، و«كشاف القناع» (٢/ ٤٤).

بظهر الغيب مستجابةٌ، عند رأسه مَلَكٌ مُوَكَّل، كلما دعا لأخيه بخير، قال المَلَكُ المُوَكَّلُ به: آمين، ولك بمثل»[(١)].

٢- أن يبيت على ذكر، فَيتعَارَّ من الليل[(٢)] **فيدعو**: فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما من مسلم يبيت على ذكر الله طاهرًا، فَيتعَارَّ من الليل، فيسأل اللهَ عز وجل خيرًا من أمر الدنيا والآخرة، إلا أعطاه إياه**»[(٣)].

٣- دعوة المسافر: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**ثلاثُ دعوات مستجاباتٌ، لا شك فيهن: دعوةُ الوالد، ودعوةُ المسافر، ودعوةُ المظلوم**»[(٤)].

٤- دعوة الصائم: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**ثلاثةٌ لا تُردُّ دعوتُهم: الصائم حتى يُفطرَ، والإمامُ العادلُ، ودعوةُ المظلوم...**»[(٥)].

ورُوي أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما كان إذا أفطَرَ دعا أهلَهُ وولدَهُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) أي: انتبه واستيقظ من نومه.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٠٤٨)، وعبد بن حميد (١٢٦)، وأبو داود (٥٠٤٢)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٦٤٢)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٤٢٧).

(٤) أخرجه الطيالسي (٢٦٣٩)، وأحمد (٧٥١٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٢، ٤٨١)، وأبو داود (١٥٣٦)، والترمذي (١٩٠٥، ٣٤٤٨)، وابن ماجه (٣٨٦٢)، وابن حبان (٢٦٩٩)، والطبراني في «الدعاء» (١٣١٤)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٦٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الطيالسي (٢٧٠٧)، وأحمد (١٠١٨٣)، والترمذي (٣٥٩٨)، وابن خزيمة (١٩٠١)، وابن حبان (٣٤٢٨)، والبيهقي (٣/ ٣٤٥)، (١٠/ ٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٧٩٧).

وأخرج الطبراني في «الدعاء» (١٣١٣)، والبيهقي (٣/ ٣٤٥)، وفي «الدعوات الكبير» (٦٤٧، ٦٤٨)، وفي «شعب الإيمان» (٣٥٩٤)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (٢/ ٤٢٦) (٢٠٥٧) من حديث أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما: «**ثلاثُ دعوات مستجاباتٌ: دعوةُ الصائم...**».

ودعا[١].

الثاني -من آداب الدعاء-: **أن يدعو مستقبل القبلة، ويرفع يديه.**

الثالث: خفض الصوت بين المخافتة والجهر.

فعن عائشة رضي الله عنها، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠] قالت: «في الدعاء»[٢].

وقال ﷺ: **«يا أيها الناسُ، ارْبَعُوا على أنفسكم[٣]؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا؛ إنه معكم، إنه سميع قريب، تبارك اسمه وتعالى جده»**[٤].

الرابع: عدم الاعتداء في الدعاء.

قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥].

والاعتداء فيه: كالدعاء بتعجيل العقوبة، أو الدعاء بالممتنع عادة أو عقلًا أو شرعًا، أو الدعاء في أمر قد فُرغ منه، أو الدعاء بالإثم وقَطِيعة الرحم.

الخامس: التضرُّع والخشوع والرغبة والرهبة.

قال الله عز وجل: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢٣٧٦)، وابن ماجه (١٧٥٣)، والطبراني في «الدعاء» (٩١٩)، والحاكم (١/ ٤٢٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٢٤)، وينظر: «زاد المعاد» (٢/ ٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٠٩)، و«لطائف المعارف» (ص١٥٧، ٢١١)، و«السلسلة الضعيفة» (٤٣٢٥)، و«إرواء الغليل» (٤/ ٤١-٤٥)، و«تمام المنة» (ص٤١٥-٤١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٢٧)، ومسلم (٢٤٤٧).

(٣) أي: ارفقوا بأنفسكم.

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤).

﴿رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

السادس: أن يجزم بالدعاء، ويُوقِن بالإجابة، ويَصْدُق رجاءه فيه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ادعُوا اللهَ وأنتم مُوقنون بالإجابة، واعلموا أن اللهَ لا يستجيبُ دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ**»[١].

وعنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «**إذا دعا أحدُكم فلا يقل: اللهمَّ اغفرْ لي إن شئتَ. ولكن لِيَعْزِمَ المسألةَ، وليُعَظِّم الرَّغبةَ؛ فإن اللهَ لا يتعاظمه شيءٌ أعطاه**»[٢].

قال سفيانُ بن عُيينةَ رحمه الله: «لا يمنعنَّ أحدَكم من الدعاء ما يعلم من نفسه؛ فإن الله عز وجل أجاب دعاءَ شرِّ الخلق إبليس لعنه الله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٧]»[٣].

السابع: أن يُلِحَّ في الدعاء، ويُعْظِم المسألةَ، ويكرِّر الدعاءَ ثلاثًا.

فعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ كان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سألَ سألَ ثلاثًا[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا سألَ أحدُكم فليكثرْ؛ فإنما يسألُ ربَّه**»[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، والطبراني في «الدعاء» (٦٢)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٣٨٢).

وأخرجه أحمد (٦٦٥٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

(٣) ينظر: «إحياء علوم الدين» (١/ ٣٠٦).

(٤) أخرجه مسلم (١٧٩٤).

(٥) أخرجه ابن حبان (٨٨٩)، والطبراني في «الأوسط» (٢٠٤٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤٠٣)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٣٢٥).

الثامن: أن يفتتح الدعاء بذكر الله وتمجيده والثناء عليه، وأن يختمه بالصلاة على رسول الله ﷺ.

لحديث فَضَالة بن عُبيد رضي الله عنه قال: سمع رسولُ الله ﷺ رجلًا يدعو في صلاته لم يمجِّد اللهَ تعالى ولم يصلِّ على النبيِّ ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**عَجِلَ هذا**». ثم دعاهُ، فقال له أو لغيره: «**إذا صلَّى أحدُكم، فليبدأْ بتمجيد ربه عز وجل والثناء عليه، ثم يصلِّي على النبيِّ ﷺ، ثم يدعو بعدُ بما شاء**». وفي لفظ: «**فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه**»(١).

التاسع: وهو الأدب الباطن، وهو الأصل في الإجابة: التوبةُ، ورد المظالم، والإقبال على الله عز وجل بكامل قلبه؛ فذلك هو السبب القريب في الإجابة.

فعن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «إني لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدعاء، فإذا أُلهمت الدعاءَ، فإن الإجابةَ معه»(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «ادع اللهَ في يوم سَرَّائك، لعله يستجيبُ لك في يوم ضَرَّائك»(٣).

وعن الحسن، أن أبا الدرداء رضي الله عنه كان يقول: «جِدُّوا بالدعاء؛ فإنه من يُكْثِرُ قَرْعَ الباب، يوشكُ أن يُفتح له»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٣٧)، وأبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٤٧٧)، وابن خزيمة (٧١٠)، وابن حبان (١٩٦٠)، والحاكم (١/ ٢٣٠).

(٢) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٢٩)، و«الفوائد» لابن القيم (ص٩٧).

(٣) أخرجه معمر في «جامعه» (٢٠٢٦٧)، وأحمد في «الزهد» (ص٢٥٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٢٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٤١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩١٧٥)، وأبو داود في «الزهد» (٢٢٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٤٢، ١١٤٣، ١٠٠٠٢)، وعبد الغني المقدسي في «الترغيب في الدعاء» (١٦).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «ليأتينَّ على الناس زمانٌ لا ينجو فيه إلا مَن دعا بدعاء كدعاء الغريِق»[1].

العاشر: عدم العجلة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَلْ، فيقول: قد دعوتُ، فلم يُستجبْ لي**»[2].

وليعلم الداعي أن الدعاء عبادة، وربما كانت الإجابة هي قبول العبادة، وكتابة أجرها في الدار الآخرة، أو أراد الله أن يديم العبد الانكسار، أو أجَّل المطلوب لمصلحة لا يدركها العبد، أو دفع عنه من الشر مثلها، كما ورد[3].

وينبغي للدَّاعي أن يحذر من بعض الأخطاء في الدعاء، ومن ذلك:

١ – الدعاء على الأهل والمال والنفس؛ فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم؛ لا توافقوا من الله ساعةً يُسألُ فيها عطاءٌ، فيستجيبُ لكم**»[4].

من العجب أن كثيرًا من الآباء والأمهات يتسرعون بالدعاء على أولادهم، وهذا خطأ عظيم؛ فقد توافق بابًا مفتوحًا، فيستجاب لهم، كما أن سماع الأولاد لدعوات والديهم يحدث أثرًا نفسيًّا سلبيًّا خطيرًا، وهم يحملونه على محمل الجد،

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١١١٥)، وأخرجه الحاكم (١/ ٥٠٧) مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (١١١٣٣)، و«الأدب المفرد» (٧١٠)، و«المستدرك» (١/ ٤٩٣)، و«شعب الإيمان» (١١٣٠).

وينظر لآداب الدعاء: «إحياء علوم الدين» (١/ ٣٠٣)، و«الأذكار» للنووي (ص٣٩٥)، و«المجموع» (٤/ ٦٥٥)، و«نداء الريان» (١/ ٢٧٠)، و«رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص١٩٩).

(٤) أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

ويعدُّونه تعبيرًا عن رغبة الوالدين في شقائهم وفشلهم، ويضع عند بعضهم عقدة نفسية، يعتقد معها أن مصيره للفشل والإخفاق بسبب دعوة والديه؛ فيتكون لديه اعتقاد داخلي يدمِّره ويقضي على آماله في التوفيق والسعادة والنجاح.

٢- رفع الصوت بالدعاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠]، والمقصود: الدعاء، وقد تقدَّم قريبًا.

٣- تكلُّف السَّجْعِ في الدعاء، قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «انظر السجع من الدعاء فاجتنبه؛ فإني عهدتُ رسولَ الله ﷺ وأصحابَه لا يفعلون إلا ذلك». يعني: لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب[١].

٤- الاعتداء فيه، كالدعاء بالممتنع عادة أو عقلًا أو شرعًا، أو الدعاء بالإثم وقطيعة الرحم، أو المبالغة.

ومن الاعتداء: التطويل والزعيق ورفع الأصوات فوق الحاجة، وتجاوز الأدب مع الله.

٥- الاستثناء فيه، أي تعليق الدعاء بمشيئة الله تعالى، مثل أن يقول: اللهمَّ اغفر لي إن شئت.

ويحسن بالداعي اختيار الجوامع من الدعاء، كما كان يفعل النبيُّ ﷺ[٢]،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٧).

(٢) ينظر: «مسند الطيالسي» (١٥٩٤، ١٦٧٤)، و«مسند أحمد» (٢٥٠١٩، ٢٥١٥١، ٢٥١٣٧-٢٥١٣٩)، و«الأدب المفرد» (٦٣٩)، و«سنن أبي داود» (١٤٨٢)، و«سنن ابن ماجه» (٣٨٤٦)، و«صحيح ابن حبان» (٨٦٧، ٨٦٩)، و«الدعاء» للطبراني (١٣٤٧)، و«المستدرك» (١/ ٥٢١، ٥٢٢، ٥٣٨).

والجوامع من الدعاء: أي: الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، وقيل: ما كان لفظه قليلًا ومعناه كثيرًا.

وترك ما سوى ذلك، كالتفصيل المفرط في نوع الدعاء، أو في المدعو لهم، ومع ما فيه من إملال وإثقال، فهو يخرج أحيانًا إلى الاعتداء.

وعليه أن يدعو بما هو مصلحة عامة للمسلمين، يتفق عليها الإمام والمأموم، ويتجنَّب المسائل الخاصة والمشكلة والمتنازع فيها؛ لئلا ينفصل عنه المأمومون أو بعضهم بأجسادهم أو بقلوبهم، مع أن الدعاء المستجاب هو ما تجتمع عليه القلوب.

ومثله الحذر من إقحام القضايا الشخصية، كالدعاء على فرد أو أفراد بأعيانهم من المسلمين، دون سبب.

ويحسن الدعاء بالهداية للناس، وفي «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قدم الطُّفيل وأصحابُه على النبي ﷺ فقالوا: يا رسولَ الله، إن دَوْسًا عصت وأَبَتْ، فادع اللهَ عليهم. فاستقبل القبلة ورفع يديه، وقال: «**اللهمَّ اهْدِ دَوْسًا، وأْتِ بهم، اللهمَّ اهْدِ دَوْسًا، وأْتِ بهم**»[(١)].

وفي «صحيح مسلم» أيضًا: قيل: يا رسولَ الله، ادْعُ على المشركين. فقال: «**إني لم أُبْعَثْ لعَّانًا، وإنما بُعِثْتُ رحمةً**»[(٢)].

والحديث صريح في أن الدعاء بالهلاك على عامة الكفار غير مشروع، بل يدعو بالهداية، ويدعو على الظالمين والمعتدين والغاصبين، كما دعا عمر رضي الله عنه حين كان يقاتل نصارى الشام: «اللهمَّ عذِّب كفرةَ أهل الكتاب الذين يصدُّون عن سبيلك ويُكَذِّبون رُسُلَك»[(٣)].

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٧٣١٥)، و«صحيح البخاري» (٢٩٣٧)، و«صحيح مسلم» (٢٥٢٤).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٥٩٩).

(٣) ينظر: «مصنف عبدالرزاق» (٤٩٨٢)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٧٠٣١)، و«الدعاء» للطبراني (٧٥٠)، و«الدعوات الكبير» للبيهقي (٤٣٢)، و«إرواء الغليل» (٤٢٨).

والدعاء من العبادات التي تجتمع عليها القلوب، ويعظم فيها الإخلاص، وكلما كانت خَفِيَّة، كانت أدعى للقبول ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم:٣].

ويحسن بالعبد أن يقدِّم بالثناء على الله، ومناجاته بأسمائه الحسنى، خاصة اسمه الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب، وقد ورد أنه: «الله الذي لا إله إلا هو، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحد، الحي القيوم، المنَّان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام»(١).

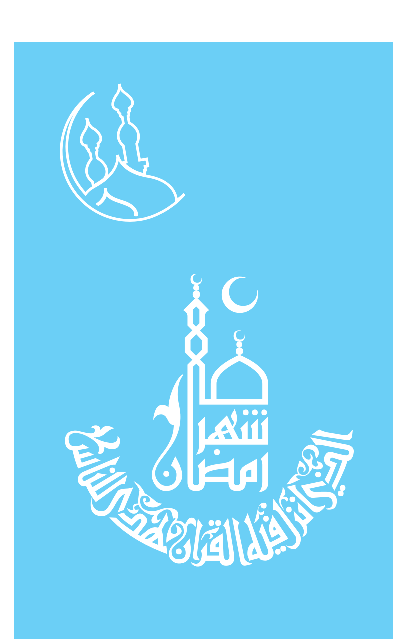
ولا بأس أن يستحضر المعاني الصادقة الصالحة التي ناداه بها النبيون والمرسلون والصِّدِّيقون والشهداء والصالحون والملائكة المقرَّبون، وأهل الأرض وأهل السماء، وأهل الدنيا وأهل الآخرة، وأهل البَرِّ وأهل البحر، وأهل السرَّاء، وأهل الضرَّاء.

ومن أعظم أسباب القبول: الحال التي يكون عليها الداعي من الانقطاع والاضطرار، والإيمان بالله وقدرته وحكمته ورحمته، وأنه يسمعه ويراه، وتكرار ذلك؛ فإن صاحبه لا يخيب.

فنسأله تعالى بذلك كله، وبكل وسيلة يحبها ويرضاها ويستجيب لصاحبها، أن يصلح أحوالنا، ويقبل أعمالنا، ويهدي ذريَّاتنا، ويجمعنا على محبته وطاعته، وأن يصلح أحوال المسلمين أجمعين، ويهيِّئ لهم من أمرهم رشدًا.



(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٢١٥٠، ١٣٠٨١، ٢١٨٧٤)، و«سنن أبي داود» (١٤٩٣، ١٤٩٥)، و«جامع الترمذي» (٣٤٧٥، ٣٥٤٤)، و«سنن ابن ماجه» (٣٨٥٧، ٣٨٥٨)، و«سنن النسائي» (١٣٠٠)، و«صحيح ابن حبان» (٨٩٢، ٨٩٣)، و«الدعاء» للطبراني (١٣٤٧)، و«المستدرك» (١/ ٥٠٣-٥٠٤)، و«مع الله» للمؤلِّف، باب: الاسم الأعظم (ص٤٣-٤٨).



13

الفصل الثالث عشر

شهر الفتوحات

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾



شهر الفتوحات

قال اللهُ تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف:١٠-١١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ سُئل: أيُّ العمل أفضلُ؟ فقال: «**إيمانٌ بالله ورسوله**». قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجهادُ في سبيل الله**». قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حجٌّ مبرورٌ**»[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ: أيُّ الأعمال

(١) أخرجه البخاري (٢٦، ١٥١٩)، ومسلم (١٣٥).

أحبُّ إلى الله؟ قال: «**الصلاةُ على وقتها**». قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «**ثم برُّ الوالدين**». قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «**ثم الجهادُ في سبيل الله**»(١).

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ الأعمال أَفضلُ؟ قال: «**الإيمان بالله، والجهاد في سبيله**»(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لَغَدْوةٌ في سبيل الله أو رَوْحةٌ، خير من الدنيا وما فيها**»(٣).

وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**مَن آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاةَ، وصام رمضانَ، كان حقًّا على الله أن يدخله الجنةَ، جاهد في سبيل الله أو جلَس في أرضه التي وُلد فيها**». فقالوا: يا رسولَ الله، أفلا نبشِّر الناسَ؟ قال: «**إن في الجنة مائةَ درجة، أعدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة -أُراه- فوقه عرش الرحمن**»(٤).

نحن الذين إذا دُعوا لصلاتهم ... والحربُ تسقي الأرضَ جامًا أحمرَا

جعلوا الوجوهَ إلى الحجاز وكبَّروا ... في مَسمعِ الروح الأمينِ فكبَّرَا

(محمودُ) مثل (إياسِ) قام كلاهُما ... لك في الوجود مُصلِّيًا مستغفرَا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).
(٢) أخرجه مسلم (٨٤).
(٣) أخرجه البخاري (٢٧٩٢)، ومسلم (١٨٨٠).
(٤) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

العبدُ والمولى على قَـدَم التُّقَى

سجدُوا لوجهِك خاشعين على الثَّرَى[1]

وهناك عدة نقاط ينبغي أن ينتبه لها عند الحديث عن موضوع الجهاد:

١- هناك فرق بين الجهاد كحكم شرعي شمولي ثابت بالكتاب والسنة، وبين تنـزيل هذا الحكم على الواقع في حال معينة، في صورة فتوى قد تختلف من وقت لآخر أو من زمن إلى زمن، فالحكم الشرعي ثابت، والفتوى تتغير.

٢- الجهاد له معنيان: عام، وخاص:

فالمعنى العام: هو بذل الجهد في إقامة الدين، ولا يقتصر على جهاد المعترك.

ومنه الجهاد بالقرآن: قال تعالى: ﴿وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

والجهاد بالعلم والدعوة والإصلاح والتربية والتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر الأعمال الصالحة التي يتعدَّى نفعها للآخرين، ومنه الجهاد بالمال في أعمال البر.

والمعنى الخاص: هو قتال الكفار.

٣- القول بتعين الجهاد البدني (القتال) وإيجابه على كل أفراد الأمة كافة في بلد معين وزمن معين، بمعنى أن عليهم أن يندفعوا لهذا البلد أو ذاك ليقاتلوا عدوًّا غازيًا، هو أمر غير صادق، وليس في الدنيا بلد واحد يسع الناس جميعًا، وتعطيل مصالح الأمة وأعمالها الواسعة، مما لا يدخل تحت الإمكان، ولعل مثل هذه الأقوال هي آراء نظرية، لم يتصور أصحابها مآلاتها ولوازمها.

---

(١) ينظر: «ديوان محمد إقبال» (ص٥٨).

٤- المتأمل في حال الأمة اليوم يجد:

أ- الدعوة لم تبلغ مداها وتحقِّق كفايتها منذ قرون، و(٨٠٪) من البشرية هم من غير المسلمين، ويحتاجون إلى الدعوة والبلاغ.

ب- الجهل يضرب أطنابه في معظم بلاد المسلمين، سواء كان جهلًا بالدين وأحكامه، أو جهلًا بالعلوم الحديثة التي هي سر التقدُّم والنهوض، والإعراض عنها هو من معصية الله، فهي فروض كفايات، يجب أن يقوم بها مَن تتحقَّق به الكفاية، كالطب والهندسة والصناعة والإدارة والاقتصاد وسائر المعارف النافعة.

٥- التراجع الذي تعانيه الأمة لا يصلحه إلا حركة إصلاح عامة تتطلب مشروعًا متكاملًا؛ لبناء دين الأمة ودنياها.

٦- وقد أخفقت مشاريع عديدة؛ لعدم اعتمادها الجوهري على الطرح المتقن المدروس.

٧- والنفس تميل أحيانًا للجهاد البدني؛ لتحقيق النكاية السريعة، وتعزف عن الجهاد الذي قد لا ترى ثمرته إلا بعد حين، وكثيرون يستطيعون توظيف أبدانهم، لكن قليلين هم مَن يستطيعون توظيف أفهامهم وعقولهم.

علاج الجرح المفتوح واجب، ولكن من الواجب أن لا ينسينا مستقبل أجيالنا.

والمقصود أن رمضان مع كونه شهر الصيام والقيام، إلا أنه كان شهر الفتوحات العظيمة في تاريخ الإسلام، والصائمون كانوا مثالًا في العمل والإقدام والشجاعة والتضحية(١).

---

(١) ينظر: «نداء الريان» (١/ ٣٠٥).

صقلَ الصِّيامُ نفوسَهم وقلوبَهم ... فغدَوا حديثَ الدَّهرِ والأحقابِ

صاموا عن الدُّنيا وإغراءاتِها ... صاموا عن الشَّهوات والآرابِ

سار الغزاةُ إلى الأعادي صُوَّمًا ... فتحُوا بشهرِ الصَّوم كلَّ رحابِ

ملكُوا ولكنْ ما سهَوا عن صومِهم ... وقيامِهم لتلاوةٍ وكتابِ

همْ في الضُّحى آسادُ هيجاءٍ لهم ... قَصفُ الرعودِ وبارقاتُ حرابِ

لكنَّهم عند الدُّجى رهبانَه ... يبكون ينتحِبون في المِحرابِ(١)

ففي السنة الثانية من الهجرة، وفي السابع عشر من رمضان:

كانت غزوة بدر الكبرى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران:١٢٣].

وقد خرج النبيُّ ﷺ في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، يريدون أبا سفيان والغَنيمة، فأرادها اللهُ ملحمةً، فجمعهم الله بعدوِّهم على غير ميعاد، وخرجت قريش بقَضِّها وقضيضها تسعمائة وخمسين مقاتلًا، بعُدِّتهم وعَتَادهم بَطَرًا ورئاءَ الناس، يقول فاجرهم: لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد. واستفتح أبو جهل في ذلك اليوم، فقال: اللهمَّ أقطعُنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأَحْنِه الغداةَ، اللهمَّ أيُّنا كان أحبَّ إليك وأرضى عندك فانصره اليوم. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩].

واستقبل النبيُّ ﷺ القبلةَ، ثمَّ مدَّ يديه، فجعل يهتفُ بربه: «**اللهمَّ أنجزْ لي ما وعدتني، اللهمَّ آتِ ما وعدتني، اللهمَّ إن تَهلِكْ هذه العصابة من أهل الإسلام،**

(١) من شعر الأستاذ خير الدين وانلي.

لا تُعبدُ في الأرض»[١].

وفي السنة الخامسة من الهجرة:

كان استعداد الرسول ﷺ لغزوة الخندق؛ وكانت في شوال على أصح القولين[٢]، وكان من الاستعداد لها ما أشار به سلمانُ الفارسيُّ رضي الله عنه من حفر الخندق حول المدينة، وقد استغرق حفر الخندق -كما يقول ابنُ القيمُ وغيره-[٣] شهرًا كاملًا، وقد بلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع، أما عمق الخندق فلم يكن أقل من سبعة أذرع، والعرض كذلك، فرضي الله عن ذاك الجيل القرآني الفريد.

وفي السنة الثامنة من الهجرة:

في العشرين من رمضان كان الفتح الأعظم، الذي أعزَّ اللهُ به دينَه ورسولَه وجندَه وحزبَه الأمين، واستنقذ بلده وبيته الذي جعله هُدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزِّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناسُ به في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجًا[٤].

ودخل فيه رسول الله مكةَ ومعه عشرةُ آلاف من كتائب الإسلام وجنود الرحمن، وتهيَّأت مكة الحبيبة، وكادت جبالها تزحف فرحًا لاستقبال الأمين البار

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٣٦٦١)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣)، و«الثقات» لابن حبان (١/ ١٦١-١٦٥)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٧٤)، و«البداية والنهاية» (٥/ ١٠٠).

(٢) ينظر: «جوامع السيرة النبوية» لابن حزم (ص ١٤٧)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٩) وما بعدها، و«زاد المعاد» (٣/ ٢٤٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٢٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٣١١٨)، و«زاد المعاد» (٣/ ٢٤٣).

(٤) ينظر: «زاد المعاد» (٢/ ١٦٠).

الصابر المحتسب ﷺ؛ ليعيد إلى ربوعها أشعة أنوار دين إبراهيم عليه السلام.

ولا شيء عنده إلا العفو الشامل، صفت نفسه وطهرت، ودخل رسولُ الله ﷺ مكة وهو يقرأ سورة الفتح، وذقنه على راحلته متخشِّعًا[١].

وفي «الصحيحين» أن رسولَ الله ﷺ دخل مكةَ يوم الفتح، وحول البيت ستونَ وثلاثمائة صنمًا؛ فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١][٢].

وفي «صحيح مسلم» أنه أتى على صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه، قال: وفي يد رسول الله ﷺ قوس، وهو آخذ بسِيَة القوس[٣]، فلما أتى على الصنم جعل يطعنه في عينه ويقول: «﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١]»[٤].

لو قد رأيتِ محمدًا وقبيلَـهُ ... بالفتح يوم تُكسَّـرُ الأصنـامُ

لرأيتِ دين الله أضحى بيِّنًا ... والشركُ يغشَى وجهَهُ الإظلامُ[٥]

وفي رمضانَ سنة ثلاث وخمسين للهجرة:

افتتح المسلمون وعليهم جُنادةُ بنُ أبي أُمَيَّة جزيرةَ رُودِسَ[٦].

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٠٥٦٥)، و«صحيح البخاري» (٤٢٨١)، و«صحيح مسلم» (٧٩٤)، و«المستدرك» (٣/ ٤٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٨١).

(٣) أي: طرفه المنحني.

(٤) ينظر: «صحيح مسلم» (١٧٨٠).

(٥) هو منسوب لفضالة بن عمير. ينظر: «زاد المعاد» (٣/ ٤١٣)، و«الروض الأنف» (٧/ ٢٤١)، و«أسد الغابة» (٤/ ٣٤٧).

(٦) ينظر: «البداية والنهاية» (١١/ ٢٥٩). وردوس: جزيرة ببحر الروم مقابل الإسكندرية.

وفي رمضانَ سنة إحدى وتسعين للهجرة بعث موسى بنُ نُصَير رجلًا من البربر يسمَّى: طريفًا. ويكنى بأبي زرعة، في مائة فارس وأربعمائة راجل، فجاز في أربعة مراكب، حتى نزل ساحل البحر بالأندلس، فيما يحاذي طَنْجَة، وهو المعروف اليوم بـ: جزيرة طريف. سميت باسمه لنزوله هناك، فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء، وأصاب سبيًا ومالًا كثيرًا، ورجع سالمًا[(١)].

كما نشب القتال بين المسلمين والصليبيين في أواخر شعبان سنة (١١٤هـ)، واستمر تسعة أيام، حتى أوائل شهر رمضان، وكان المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقي، وكان الصليبيون بقيادة شارل مارتل، وقد أبلى المسلمونَ فيها بلاءً حسنًا، ومات منهم كثيرون، وقد اخترقت صفوفَهم فرقةٌ من فرسان العدو، أحدثت خللًا في صفوف المسلمين، وأصيب القائد الغافقي، وأدَّى ذلك إلى موته، فتسبب ذلك في هزيمة المسلمين.

وقد وقعت على مقربة من طريق روماني يصل بين (بواتييه) والتي تبعد عن باريس (٧٠) كيلو مترًا- و(شاتلرو) في مكان يبعد نحو عشرين كيلومترًا من شمالي شرق بواتييه يسمَّى بالبلاط، وهي كلمة تعني في الأندلس: القصر، أو الحصن الذي حوله حدائق؛ ولذا سُمِّيت المعركة في المصادر العربية: بـ«بلاط الشهداء» لكثرة مَن استشهد فيها من المسلمين، وتسمَّى في المصادر الأوربية: معركة «تور- بواتييه».

وفي سنة (٢٢٣هـ) أوقع الملك تَوْفِيل بن مِيْخَائيلَ بأهل سلطنته من المسلمين وما والاها ملحمةً عظيمةً، قَتل فيها منهم خلقًا كثيرًا من المسلمين، وأَسَرَ ما لا يُحصون كثرةً، وكان من جملة من أَسَرَ ألفُ امرأة من المسلمات، ومَثَّل بمَن وقع في أَسْره من المسلمين؛ فقَطَع آذانَهم وآنافهم وسَمَل أعينَهم.

---

(١) ينظر: «قادة فتح المغرب» (ص ٢٤٤-٢٤٥).

ولما بلغ ذلك المُعْتَصِم انزعج لذلك جدًّا، وصرخ في قصره بالنَّفِير، ثم نهض من فَوْرِه وأمر بتعبئة الجيوش، واستدعى القاضي والشهود، فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة، وثلثه لولده، وثلثه لمواليه، وخرج بالجيش إعانة للمسلمين، فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل، وشمَّر راجعًا إلى بلاده، وتفارط ولم يمكن الاستدراك فيه، فقال للأمراء: أي بلاد الروم أمنَعُ؟ فقالوا: عَمُّوريةُ، لم يعرض لها أحدٌ منذ كان الإسلام، وهي عندهم أشرف من القسطنطينية، فعزم على فتحها، فأمكنه اللهُ منها[١].

رُبَّ وامعتَصِماه انطلقَتْ ... ملءَ أفواهِ الصَّبايا اليُتَّمِ

لامَستْ أسماعَهم لكنَّها ... لم تلامِسْ نَخْوةَ المعتَصِمِ[٢]

وفي يوم الجمعة (٢٥) من رمضان سنة (٦٥٨هـ) وقعت عين جالوت:

وكانت بين المسلمين والتتار، وتقع عين جالوت بين بَيْسان ونَابُلُس بفلسطين، وكان المسلمون بقيادة المظفَّر سيف الدين قُطُز، والمغول بقيادة كيتوبوقا.

وقد سافر الملك المظفَّر بالعساكر من الصالحية، ووصل غَزَّة، والقلوب وجلة، ثم رحل الملك المظفَّر قطز بعساكره من غَزَّة، ونزل الغَوْرَ بعينِ جَالُوت، وفيه جموع التتار، في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان، ووقع المصاف بينهم في اليوم المذكور، وتقاتلا قتالًا شديدًا لم يُر مثله، وكتب الله للمسلمين النصر المؤزَّر، وفازوا فوزًا عظيمًا.

وفي رمضان سنة (٧٠٢ هـ) وقعت معركة شَقْحَبٍ، أو معركة مرج الصُّفَّر:

وكانت بين المسلمين والتتار، وهي الوقعة التي أفتى ابن تيمية الناس فيها

---

(١) ينظر: «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٥٠-٢٥٢).

(٢) ينظر: «ديوان عمر أبو ريشة» (ص ٧١).

بالفطر مدة قتالهم، وأفطر هو أيضًا، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده؛ ليعلمهم أن إفطارهم أفضل؛ ليتقوّوا على القتال؛ فيأكل الناس، وكان يتأول قوله ﷺ: «**إنَّكم قد دنوتُم من عدوِّكم، والفِطرُ أقوى لَكم**» عام الفتح، كما في حديث أبي سعيد الخدري في «صحيح مسلم»[(١)].

ثم نزل النصر على المسلمين قريب العصر يومئذ، واستظهر المسلمون عليهم ولله الحمد والمنة، فلما جاء الليل لجأ التتر إلى اقتحام التلول والجبال والآكام، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر، فنصرهم الله عز وجل، وكشف الله بذلك عن المسلمين غمة عظيمة شديدة[(٢)].

من ذا الذي رفع السيوفَ ليرفع اسْـ ـمك فوق هاماتِ النجوم منارَا
كـنَّـا جـبـالًا في الجـبـال وربَّمـا سِرْنا على موجِ البـحـار بـحـارَا
بمعابـدِ الإفرنـجِ كـان أذانُـنـا قبل الكتائبِ يفـتـحُ الأمصـارَا
لم تنسَ إفريقيـا ولا صَـحـراؤهـا سجداتِنا والأرضُ تقذفُ نـارَا
وكأنَّ ظـلَّ السيـفِ ظلُّ حديـقـةٍ خضراءَ تُنبت حولَها الأزهارَا[(٣)]

يَقْدُمُ الشهر المبارك كل عام مثقَّلًا بالذكريات العظيمة والإنجازات الباهرة، وهذا يحفِّز الناس إلى العمل والخير، والجود بحسب الوسع والاستطاعة والمقدرة، إذ إن الحديث عن الماضي غير ذي جدوى، ما لم يكن دعوة إلى الإصلاح وبذل الطاقة في مجالات الخير المختلفة، والجهاد معنى واسع، يجاهد المرء نفسه على

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١١٢٠).
(٢) ينظر: «البداية والنهاية» (١٨/ ٢٢).
(٣) ينظر: «ديوان محمد إقبال» «حديث الروح» (ص ٤٩).

الطاعة وحسن الخلق، وتعلُّم العلوم النافعة، والدعوة إلى الله، وبذل المال في سبيل الله، ونشر الكلمة الطيبة.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: يا رسولَ الله، أيُّ الأعمال أفضلُ؟ قال: «**الإيمانُ بالله، والجهادُ في سبيله**». قال: قلتُ: أيُّ الرقاب أفضلُ؟ قال: «**أنفَسُها عند أهلها وأكثرُها ثمنًا**». قال: قلتُ: فإن لم أفعلْ؟ قال: «**تُعِينُ صانعًا، أو تصنعُ لأَخْرَقَ**»[١]. قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أرأيتَ إن ضعُفْتُ عن بعض العمل؟ قال: «**تكُفُّ شَرَّكَ عن الناس؛ فإنها صدقةٌ منك على نفسك**»[٢].

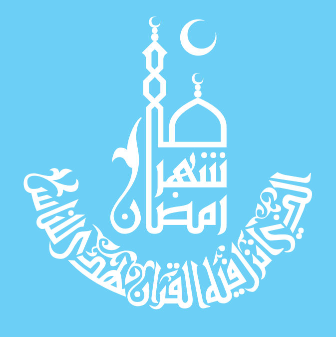
اللهم أعنَّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، واحفظ بلادك وعبادك، وهيئ لهذه الأمة أمر رشد، يُعَزُّ فيه أهل طاعتك، ويُهدَى فيه أهل معصيتك، ويُؤمر فيه بالمعروف، ويُنهى فيه عن المنكر، إنك سميع الدعاء.



(١) الأخرق: مَن لا صنعة له. وقيل: مَن لا يحسن صنعته.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٥١٨)، و«صحيح مسلم» (٨٤).





14

الفصل الرابع عشر

السلف في رمضان

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

14

الفصل الرابع عشر

السلف في رمضان

أيـن الذيـن بنارِ حبِّك أَرسلوا الـْ   أنوارَ بين محافـلِ العـشَّـاقِ

بكـتِ اللَّيالي في أنـيـنِ دمـوعِـهـم   وتوضَّأوا بمدامعِ الأشـــواقِ

والشمسُ كانت من ضياءِ وجُوهِهم   تَهدي الصَّباحَ طلائعَ الإشراقِ[١]

كان السلفُ حريصين على الإكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان.

وكانت قراءتهم تدبُّرًا، حتى أصبح التدبر والخشوع عادة، وفي رمضان كانوا يلتمسون فضل الشهر؛ فيحدرون القراءة[٢]، ويتفرَّغون لها من كل الشواغل والصوارف والملهيات، فيكون الشهر لهم دورة مكثَّفة شديدة التأثير، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، والمرء ينظر ما هو أصلح لقلبه فيعمله، كما قال الإمام أحمد[٣]، وقد كان النبيُّ ﷺ يعرض القرآن مع جبريل عليه السلام مرة، وفي آخر سنة عرضه مرتين[٤].

وعلى القارئ أن يقرأ بتدبُّر وسَكِينة وترتيل، وهو يُؤجر على قدر ما بذل

(١) ينظر: «ديوان محمد إقبال» «حديث الروح» (ص ٥٤).

(٢) أي: يسرعون فيها.

(٣) ينظر: «الفروع» (٢/ ٣٥١)، و«كشاف القناع» (١/ ٤١٤).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٦، ٣٦٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٨، ٢٤٥٠).

من الوقت ومن التفكُّر، وليس مَن قرأ سريعًا كمَن قرأ ووقف عند المعاني، وفي «الصحيح»: «**الماهِرُ بالقرآن مع السَّفرة الكِرَام البَرَرة، والذي يقرأُ القرآن ويَتَتَعْتَعُ فيه وهو عليه شاقٌّ، له أجران**»[(١)].

ويحسن لضعيف القراءة أن يجد مَن يعرض عليه ويصحِّح قراءته ويشرح له بعض المعاني[(٢)].

أما قيام الليل: فعن السائب بن يزيد قال: «أمر عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه أُبَيَّ ابنَ كعب وتميمًا الداريَّ رضي الله عنهما أن يقوما بالناس في رمضان، فكان القارئ يقرأ بالمِئِين[(٣)]، حتى كنا نعتمد على العصي من طول القيام، وما كنا ننصرف إلَّا في فروع الفجر»[(٤)].

وعن مالك عن عبد الله بن أبي بكر قال: سمعتُ أبي يقول: «كنا ننصرف في رمضان من القيام، فيستعجل الخدم بالطعام مخافة الفجر»[(٥)].

وقال نافع: «كان ابن عُمَر رضي الله عنهما يقوم في بيته في شهر رمضان، فإذا انصرف الناس من المسجد أخذ إداوةً من ماءٍ، ثم يخرج إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لا يخرج منه حتى يصلِّي فيه الصبح»[(٦)].

وعن عمران بن حُدير قال: «كان أبو مِجْلَزٍ يقوم بالحي في رمضان، يختم في

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٣٧)، و«صحيح مسلم» (٧٩٨).
(٢) ينظر: «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٤)، و«نداء الريان» (١/ ١٩٧)، و«مجالس شهر رمضان» لابن عثيمين (ص٣٠).
(٣) المِئِين: ما كان في السور من القرآن مائة آية ونحوها.
(٤) أخرجه عبد الرزاق (٧٧٣٠)، البيهقي (٢/ ٤٩٦). وتقدم في باب «مع القيام».
(٥) ينظر: «الموطأ» (٢٥٤).
(٦) أخرجه البيهقي (٢/ ٤٩٤).

كل سبع»[١].

أما الجود والكرم إذا أقبل شهر رمضان:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسولُ الله ﷺ أجودَ الناس بالخير، وكان أجودُ ما يكون في شهر رمضان»[٢].

قال المهلَّب: «وفيه بركة أعمال الخير، وأن بعضها يفتح بعضًا، ويعين على بعض؛ ألا ترى أن بركةَ الصيام، ولقاء جبريل، وعرضه القرآن عليه زاد في جُود النبي ﷺ وصدقته، حتى كان أجودَ من الريح المرسلة»[٣].

يقول يونس بن يزيد: «كان ابنُ شهاب إذا دخل رمضان فإنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام»[٤].

وكان حماد بن أبي سُليمانَ يُفطِّر في شهر رمضان خمسمائة إنسان، وكان يعطيهم بعد العيد لكل واحد مائة درهم[٥].

أما حفظ اللسان:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَن لم يَدَع قولَ الزور،**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧٦٧٧).
وينظر: «إحياء علوم الدين» (١/ ٣٥٨)، و«نداء الريان» (١/ ٢٠٤)، و«مجالس شهر رمضان» لابن عثيمين (ص٢٢).
(٢) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٧).
(٣) ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٤/ ٢٢-٢٣).
(٤) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ١١١).
(٥) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٣٤).
وينظر للجود والكرم في شهر رمضان: «لطائف المعارف» (ص ١٦٣)، و«نداء الريان» (١/ ٢٢١)، و«رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص٢٢٩).

والعملَ به، فليس لله حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَه وشرابَه»[١].

قال المهلَّب: «وفيه دليل أن حُكم الصيام الإمساك عن الرَّفَث وقول الزور، كما يمسك عن الطعام والشراب، وإن لم يمسك عن ذلك، فقد تنقَّص صيامَه، وتَعرَّض لسخط ربه، وترك قبوله منه»[٢].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**الصيامُ جُنَّةٌ، فلا يَرْفُث ولا يَجْهَل، وإن امرؤٌ قاتله أو شاتمَهُ، فليقل: إني صائم. مرتين**».

وفي رواية مسلم: «**إذا أصبح أحدُكم يومًا صائمًا، فلا يَرْفُث ولا يَجْهَل، فإن امرؤٌ شاتمه أو قاتله، فليقل: إني صائمٌ، إني صائمٌ**»[٣].

قال المازريُّ في قوله: «**إني صائمٌ**»: «يحتمل أن يكون المراد بذلك أن يخاطب نفسه على جهة الزَّجْر لها عن السِّباب والمشاتمة»[٤].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ليس الصيامُ من الطعام والشراب وحده، ولكنه من الكذب والباطل واللغو والحلف»[٥].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «إذا صمتَ، فليصُمْ سمعُك وبصرُك ولسانُك عن الكذب والمآثم، ودع أذى الخادم، وليكن عليك وقار وسَكِينة يوم صيامك، ولا تجعل يوم فطرك ويوم صيامك سواء»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٣).

(٢) ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٤/ ٢٣).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٧٩٥)، و«صحيح مسلم» (١١٥١).

(٤) ينظر: «المعلم بفوائد مسلم» (٢/ ٤١).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٨٨٨٢).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (٨٨٨٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣٧٤)، وفي «فضائل الأوقات» (٦٢).

وعن أبي المتوكل، أن أبا هريرة رضي الله عنه وأصحابه كانوا إذا صاموا جلسوا في المسجد[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إذا كنتَ صائمًا، فلا تجهل، ولا تساب، وإن جُهِل عليك، فقل: إني صائم»[٢].

وعن مجاهد قال: «خصلتان مَن حفظهما سَلِمَ له صومه: الغيبة والكذب»[٣].

وعن أبي العالية قال: «الصائمُ في عبادةٍ ما لم يغتَبْ»[٤].

ألا في اللهِ لا في النَّاس شَالتْ ... بداودَ وأخوتِه الجُذوعُ

إذا ما اللَّيل أظلمَ كابدُوه ... فيسفرُ عنهمُ وهمُ ركوعُ

يعالون النَّحِيبَ إليه شوقًا ... وإن خفضوا فربُّهُمُ سَمِيعُ

أطار الخوفُ نومَهمُ فقاموا ... وأهلُ الأمنِ في الدُّنيا هجوعُ

لهم تحت الظلامِ وهم سجودٌ ... أنينٌ منه تَنفرِجُ الضُّلوعُ

وخُرسٌ في النَّهارِ لطولِ صمتٍ ... عليهم من سكينتِهم خشوعُ[٥]

اللهمَّ ألحقنا بهم في الصالحين، واجمعنا وإياهم مع الذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا.



(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨٨٨١).

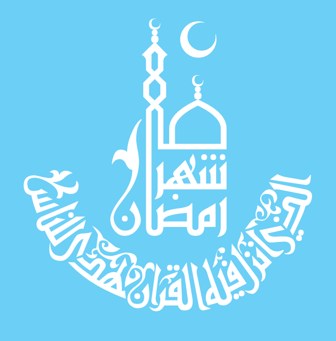
(٢) أخرجه عبد الرزاق (٧٤٥٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٨٨٨٧).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٨٨٨٩).

(٥) ينظر: «الكامل» للمبرد (٣/ ١٨٧)، و«شعر الخوارج» لإحسان عباس (ص٥٦) منسوبًا إلى عيسى بن فاتك الخطي الخارجي، ونُسب بعضه إلى ابن المبارك، كما في «ديوانه» (ص ٦١).





15

الفصل الخامس عشر

أخطاء بعض الصائمين

«مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعملَ به، فليس لله حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَه وشرابَه»



أخطاء بعض الصائمين

الصوم مدرسة للتدريب على تطلُّب الفضل، ومحاولة التخلُّص من العيوب والعادات الذَّميمة، واكتساب الأخلاق والطرائق المحمودة.

ولا غَرْوَ أن يقع لبعض الصائمين عثرات أو زلَّات، والنفوس في هذا الشهر تستشرف معرفة العيوب وتداركها.

وقد تقع بعض الأخطاء نتيجة عادة أو أصل شرعي صُرف عن مقصده، أو نوايا حسنة لإظهار الفرح والسرور بهذا الشهر، أو جهلًا، أو غير ذلك مما حاصله في نهاية الأمر مخالفة الشرع المطهَّر.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَن أَحْدَثَ في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو رَدٌّ**»[١].

من هذه الأخطاء ما هو محرَّم، ومنها ما هو مكروه، ومنها ما هو بدعة، وقد تكون خاصة بالصوم، أو بما تبعه من عادات وغيره.

وعلى المؤمن أن يسعى إلى الخير جهده، ويتعرَّف على عيوبه، ويتجرَّع مرارة الاستماع إليها، ويبذل وُسعه في الخلاص منها، مستعينًا بالله الذي لا يخيب سائله.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

ومن الأخطاء: التقصير في صلاة الجماعة:

فبعض الناس يُقبلون على العبادة في رمضان وتمتلئ بهم المساجد، ولكن يَعْرِض لبعضهم التقصير وعدم المحافظة على الصلوات، وعدم الانتظام في أدائها؛ أو ترك الصلاة في الجماعة مع المسلمين في المساجد، وأخطر منه ترك الصلاة بالكلية كلها أو بعضها، فعن بُريدةَ بن الحُصيب رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**العهدُ الذي بيننا وبينهم الصلاةُ، فمَن تركها فقد كَفْرَ**»[(١)].

وقال ﷺ: «**مَن ترك صلاةَ العصر، فقد حَبِطَ عملُه**»[(٢)].

والأحاديث في الباب كثيرة.

وحملها بعضهم على كفر النعمة أو الكفر الأصغر، وحملها آخرون على الترك بالكلية، وأيًّا ما كان، فإن الحديث صحيح، وهو من أحاديث الوعيد التي ينبغي بقاء هيبتها في النفوس، دون أن تعني الحكم على آحاد الناس بالكفر، كما يقع لبعض المتسرِّعين، أو ترك الصلاة عليهم إذا ماتوا، أو معاملتهم معاملة غير المسلمين، فمَن ثبت له أصل الإسلام ظاهرًا لم يُحكم بخروجه منه إلا بيقين لا شك فيه، حتى المنافقون كان النبي ﷺ يعاملهم معاملة المسلمين في العقود والمواريث والصلاة عليهم وسائر أحكام الدنيا، أما أمر الآخرة فإلى الله تعالى.

فينبغي للمسلم أن يحافظ على عبادته وصلاته، ويجعل رمضان فرصة للتغيير، والتعوُّد على الخير، والإقبال على الله عز وجل.

ومنها: عدم التحرُّز من الغيبة:

وهي تضرُّ بالصوم ضررًا عظيمًا؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٣٧)، والترمذي (٢٦٢١)، وابن حبان (١٤٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٣).

قال: «**أتدرونَ ما الغِيبةُ؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أَعلمُ. قال: «**ذكرُك أخاك بما يكره**». قيل: أفرأيتَ إن كان في أَخي ما أقولُ؟ قال: «**إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه**»[1].

ومنها: السعي بالنميمة:

وهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد، وقيل: إفشاء السر، وهتك الستر عما يُكره كشفه[2].

قال الإمام الغزالي رحمه الله: «كل مَن حُملت إليه نميمة وقيل له: إنَّ فلانًا قال فيك كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبِّر في إفساد أمرك، أو في ممالاة عدوك، أو تقبيح حالك، أو ما يجري مجراه، **فعليه ستة أمور**:

الأول: أن لا يصدِّقه؛ لأنه نَمَّام فاسق، وهو مردود الشهادة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات:٦].

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه، ويقبِّح عليه فعله، قال الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان:١٧].

الثالث: أن يبغضه في الله عز وجل، فإنه بَغِيض عند الله، ويجب بغض مَن يبغضه الله تعالى، والمراد بغض فعله المحرَّم والتحرُّز منه، وليس بغض شخصه.

الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات:١٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩).

(٢) ينظر: «الأذكار» للنووي (ص ٢٩٩-٣٠٩)، و«النهاية في غريب الحديث» (٥/ ١٢٠)، و«نداء الريان» (١/ ٣٨٢).

الخامس: أن لا يحملك ما حُكي لك على التجسس والبحث عن تحقيق ذلك؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢].

السادس: أن لا يقع فيما نَهَى النمامَ عنه، فلا يحكي؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إنَّ محمدًا ﷺ قال: «**ألا أنبئكم ما العَضْهُ؟ هي النميمةُ، القَالَةُ بين الناس**». وإنَّ محمدًا ﷺ قال: «**إنَّ الرجلَ يصدُقُ حتى يُكتبَ صدِّيقًا، ويكذبُ حتى يُكتبَ كذَّابًا**»[١].

وعن حذيفةَ رضي الله عنه، أنه بلغه أن رجلًا يَنُمُّ الحديثَ، فقال حذيفةُ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لا يدخلُ الجنةَ نَمَّامٌ**»[٢].

ورُوي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله، أنه دخل عليه رجلٌ، فذكر له عن رجل شيئًا، فقال له عمر: «إن شئتَ نظرنا في أمرك: فإن كنتَ كاذبًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦]، وإن كنت صادقًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١١]، وإن شئتَ عفونا عنك؟ فقال: العفو يا أميرَ المؤمنين، لا أعود إليه أبدًا».

وقال الحسن البصري رحمه الله: «مَن نمَّ إليك نمَّ عليك»[٣].

قال الشاعر:

لا تقبلنَّ نميمةً بُلِّغتَها ... وتحفَّظنَّ من الذي أنبأكَها

إن الذي أَهدَى إليك نميمةً ... سينمُّ عنك بمثلها قد حَاكَها[٤]

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥). وفي رواية: «**قتَّاتٌ**».

(٣) ينظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٥٦)، و«الأذكار» للنووي (ص٣٤٨).

(٤) ينظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣/ ٢٧١)، و«غرر الخصائص الواضحة» للوطواط (ص ٦٦) منسوبًا إلى أبي الأسود الدؤلي.

ومنها: إطلاق البصر في المحرمات:

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ...﴾ الآية. وقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾ الآية [النور:٣٠-٣١].

وهذا أمر لعباده المؤمنين بأن يغضُّوا أبصارهم عما حرَّم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح الله لهم النظر إليه، وسواء كان النظر إلى الخلقة الأصلية التي أبدعها الله، أو إلى صورة أو شريط مرئي أو نحوها، فالأمر واحد، وربما كان النظر إلى الصور أشد؛ لما فيها من التفنن في اختيار الجمال، والمبالغة في الكشف والتعرِّي، كما هي فتنة هذا الزمان ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف:٢٧][(١)].

وقال ﷺ: «**لكل بني آدم حظٌّ من الزنا، فالعينان تزنيان وزناهما النَّظَر، واليدان تزنيان وزناهما البَطْشُ، والرِّجْلان تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القُبَل، والقلبُ يَهْوَى ويتمنَّى، والفرجُ يصدِّق ذلك أو يكذِّبه**»[(٢)].

ومنها: الشتم والسبُّ والبذاءة وسوء الخلق:

وربما كان الصوم من جهةٍ سببًا للغضب والثورة؛ بسبب الجوع والعطش، بيد أنه سبب عظيم لضبط الناس لإحساس الصائم بأنه متلبِّس بعبادة تقرِّبه إلى الله، وأن الغضب والفحش والبذاءة يخدشها، ولذا أُمر الصائم بالإعراض، وأن يقول: «**إني صائم**». وربُطت حكمة الصيام بترك الزُّور والعمل به والفُحش.

---

(١) ينظر: «إغاثة اللهفان» (ص ٤٨)، و«نداء الريان» (١/ ٣٧٤)، و«رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص١٦٤).

(٢) أخرجه أحمد (٨٥٢٦)، ومسلم (٢٦٥٧).

ومنها: الكسل والخمول:

وبعض الصائمين يتَّخذ من رمضان فرصة لترك العمل والنوم، وربما فرَّط في واجباته الوظيفية أو الحياتية، في حين كان رمضان عند السلف الماضين موسمًا لمضاعفة الأعمال والتنافس فيها، بما في ذلك عبادات المسلم اليومية التي كانوا يضربون فيها أروع المثل ظاهرًا وباطنًا.

وبعض الكسالى يحتجون بحديث ضعيف، وهو: «نوم الصائم عبادة»(١)، وعلى فرض صحته، فإنه لا يدل على مراد البطَّالين، الذين يقضون نهارهم نومًا وليلهم سهرًا ولهوًا، وإنما المراد منه: نومه الطبيعي الذي يتخلل يومه من قيلولة وغيرها، مما يستعان به على العبادة.

والواجب على الصائم أن يستغلَّ موسمَ رمضان، ويجتهد فيه؛ فلعله لا يدرك رمضان آخر.

ومنها: التوسع في المآكل والمشارب:

فبعض الصائمين يملؤون بيوتهم بأصناف المطعومات والمشروبات، مما قد لا يؤكل في غير رمضان، وهذا ينافي حكمة الصوم ومشروعيته.

عن أبي كَرِيمة المقدام بن مَعْدِ يكَرِبَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابنِ آدمَ أُكَلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبه، فإن كان لا محالةَ، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنَفَسِه»**(٢).

وكيف يفعل الصوم فعله إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره، وربما يزيد عليه في ألوان الطعام، حتى استمرت العادات بأن تُدخر جميع

---

(١) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٦٩٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٨٦)، والترمذي (٢٣٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (٦٧٧٠)، وابن حبان (٦٧٤)، والحاكم (٤/ ١٢١)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٢٦٥).

الأطعمة لرمضان، فيُؤكل من الأطعمة فيه ما لا يُؤكل في عدة أشهر.

ولمثل هؤلاء يقول الرصافي:

وأغبـى العالمين فتًـى أكـولٌ لفطنتهِ ببطنتِهِ انهــزامُ
ولو أني استطعتُ صيامَ دهري لصُمتُ فكان دَيدنيَ الصِّيامُ
ولكنْ لا أصـومُ صيامَ قـومٍ تكاثَرَ في فطـورهمُ الطَّعامُ
فإنْ وضَح النَّهارُ طوَوا جياعًا وقـد همُّوا إذا اختلَط الظَّلامُ
وقالوا: يا نهـارُ لئـن تُجِعنـا فإنَّ اللَّيـلَ منكَ لنا انتقـامُ
وناموا مُتْخَمـين على امتـلاءٍ وقـد يتجشَّؤون وهـم نِيـامُ
فـقـل للصائمين أداءَ فـرضٍ أَلَا ما هكذا فُـرِضَ الصِّيـامُ[(١)]

ومن الأخطاء: ترك الصوم من غير عذر:

وهي معصية كبيرة وجُرم عظيم، يجب على فاعلها التوبة والإنابة إلى ربه، وأن يستغفره لذلك، ويقضي ما أفطره، فالصوم من أركان الإسلام الخمسة التي عليها مدار النجاة.

ومن ذلك: السهر:

والذي يفضي بصاحبه إلى أمور، منها:

أ- ترك صلاة الفجر.

ب- التكاسل عن أمانة العمل، إن كان موظَّفًا.

(١) ينظر: «ديوان الرصافي» (ص٥٧).
وينظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ٨٦)، و«نداء الريان» (٢/ ٢٢٥)، و«رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص٢٨٣).

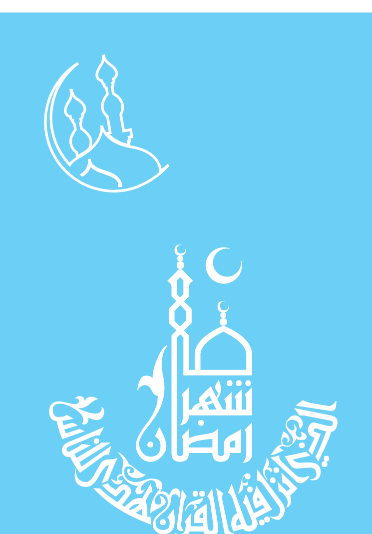


ج- ترك صلاة الظهر، وربما العصر.

د- الإرهاق الشديد طول يومه، إن تحامل على نفسه واستيقظ.

وما أعظم أن يوفَّق الصائمُ للتخلِّي عن عادة التدخين في هذا الشهر الكريم، واستشارة المجرِّبين والأطباء وأهل الخبرة؛ حفاظًا على تقواه وطيب رائحته وماله، وعلى صحته وصحة أسرته وأطفاله وزملائه الذين تتسلَّل إليهم الأمراض، بسبب ما يسمى بـ (التدخين السلبي)، والله أعلم.





16

الفصل السادس عشر
السواك في رمضان

عن عامر بن رَبِيعة رضي الله عنه قال: «رأيتُ النبيَّ ﷺ يستاكُ وهو صائم»

السواك في رمضان

يتجنَّب بعضُ الناس السواكَ في نهار رمضان؛ اعتقادًا بأنه غير مشروع، والصواب أنه لا تعارض بين السواك والصيام، والنبيُّ ﷺ يقول: «**لولا أن أشقَّ على المؤمنين – وفي رواية: على أُمَّتي – لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**»[١]. وفي أخرى: «**عند كلِّ وُضوءٍ**»[٢].

ويُشرع للصائم أن يستاك في رمضان كما يستاك في غيره.

أما حديث: «**إذا صُمتُم، فاستاكوا بالغَداةِ، ولا تستاكوا بالعَشِيِّ؛ فإنَّه ليس من صائم تيبس شفتاه بالعشي، إلا كانت نورًا بين عينيه يوم القيامة**». فهو حديث ضعيف جدًّا، فقد رواه البزار، والطبراني من حديث علي وخَبَّاب رضي الله عنهما مرفوعًا. ورواه الدارقطني، والبيهقي، وغيرهما موقوفًا[٣]. وسنده في غاية الضعف، فلا يُحْتَجُّ به.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٧٥١٣، ٩٩٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (٣٠٣٢).

(٣) أخرجه مرفوعًا: البزار (٢١٣٧) من حديث علي رضي الله عنه. والبزار (٢١٣٨)، والطبراني (٣٦٩٦) من حديث خباب رضي الله عنه.

وأخرجه موقوفًا: الطبراني (٣٦٩٦)، والدارقطني (٢/ ٢٠٤)، والبيهقي (٤/ ٢٧٤).

وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٠١).

وقد عارضه حديث عامر بن رَبيعة رضي الله عنه قال: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يستاك وهو صائِمٌ»[١]. وهو وإن كان ضعيفًا أيضًا[٢]، إلا أنه خير من حديث: «**إذا صمتم فاستاكوا بالغداة، ولا تستاكوا بالعَشِيِّ**».

ويغني عن هذين الحديثين: قوله ﷺ المتقدِّم: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسِّواك عند كل صلاةٍ**». وقوله: «**لولا أن أَشُقَّ على أمتي لأمرتُهم بالسِّواك عند كلِّ وُضوءٍ**». فيدخل في ذلك الصلاة والوضوء للصائم وغير الصائم؛ قبل الزوال وبعد الزوال.

والمواضع التي يُشرع للصائم وللإنسان أن يستاك فيها ستة، وهي[٣]:

الأول: عنـد الصلاة؛ لقوله ﷺ في الحديث المتقدِّم: «**لولا أن أشقَّ على أُمَّتي، لأمرتهم بالسِّواك عند كل صلاةٍ**».

الثاني: عند الوضوء؛ لقوله ﷺ: «**لولا أن أشقَّ على أمتي، لأمرتهم بالسواك عند كل وُضوء**».

الثالث: عند دخول المنزل؛ لما في «صحيح مسلم» عن شُريح بن هانئ قال: سألتُ عائشةَ: بأيِّ شيءٍ كان يبدأ النبيُّ ﷺ إذا دخل بيته؟ قالت: «بالسواك»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٦٧٨)، وأبو داود (٢٣٦٤)، والترمذي (٧٢٥)، والدارقطني (٣/ ١٨٩)، والبيهقي (٤/ ٢٧٢).

(٢) في إسناده: عاصم بن عُبيدالله بن عاصم بن عمر بن الخطاب العدوي، وهو ضعيف.
ينظر: «ضعفاء العقيلي» (٣/ ٣٣٣)، و«المجروحين» (٢/ ١٢٧)، و«تهذيب الكمال» (١٣/ ٥٠٠)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ٣٥٣).

(٣) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (١/ ٢٢٧-٢٣٦).

(٤) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٥٣).

وهذا دليل على أهمية تطييب الفم عند مقابلة الأهل والاقتراب منهم؛ فإن طيب رائحة الفم مما يعزِّز الرضا والحب بين الزوجين.

الرابع: عند تغير رائحة الفم؛ لقوله ﷺ: «**السواك مَطْهَرةٌ للفم، مرضاةٌ للرِّبِّ**»[1].

فقوله: «**السِّواكَ مطْهرة للفم**» دليل على أن السواكَ يُشرع لتطهير الفم وتنظيفه.

وهو حديث عظيم يدل على أن من مرضاة الله العناية بالطِّيب والسواك والنظافة والطهارة.

وإنما كان السواك مرضاة للرب؛ لأنه مطهرة للفم، فليتأمل المؤمن هذا المعنى؛ ليعلم أن الله يحب النظافة ويرضاها لعباده المؤمنين، ولذا شرع لهم باب التقرُّب إليه بها، تحفيزًا على فعلها واتخاذها عادة، ولم يشرع لهم أبدًا التقرُّب بأضدادها من المعاني القبيحة المرذولة.

الخامس: عند الاستيقاظ من النوم؛ لحديث حذيفة رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ كان إذا قام من الليل يَشُوصُ فاه بالسواك[2]. وذلك لإزالة رائحة النوم من الفم.

السادس: عند قراءة القرآن، وقد جاء في هذا أحاديث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره قال: «إنَّ أفواهَكم طُرُق للقرآن؛ فطيِّبوها بالسواك»[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٧، ٦٢، ٢٤٢٠٣)، والدارمي (٦٨٤)، والنسائي (٥)، وابن حبان (١٠٦٧)، والبيهقي (١/ ٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٦)، ومسلم (٢٥٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٩١).
وأخرجه الدينوري في «المجالسة» (٣/ ٦٧) (٦٧٩) مرفوعًا، ولا يصح.
وينظر: «التلخيص الحبير» (١/ ٢٤٦)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٢٧٥)، و«السلسلة الصحيحة» (١٢١٣).

أما ما يظنُّه البعضُ من قول النبي ﷺ: «**لَخُلُوفُ فَمِ الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك**»[1]، وأنه يعارض السواك في رمضان، **ففيه نظر، لسببين**:

الأول: لأن الخُلُوف رائحة تنبعث من المعدة بسبب خلوها من الطعام، وليس من الفم، فالسواك لا يزيل الخلوف، ولا مدخل له فيه.

الثاني: أن كثيرًا من العلماء قالوا: إن هذه الرائحة هي عند الله تعالى، فلا تعلق لذلك بأمور الحياة الدنيا، والسواك يزيد رائحة الفم عند الله تعالى طيبًا إلى طيب، فإن السواك أيضًا هو مما يرضي الله عز وجل، وهو من الأعمال المشروعة المستحبة.

وأما إذا بقي في فم الإنسان شيء من أثر السواك، فعليه حينئذ أن يزيله دون أن يفضي به ذلك إلى وسوسة؛ فإن كثيرًا من الناس يشقُّون على أنفسهم، ويبالغون ويشدِّدون؛ فيشدِّد الله تعالى عليهم، وربما يبتلون بألوان من البلايا والشكوك بسبب مبالغتهم، حتى إن منهم مَن يجد مشقة عظيمة في المضمضة والاستنشاق، وهذه من الآصار والأغلال التي وضعها الله تعالى عن هذه الأمة، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرًا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، قال الله تعالى: «**قد فعلتُ**»[2]. فكل الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة قد وضعها الله تعالى عن هذه الأمة، فينبغي تجنب العسر والمشقة والتشديد الذي هو مدعاة العقوبة والمؤاخذة، ومآله إلى كراهية الإنسان للعبادة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢٦).

وفي السواك منافع، منها:

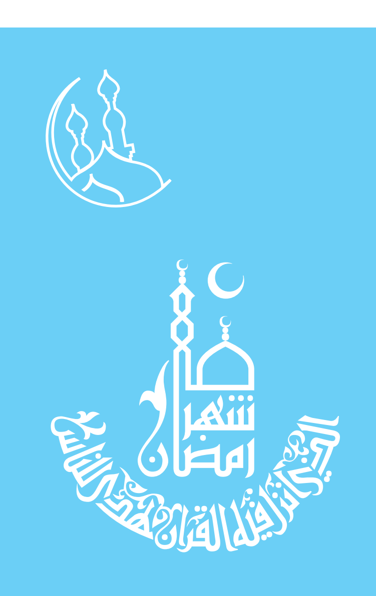
أنه يطيِّب الفم، ويشد اللِّثَة، ويقطع البلغم، ويصفِّي الصوت، ويسهِّل مجاري الكلام، وينشِّط للقراءة والذكر والصلاة، ويطرد النوم، ويُرضي الرب، ويعجب الملائكة، ويكثر الحسنات(١).

وينبغي أن يُعلم أن استخدام معجون الأسنان داخل في معنى تطييب الفم، وسبب لنظافة الأسنان واللثة وطيب رائحتها، والاعتياد عليه لدى الصغار والكبار من المعاني الحسنة المطلوبة، واستعماله في أثناء الصيام جائز؛ لأنه ليس طعامًا، ولا يذهب إلى الجوف، وإنما هو داخل الفم ثم يخرجه، فهو كالمضمضة، وربما كان أبلغ في التنظيف من السواك، بيد أن السواك يكون في جيب المؤمن، ويحقِّق به الاتباع في كل وقت، مما لا يتسنَّى معه استخدام الفرشة ونحوها.

والحمد لله الذي جعل في ديننا فسحة الطيب والجمال والنظافة في الفم والبدن والثياب، وجعلها قربة وزُلفى لرب الأرباب، فاجتمع على مدحها والثناء عليها الدين والعقل والفطرة والمصلحة، وينبغي أن تكون التربية والتهذيب حافزًا ودافعًا لديمومتها.



(١) ينظر: «زاد المعاد» (٤/ ٢٩٣).



17

الفصل السابع عشر

شهر التوبة

«كلُّ بني آدم خَطَّاء، وخيرُ الخطَّائين التوَّابون»



شهر التوبة

أغيبُ وذو اللَّطائفِ لا يغيبُ	وأرجوهُ رجاءً لا يخيبُ
وأُنزِل حاجتي في كلِّ حالٍ	إلى مَن تطمئنُّ به القلوبُ
فيا ملكَ الملوكِ أَقِلْ عِثاري	فإنِّي عنكَ أَنأَتنِي الذنوبُ
وآنِسْني بأولادي وأهلي	فقد يستوحِشُ الرجلُ الغريبُ
ولي شجَنٌ بأطفالٍ صغارٍ	أكادُ إذا ذكرتهمُ أذوبُ
إلهي أنت تعلمُ كيف حالي	فهل يا سيِّدي فرجٌ قريبُ؟
فيا ديَّانَ يومِ الدين فرِّج	همومًا في الفؤادِ لها دبيبُ
وصِلْ حبلي بحبلِ رضاكَ وانظُرْ	إليَّ وتبْ عليَّ عسى أتوبُ
وألهمني لذكرك طولَ عمري	فإنَّ بذكرِكَ الدنيا تطيبُ
فظنِّي فيك يا سندي جميلٌ	ومَرعى ذَودِ أمالي خصيبُ[١]

في رمضان يعود الكثير من العباد إلى ربهم، ويُسْلِمونَ وجوههم له، ويقلعون عن الآثام؛ وذلك لمعرفتهم بجود الله تعالى على عباده، وصفحه وعفوه عنهم، وخاصة في هذا الشهر الكريم.

(١) ينظر: «ديوان البرعي» (ص٤٤).

وهو تعالى يحب طاعة عباده كلهم، ويحب التوبة من كل عاص[(١)].

وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بُغي عليه وأُوذي وتَسلَّط عليه خصومُه شيءٌ أنفع له من التوبة النصوح[(٢)].

والله عز وجل إذا أراد بعبده خيرًا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة رحمة به[(٣)].

والتوبة هي الرجوع إلى الله، وترك الذنب، والندم على ما فَرَّط، والعزم على ترك المعاودة، والقيام بحقوق الشرع، وتدارك ما أمكن.

وقد حث اللهُ تعالى في كتابه الكريم على التوبة في مواضع كثيرة، يقول سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:٣].

ويقول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر:٥٣-٥٥].

ويقول عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ

(١) ينظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٤٤)، و«رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص١٠٤).
(٢) ينظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٦٧).
(٣) ينظر: «الوابل الصيب» (١/ ١٣).

﴿ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [التحريم:٨].

ويقول الله عز وجل: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

ويقول سبحانه عن نبيه آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١-١٢٢].

وفي «صحيح مسلم» عن الأَغَرِّ المُزَنيِّ رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: **«إنه ليُغَانُ على قلبي، وإني لأستغفرُ اللهَ في اليوم مائةَ مرة»**[(١)].

وقوله: «لـيُـغَـانُ» هو ما يغشى القلب من الفترات والغفلات عن الذكر[(٢)].

وفي «صحيح مسلم» أيضًا، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: **«إن اللهَ ليبسُطُ يدَه بالليل؛ ليتوبَ مُسِيءُ النهار، ويبسُطُ يدَه بالنهار؛ ليتوبَ مُسِيءُ الليل، حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها»**[(٣)].

وفيه عن أنس رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: **«للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم، كان على راحلته بأرض فَلَاةٍ، فانفلتتْ منه، وعليها طعامه وشرابه، فأَيِسَ منها، فأتى شجرةً، فاضطجع في ظلِّها، قد أَيِسَ من راحلته، فبينا هو كذلك، إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»**[(٤)].

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٧٠٢).
(٢) ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٠٣).
(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٧٥٩).
(٤) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٧٤٧).

فالتوبة خلاص من المآزق والأزمات، وسبيل للراحة والرضا، وخاصة في رمضان:

جـــدِّد حياتَـك بالصِّـيـام	فبالصِّيام غِذاءُ روحِـــكْ
داوِ الَّذي تَشكو بتقْوَى الْـ	ـلَّـه تبرأْ من جُروحِـــكْ
واغْـنَـم أُوَيْـقـات التَّجَلِّي	في الطَّريق إلى نُزوحِــكْ
اشحَذْ سُـمُـوَّكَ مـن حياةِ	اللَّغوِ وادْأَبْ في طُموحِكْ
وارْقَ الـذُّرَى ودَعِ الثَّـرى	طالَ المقامُ على سُفُوحِـكْ![1]

والتوبة نوعان: واجبة، ومستحبة:

فالواجبة: هي التوبة من فعل المحرمات وترك الواجبات، وأعظم المحرمات الوقوع في الكفر والشرك والنفاق، وكذلك التوبة من سائر المعاصي، كأكل الربا، وأكل الحرام، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، والغيبة والنميمة، وقول الزور، والسرقة، وخاصة سرقة المال العام الذي يشترك الناس كلهم في مطالبتك فيه، وسرقة الوقت العام، بالتأخر عن العمل أو التهاون والتفريط، ومثلها ذنوب القلوب، كالحقد والضغينة والبغضاء والحسد والكراهية والتقاطع، وما يستتبعها من سوء الظن والبهتان والظلم والبغي والعدوان.

وكذلك التوبة من ترك الواجبات، كترك الصلاة، أو الصيام، أو الحج، أو الزكاة..

أما التوبة المستحبة: فهي التوبة من فعل المكروه أو ترك المستحب، كأن يتوب من ترك الوتر، أو ترك السنن الرواتب، أو الغفلة عن القرآن، أو ترك قيام الليل، أو غير ذلك من الأعمال والطاعات والصالحات، كما يتوب من فعل

---

(١) ينظر: «ديوان بهاء الدين الأميري» «قلب ورب» (ص٧١).

الأمور المكروهة التي لا يحبها الله ولا رسوله، ولو لم تكن محرمة.

ولا غنى للإنسان عن التوبة ، وأنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام كانوا على رأس التائبين، ومنهم مَن كان يقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، ومنهم مَن كان يقول: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص:١٦].

بل أمر اللهُ نبيَّه ومصطفاه ﷺ أن يستغفر، فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]، وكان من شأنه عليه الصلاة والسلام في كثرة الاستغفار أنه كان يُحسب له في المجلس الواحد نحو مائة مرة: «**ربِّ اغفرْ لي، وتبْ عليَّ، إنَّك أنت التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»(١).

وفي حديث آخر: «**إني لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعينَ مَرَّةً**»(٢).

فإذا كان هذا شأن الرسل والأنبياء، فما بالك بغيرهم من أهل التقصير والغفلة والقلوب التي غَطَّى عليها الران وأصابتها المعاصي في مقتل؟

فهؤلاء أحوج إلى التوبة إلى الله عز وجل واستغفاره.

وموكب التائبين قديم، يبدأ بآدمَ عليه الصلاة والسلام أَبينا الذي زيَّن له إبليسُ المعصية، وأقسم له ولزوجه إنه لهما لمن الناصحين، فوقعَا في المعصية، ثم تاب الله تعالى عليهما.

ومن أشهر قصص التوبة وأعجبها: توبة أبي خَيْثمة، وأبى لُبابة، وكعب بن

---

(١) أخرجه أحمد (٤٧٢٦، ٥٥٦٤)، وأبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤)، وابن حبان (٩٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٧).

مالك رضي الله عنهم وأرضاهم[١]، وتوبة ماعز رضي الله عنه، كما في «الصحيحين»[٢]. والغامدية الجهنية رضي الله عنها[٣].

ومنها قصة الرجل الذي قَتَل تسعةً وتسعين نفسًا؛ كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن نبيَّ الله ﷺ قال: «**كان فيمَن كان قبلكم رجلٌ قتَل تسعةً وتسعين نفسًا، فسألَ عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعةً وتسعينَ نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله، فكمَّل به مائةً، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائةَ نفسٍ، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومَن يحولُ بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب، فقالت ملائكةُ الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله. وقالت ملائكةُ العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط. فأتاه مَلَكٌ في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاسوه، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة**». قال قتادة: فقال الحسن: ذُكِرَ لنا أنه لما أتاه الموت نأى بصدره[٤].

ومن عجيب قصص التائبين من بني إسرائيل: ما رواه الترمذيُّ، والحاكمُ، وغيرهما في قصة الكِفل: أنَّ الكِفْل كان رجلًا من بني إسرائيل، لا يتورَّع عن

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٤٢٤)، و«صحيح مسلم» (١٦٩١، ١٦٩٢).

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (١٦٩٦).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).
وقتادة يروي الحديث عن أبي الصِّدِّيق الناجي، عن أبي سعيد رضي الله عنه.

معصية، فأَعطى امرأةً ستين دينارًا، على أن تخلِّي بينه وبين نفسها، فلما قعد منها مقعد الرجل من زوجته، انتفضت وبكت، فقال لها: ما يبكيك؟ هل أكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا أمر لم أفعله. قال: فما حملك على ذلك؟ قالت: الحاجة. فقام وتركها، وقال: الستون دينارًا لك. وقال: والله لا عصيت الله تعالى أبدًا. فأصبح ميتًا، وغفر الله تبارك وتعالى له(١).

وللتوبة شروط:

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلَّق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية.

الثاني: أن يندم على فعلها.

الثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبدًا.

وإن تعلَّقت بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالًا أو نحوه رَدَّه إليه، وإن كان حدَّ قذف ونحوه مكَّنه منه، أو طلب عفوه.

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها، صحَّت توبته من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي(٢).

وهناك الذنوب العامة، كالجهل والتخلُّف والتفرُّق والفوضى الإدارية والسياسية، وشيوع ثقافة التعصُّب والتحزُّب والأنانية والكبر الفردي

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٤٧٤٧)، و«جامع الترمذي» (٢٤٩٦)، و«مسند أبي يعلى» (٥٧٢٦)، و«صحيح ابن حبان» (٣٨٧)، و«المستدرك» (٤/ ٢٥٤).

(٢) ينظر: «رياض الصالحين» (ص ١٧).

والاجتماعي، وهي من أعظم الآثام، والتوبة منها آكد وألزم.

وهذه بعض العوامل التي تساعد على التوبة:

أولًا: قوة العزيمة، فإن خور العزيمة وضعفها من أسباب الوقوع في المعاصي والآثام، ومن أسباب كون الإنسان يتردَّد، فيتوب اليوم ويعصي غدًا، ويتوب غدًا ويعصي بعد غد.

وثَمَّ أسباب تقوِّي العزيمة، منها: الإقبال على الله، والدعاء، وصحبة الأخيار، واستجماع العزيمة، وتوقُّع النجاح، واللغة الإيجابية المتفائلة، وتدريب النفس على التكرار والمحاولة وعدم اليأس.

ثانيًا: الدعاء، وسؤال الله التوبة النصوح، وقد كان من دعاء نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٢٨]، وكان النبيُّ ﷺ يقول: «**ربِّ اغفرْ لي وتُبْ عليَّ، إنك أنت التوَّاب الغفور**»[١].

ثالثًا: تغيير البيئة التي تدعو للمعصية، ومَن جالس قومًا كان منهم وحُشر معهم؛ ولذلك قال ذلك العالِم الإسرائيلي للرجل الذي تاب: «**لا تعُدْ إلى أرضِك؛ فإنَّها أرضُ سوءٍ**».

رابعًا: عدم القنوط واليأس؛ فإن هذا من أعظم مداخل الشيطان على الإنسان، والواقع في المعصية غالبًا يداخله شيء من اليأس، واليأس لا يجوز، قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

ويحسن أن يُذكَّر مَن تسرَّب القنوط إلى نفسه بقول الرسول ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه مسلم: «**والذي نفسي بيدِه، لو لَمْ تذنبوا، لذهب اللهُ**

(١) تقدم قريبًا.

بكم، ولجاء بقوم يُذنبونَ، فيستغفرونَ اللهَ، فيَغْفرَ لهم»[١]. وحديث: «**كُلُّ بني آدم خَطَّاء، وخيرُ الخطَّائين التوَّابونَ**»[٢].

خامسًا: أن يُنَمِّي الإنسانُ منابع الخير في نفسه، فكل إنسان فيه قابلية للخير، فليكثر من الصلاة، وقراءة القرآن، والاستغفار، والصيام، والذكر، والصلاة على النبي ﷺ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، والإحسان إلى الناس، وعدم ظلم الآخرين، وغير ذلك من الأمور التي يستطيعها الإنسان، والله سبحانه يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [هود:١١٤-١١٥].

سادسًا: الإخلاص لله، فإذا أخلص الإنسانُ لربه، وصدق في طلب التوبة، أعانه اللهُ عليها. قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٤٦].

قال ابن المبارك رحمه الله:

ومن البلاءِ وللبَلاءِ علامــةٌ ... ألَّا يُرى لكَ مِن هَواك نُزُوعُ
العبدُ عبدُ النَّفس في شَهَواتها ... والحُرُّ يشـبَـع تـارةً ويجُـوعُ[٣]

سابعًا: قصر الأمل، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أَخَذَ رسولُ الله بمَنْكِبي، فقال: «**كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل**». وكان ابنُ عمر رضي الله عنهما يقول:

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٧٤٩).
(٢) أخرجه أحمد (١٣٠٤٩)، وعبد بن حميد (١١٩٧)، والدارمي (٢٧٢٧)، والترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، والحاكم (٤/ ٢٤٤).
(٣) ينظر: «ديوان ابن المبارك» (ص٥١).

«إذا أمسيتَ فلا تنتظرِ الصباحَ، وإذا أصبحتَ فلا تنتظرِ المساءَ، وخُذْ من صحتك لمرضكَ، ومن حياتك لموتكَ»[1].

قال ابن عَقِيل رحمه الله: «ما تصفو الأعمال والأحوال إلا بتقصير الآمال، فإن كل مَن عدَّ ساعته التي هو فيها كمرض الموت، حسنت أعماله، فصار عمره كلُّه صافيًا»[2].

ثامنًا: التفكُّر في أضرار الذنوب والمعاصي، ومنها:

١- حرمان العلم:

وهو الطريق إلى الجنة، فإن العلم نور يقذفه الله عز وجل في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور، ولما جلس الشافعيُّ بين يدي الإمام مالك، وقرأ عليه، أعجبه ما رأى من نور فطنته، وتوقُّد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: «إني أرى اللهَ قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية»[3].

٢- حرمان الرزق:

فكما أن التقوى مجلبة للرزق، فإن ترك التقوى مجلبة للفقر. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وكم من إنسان جمع الأموال الطائلة، ثم خسرها في صفقة حرام، أو سبيل كان يعلم أنه ليس من مرضاة الله عز وجل.

٣- تعسير أموره عليه:

فإن الله ييسِّر أمور عباده الصالحين: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق:٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

(٢) ينظر: «الفنون» لابن عقيل (٢/ ٥٤٦).

(٣) ينظر: «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٥٨)، و«الجواب الكافي» (ص ٣٤).

وعلى العكس من ذلك، نجد آثار الذنوب تعم حتى الدابة والخادم؛ فتتعسَّر أمورهما على صاحبهما، ويكونان نكدًا وقلقًا على مالكهما، ومع سعة رحمة الله، وأن الدنيا يتمتَّع فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، إلا أن القرب من الله سبب لطمأنينة النفس والرضا والأنس، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]. وقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

٤- أنها تُورث الذل:

فالراشي والمرتشي ذليل في عمله حتى وإن ملك الملايين، واللوطي والزاني ذليل في نفسه، وعلى ضد ذلك كله قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠]. فالصلاح يمنح المؤمن ثقة وطُمأنينة، ولذا جاء في الحديث: «**الصدقُ طُمأنينة، والكذبُ ريبة**»[١].

٥- أنها تزيل النعم الحاضرة.

لأن المعصية جحود وكفران للنعمة، ومِن شكر النعمة: القيام بحق الله عزوجل، وعدم التعدِّي على محارمه، وكم من امرأة تعيش سعيدة في بيت هانئ، ولما تطاولت إلى الحرام أصابها الغمُّ، وكم من شاب وقع في الحرام، فتفرَّق شملُه وضاقت به الدنيا.

٦- المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

علمًا أن الكافر قد ينال السرور في الدنيا بفعل أسبابه، كما قال سبحانه:

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٢٧٤)، وأحمد (١٧٢٣، ١٧٢٧)، والترمذي (٢٥١٨)، والحاكم (٤/ ٩٩)، والبيهقي (٥/ ٣٣٥)، وينظر: «إرواء الغليل» (١٢) من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ [الانشقاق:١٣]، وهذا من كمال عدله وإحسانه سبحانه، والمؤمن قد يصيبه الهم والغم والكدر، بسبب عوارض نفسية أو مؤثِّرات تربوية منذ الطفولة، أو إخفاقات في برامج ومشاريع، سبَّبت له صدمة، فتمرض النفس كما يمرض الجسد، والصبر خير علاج يوصف لكل الأزمات والأمراض.

تاسعًا: التفكُّر في حكمة الله في خلق المعصية وتمكين الإنسان منها، **وذلك أن العبودية عبوديتان:**

١- عبودية العقل؛ بالاستسلام لله والإيمان به، والنظر في دلائل وحدانيته وعظمته، والكف عن استحضار الشبهات وتعزيزها والحديث عنها، ومعالجتها بالفكر والذكر والعلم والسؤال والتضرُّع.

٢- عبودية القلب؛ بالحب والخوف والرجاء والامتناع عن الشهوات والمحرمات.

والإنسان قد يتمرَّد على ربه، فتمرُّد العقل يتجلَّى فيما وقع للشيطان، وأن معصيته لم تكن شهوة محضة، بل كان فيها شبهة أنه خير من آدم عليه السلام، فكيف يسجد له! ولذا أبعده الله وأبلسه وجعله شيطانًا رجيمًا.

وهو يختلف عما وقع لآدم وحواء عليهما السلام حين أكلا من الشجرة، فكانت شهوة النفس والقلب.

ولذلك تاب الله على آدم وزوجه عليهما السلام، واجتباهما بعدما استغفرا وتابا وأنابا، بخلاف إبليس الرجيم، فإن ذنب الشبهة حرمه من التوبة والإنابة والرحمة.

وفي ذلك إشارة إلى فضل الذُّل والانكسار في العبودية، وربما سلَّط الله على العبد ذنبًا، حتى لا تكبَّر عليه نفسه أو يتعاظم بعمله، ولذا جاء في الحديث: «**لو**

لم تكونوا تُذْنِبُون، لخشيتُ عليكم ما هو أكثر من ذلك: العُجْبَ العُجْبَ»[1].

ولذا على العبد ألَّا ييأس أبدًا من توبة الله عليه، ولا يقطع الأمل في نجاته من المعصية، ولو تكرَّر منه الخطأ، وتاب ثم رجع، وحديث: «**ذنبٌ بعد توبةٍ، أشدُّ من سبعين ذنبًا قبلها**». لا أصل له.

عاشرًا: الإكثار من الكفارات، ومكفرات الذنوب كثيرة، منها ما هو قضاء وقدر، كالأمراض والمصائب وسكرات الموت، وأهوال القيامة، وكلما زاد صبر العبد عليها عظم ثوابه، وكان تكفيرها لذنبه أعظم وأتم.

ومن الكفارات ما هو من فعل الإنسان، كالاستغفار: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح:١٠]. والأعمال الصالحة: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤].

ومنها: الصدقة؛ فهي تطفئ الخطيئة، وبر الوالدين وصلة الرحم، وعموم الإحسان إلى الخلق، فعلى المؤمن أن يسعى في مزاحمة السيئة بالحسنة، وتثقيل كفة الحسنات وترجيحها بالأعمال الصالحة، ومحاصرة الذنوب والسيئات؛ لئلَّا تمتد وتتسع وتفترش عمر الإنسان ووقته وطاقته وجوارحه، والمرء لما غلب عليه، فمَن غلب عليه الخير، فهو من الأخيار، ولو تلبَّس ببعض التقصير، ومَن غلب عليه الشر، فهو من الأشرار.

وربما استزل الشيطانُ العبدَ من ذنب صغير إلى اليأس، وهو أعظم الذنوب،

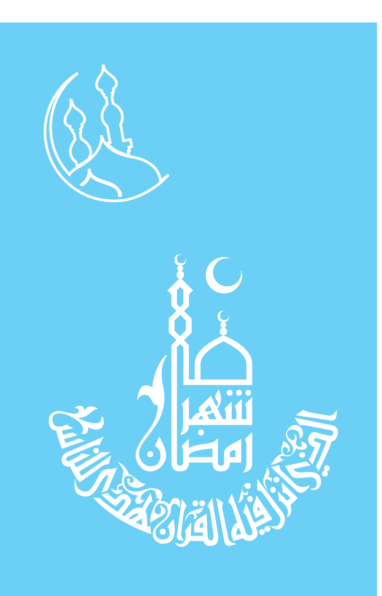
---

(١) أخرجه البزار (٦٩٣٦)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٥٩)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٥٦٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٤٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٥٥)، وينظر: «المجروحين» (١/ ٣٤٠)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ١٨٠)ن و«لسان الميزان» (٣/ ٥٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٦٥٨).

ومع اليأس يترك العمل الصالح، ويصبح عقله وقلبه وحياته رهنًا للسيئات، نسأل الله العافية.

اللهم اهد قلوبنا، واستر عيوبنا، وفرِّج كروبنا، ونوِّر دروبنا، واغفر ذنوبنا.





18

الفصل الثامن عشر

حسن الخلق

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

«إن من أحبّكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقًا»

حُسن الخُلُق

الصومُ جُنَّةُ صائمٍ مِنْ مــأثـمِ	ينهى عن الفحشاءِ والأوشابِ
الصومُ تصفيدُ الغرائـز جمـلـةً	وتحـرُّرٌ مـن رِبـقـةٍ بــرقـابِ
ما صام مَن لم يرْعَ حـقَّ مجاوَرٍ	لأخيه أو لقرابــةٍ وصــحــابِ
ما صام مَن أفنى النهارَ بغِيـبـةٍ	أو قال شـرًّا أو سعَى لخــرابِ
ما صام مَن أدَّى شهادةَ كاذبٍ	وأخـــلَّ بالأخـلاقِ والآدابِ(١)

إن هدف الرسالات السماوية هو التزكية، فإبراهيم عليه السلام يدعو ربه أن يبعث في ذريته رسولًا منهم يتلو عليهم آياته، ويعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ ويزكِّيهم، وقد أجاب اللهُ دعوتَه، فبعثَ في الأميِّين هذا الرسول المصطفى ﷺ، والذي قال الله في حقه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢]، وامتنَّ سبحانه ببعثة النبي عليه السلام، فقال: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ

---

(١) من شعر الأستاذ خير الدين وانلي.
والأوشاب: الأخلاط من الناس والرعاع. والربقة : عُرْوة في حَبْل تُجعل في عُنُق البهيمة. والمراد: العبودية والمهانة.

﴿تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٥١].

وقد صرَّح الرسولُ ﷺ بمقصد من أعظم مقاصد بعثته، حين قال: «**إنَّما بُعثتُ لأتمم مكارمَ الأخلاق**». وفي رواية: «**صالحَ الأخلاق**»[(١)].

والمقصود بالأخلاق معنى أشمل مما هو متعارف عليه بين الناس، **فالأخلاق**: معاملة العبد مع ربِّه، ومعاملته مع نفسه، ومعاملته مع الخلق، وهذا معنى صحيح.

ومن معاني الحديث: أن الأخلاق قسمان: قسم فطري، يعرفه الناس بطبعهم ويمدحونه، وقسم هو تكميل وتتميم، لا يُعرف إلا بواسطة الوحي، وبُعث النبي ﷺ لبيانه للناس، فهو جزء من مقصد الرسالة.

وذِكْرُ هديه ﷺ في هذا الأمر يطول، وقد أُلِّفت فيه كتب عديدة.

ومن أشهر هذه الأحاديث: حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ما شيءٌ أثقلُ في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حَسَنٍ، وإن اللهَ ليبغضُ الفاحشَ البذيءَ**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ سُئل عن أكثر ما يدخل الناسَ الجنةَ، فقال: «**تقوى اللهِ، وحُسْنُ الخُلُق**». وسُئل عن أكثر ما يدخل الناسَ النارَ، فقال: «**الفمُ والفرجُ**»[(٣)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ الناس خُلُقًا»[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٥٩٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والحاكم (٢/ ٦١٢)، والبيهقي (١٠/ ١٩٢)، وفي «شعب الإيمان» (٧٩٧٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢)، وابن حبان (٥٦٩٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وابن حبان (٤٧٦).

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٠٣) واللفظ له، ومسلم (٢١٥٠).

وعنه ﵁ قال: «ما مَسَسْتُ بيدي دِيباجًا ولا حَرِيرًا، ألينَ من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شمَمتُ رائحةً، كانت أطيبَ من رائحةِ رسول الله ﷺ»(١).

وقال ﵁: «خدمتُ النبيَّ ﷺ عشرَ سنينَ، فما قال لي: أُفٍّ. قطُّ. ولا قال لشيء فعلتُه: لم فعلتَ كذا؟ ولا لشيء لم أفعله: ألّا فعلتَ كذا؟»(٢).

وعن الصَّعْب بن جَثَّامة ﵁ قال: أَهْدَيتُ إلى رسول الله ﷺ حمارًا وحشيًّا، فردَّه عليَّ، فلما رأى ما في وجهي قال: «**إنا لم نَرُدَّه عليك إلَّا أنَّا حُرُمٌ**»(٣).

وعن النَّوّاس بن سَمْعان ﵁ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن البِرِّ والإثم، فقال: «**البِرُّ حُسْنُ الـخُلُق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطَّلع عليه الناسُ**»(٤).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: «**إن من خياركم أحسَنكُم أخلاقًا**»(٥).

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أكملُ المؤمنين إيمانًا، أحسنُهُم خُلُقًا، وخيارُهم خيارهم لنسائهم**»(٦).

وعن عائشة ﵂ قالت: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**إن المؤمنَ ليدركُ بحُسن خُلُقه درجةَ الصائم القائم**»(٧).

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٣٧٤)، والبخاري (١٩٧٣، ٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٠٢١)، وعبد بن حميد (١٣٦١)، والبخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٢٥)، ومسلم (١١٩٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

(٥) أخرجه البخاري (٣٥٥٩)، ومسلم (٢٣٢١).

(٦) أخرجه أحمد (٧٤٠٢)، وأبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وابن حبان (٤١٧٦).

(٧) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، وابن حبان (٤٨٠)، والحاكم (١/ ٦٠).

وعن جابر رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا، وإنَّ أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة: الثَّرْثَارونَ، والمُتَشَدِّقون، والمُتَفَيْهِقُونَ**». قالوا: يا رسولَ الله، قد علمنا الثرثارون والمُتَشَدِّقون، فما المُتَفَيْهِقُونَ؟ قال: «**المتكبِّرون**»[1].

ويكفي أن تُراجع سيرتُه، ويَنْظُر كيف كان ﷺ يعامل الناس كلَّهم.. كيف كان يعامل أزواجَه؟ كيف كان يعامل أقاربَه؟ كيف كان يعامل أصحابَه؟ كيف كان يعامل أعداءه؟

روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ استدان من رجل مالًا، فجاء الرجل يتقاضى من النبي ﷺ، فأغلظ له القولَ، فَهَمَّ به أصحابُه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**دعوه؛ فإن لصاحب الحقِّ مقالًا**»[2].

وكان إذا استسلف من أحد شيئًا أضعف له في الوفاء ودعا له، وقال: «**إنما جزاء السَّلَفِ الوفاءُ والحمدُ**»[3].

وفي الحديث أن زيدَ بنَ سَعْنَةَ رضي الله عنه، كان من أحبار اليهود، أتى النبيَّ ﷺ يتقاضاه، فأخَذَ بمجامعِ قميصِهِ، ونظَرَ إليه بوجهٍ غليظٍ، ثم قال له: ألَا تقضيني يا محمدُ حَقِّي؟ فوالله ما علمتكُم بني عبد المطلب بمُطْلٍ[4]، ولقد كان

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٨).
وأخرجه أحمد (١٧٧٣٢)، وابن حبان (٥٥٥٧) من حديث أبي ثعلبة الخُشني رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٣٠٦)، و«صحيح مسلم» (١٦٠١).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٤١٠)، وابن ماجه (٢٤٢٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٧٢٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٧١٦).

(٤) المماطلة: التأخير في أداء ما عليه من حقٍّ للغير.

لي بمخالَطَتِكم علمٌ. فانتهزه عمرُ، وقال: أيْ عدوَّ الله، أتقولُ لرسول الله ﷺ ما أسمعُ، وتفعلُ به ما أَرى؟ فَوَالذي بعثه بالحقِّ، لولا ما أحاذرُ فوتَهُ لضربْتُ بسيفي هذا عنقَك. ورسولُ الله ﷺ ينظرُ إلى عمرَ في سكونٍ وتُؤَدَةٍ، ثم قال: «إنَّا كنا أحوجَ إلى غير هذا منك يا عمرُ: أن تأمرَني بحسن الأداء، وتأمرَه بحسن التِّباعة[1]، اذهبْ به يا عمرُ فاقضه حَقَّهُ، وزِدْه عشرين صاعًا من غيره مكان ما رُعْتَه[2]»[3].

وهذه قصة عبد الله بن سَلَام رضي الله عنه، وكان أحد كبار علماء اليهود في المدينة، وكان مُنْصِفًا باحثًا عن الحق، فلما سمع بمَقْدَم النبيِّ ﷺ المدينةَ قال: ذهبتُ إليه، فلما تبيَّنْتُ وجهَه عرفتُ أن وجهَه ليس بوجهِ كذَّابٍ. فكانَ أولَ شيءٍ سمعتُه تكلَّمَ به أن قال: «يا أيُّها الناسُ، أَفْشُوا السَّلامَ، وأَطْعِموا الطَّعامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وصَلُّوا باللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ، تدخلوا الجنَّةَ بسلَامٍ»[4].

لقد قرأ على مُحيَّاه الطاهر علامات الصدق والصفاء والوفاء، وهذا لا يتحقَّق إلا لَمن صفت قلوبهم وصلحت سرائرهم وتجرَّدت لله تعالى.

والأخلاق كثيرة، وأصولها أربعة:

الأول: الصبر، الذي يحمل الإنسان على التحلِّي بالحِلْم، والأَنَاة، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والتسامح والعفو والصفح، والصوم قرين الصبر، فالشهر

---

(١) أي: الطلب.

(٢) أي: أفزعته.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٠٨٢)، وابن حبان (٢٨٨)، والطبراني (٥١٤٧)، والحاكم (٣/ ٦٠٥)، والبيهقي (٦/ ٥٢).

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٦٦٨)، والترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤، ٣٢٥١)، والحاكم (٤/ ١٦٠)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (٤/ ٢٥) (٤٠١-٤٠٤).

إذًا دعوة إلى التسامي والتسامح والتصافي ونسيان العثرات، وطي الملفات القديمة التي عكَّرت صفو الوداد بين أخوين شقيقين أو زميلين أو جارين أو شريكين، ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢].

الثاني: العفة، وهي التي تحمل الإنسان على الانكفاف عن الرذائل، والتعلُّق بالمعالي والأمور الكبار.

الثالث: الشجاعة، وهي التي تحمل الإنسان على العزة والكرم، والجود والبذل، وتنهاه عن التهوُّر، أو الغضب.

الرابع: العدل مع النفس، ومع الناس، ومن العدل أن يكون الإنسان معتدلًا في أخلاقه، فإن كل خلق حسن فهو مكتنف بخلقين ذميمين، فالإنسان إذا أفرط انتقل إلى خلق ذميم، وإذا فرَّط انتقل إلى خلق ذميم، فالحِلم خلق حسن فاضل، فإذا زاد وتعدَّى تحوَّل إلى الذِّلَّة والمهانة، وإذا نقص تحول إلى الغضب والتهور وشدة الانفعال.

والكرم خلق حسن فاضل مطلوب؛ لكن إذا زاد الكرم وتعدَّى تحوَّل إلى إسراف وتبذير، وإذا نقص تحوَّل إلى بخل وحرص وشحٍّ.

والإنسان مجبول على كثير من الخصال والأخلاق، سواء ورثها عن آبائه، أو تلقَّاها بحُكم البيئة التي عاش فيها، وانطبعت في نفسه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، في قصة وفد عبد القَيْسِ، أن النبيَّ ﷺ قال لأَشَجِّ عبد القَيْسِ: «**إنَّ فيك خَصْلتين يحبهما الله: الْحِلمُ والأَنَاةُ**»[١]. وفي رواية أنَّه ﷺ ذكر له، أن اللهَ جبله على هذين الخُلقين، فقال الرجل: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما اللهُ ورسولُه[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٨٢٨)، وأبو داود (٥٢٢٥).

ومن الوسائل المفيدة في إصلاح أخلاق الإنسان:

الأولى: مجاهدة النفس بحملها على الخلق الحسن، وكفِّها عن الخلق الذَّمِيم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]، والحصول على الخلق الفاضل من الهداية.

الثانية: المحاسبة، وتكون بعد الفعل، ومَن يحاسب نفسه يصل إلى خير كثير في سائر أموره؛ ولذلك أقسم الله سبحانه بالنفس اللَّوَّامة، وورد عن الحسن البصري وغيره أنهم قالوا: إنها نفس المؤمن(١).

الثالثة: التعلية، تعلية الإنسان أخلاقه الفاضلة، وإيجاد مصارف مناسبة مشروعة لها.

الرابعة: الإبدال، وهي أن يحرص الإنسان على تبديل الأخلاق المذمومة بأخلاق حسنة، ويُعْنَى بالجوانب الإيجابية في شخصيته وفي خُلقه.

الصومُ مدرسةُ التعفُّفِ والغِنَى ... وتقارُبُ البـعَـداءِ والأغـرابِ
الصومُ رابـطـةُ الإخاءِ قـويـةً ... وحِبالُ ودِّ الأهلِ والأصحابِ
الصومُ درسٌ في التساوي حافلٌ ... بالجودِ والإيـثـارِ والتَّرحـابِ(٢)

وكما يتأثر المرء بمَن حوله وبأسرته ومدرسته ومجتمعه وأصدقائه؛ فإنَّ أعظم تأثير هو تأثير المرء على نفسه، بسياستها وفهمها وتدريبها وصقلها ومعاقبتها، وأصل ذلك معرفة عيوبها ومواطن ضعفها، ومعرفة فضائلها ومواطن قوتها.

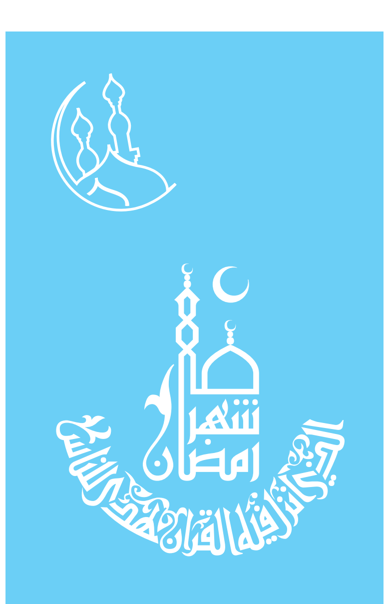
---

(١) ينظر: «تفسير ابن زمنين» (٥/ ٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٨٢).

(٢) من شعر الأستاذ خير الدين وانلي.

فاللهمَّ بصِّرنا بمواطن الضعف في نفوسنا، وأعنَّا على تداركها، يا أرحم الراحمين، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.





19

الفصل التاسع عشر

الاعتكاف

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾

الاعتكاف

الاعتكاف لغة: لزوم الشيء، وحبس النفس عليه[١].

وهو المكث في المسجد بنية التقرُّب إلى الله ﷻ، **ومن معانيه:** الرِّباط والـجِوار[٢].

وقد شُرِع الاعتكافُ لِحِكَم كثيرة، وأعظمها: التقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى، والانقطاع عن الناس، والتفرُّغ للعبادة والقُربة المحضة، ويكون في أوقات معينة يصفو فيها قلب العبد، ويُقبل على ربه، ويتخفَّف من الشواغل، حتى ما كان منها واجبًا، كحقوق الأهل والأولاد، وغير ذلك.

فبالاعتكاف يتفرَّغ العبد لعبادة الله وذكره وتسبيحه واستغفاره وقراءة القرآن؛ وفي هذا تصفية للقلب[٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقِّفًا على جمعيته على الله، ولمِّ شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى شُرِع لهم

(١) ينظر: «لسان العرب» (٩/ ٢٥٥)، و«تهذيب اللغة» (١/ ٢٠٩).

(٢) ينظر: «التاج والإكليل» (٢/ ٤٥٩)، و«منح الجليل» (٢/ ١٧٢)، و«الشرح الممتع» (٦/ ٥٠٠)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٤٥٥).

(٣) ينظر: «منح الجليل» (٢/ ١٧٤)، و«مغني المحتاج» (٢/ ١٨٩)، و«نداء الريان» (٢/ ١٩٢)، و«رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص٣٢).

الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عُكوفُ القلب على الله تعالى، وجمعيته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والانشغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهمُّ كله به، والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه، وما يقرِّب منه؛ فيصير أنسه بالله بدلًا عن أنسه بالخلق، فيعدُّه بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور، حين لا أنيس له ولا ما يفرح به سواه؛ فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم»[(١)].

وكان ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان حتى توفَّاه الله، وتركه مرة فقضاه في شوَّال.

واعتكف مرة في العشر الأول، ثم الأوسط، ثم العشر الأخير؛ يلتمس ليلة القدر، ثم تبيَّن له أنها في العشر الأخير[(٢)]، فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه.

وكان يأمر بخِباء فيُضرب له في المسجد يخلو فيه بربه.

وكان إذا أراد الاعتكاف صلَّى الفجر، ثم دخل معتكفه، وقد أراد الاعتكاف مرة، فأمر بخِبائه فضُرب، فأمر أزواجه بأخبيتهن فضُربت، فلما صلَّى الفجر نظر فرأى تلك الأخبية، فأمر بخبائه فقُوِّض، وتَرَك الاعتكاف تلك السنة في رمضان، حتى اعتكف في العشر الأول من شوال[(٣)].

وكان يُخرج رأسه من المسجد إلى بيت عائشة رضي الله عنها فترجِّله وتغسِّله وهو في

---

(١) ينظر: «زاد المعاد» (٢/ ٨٢).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٢٤٦١٣)، و«صحيح البخاري» (٢٠١٨، ٢٠٢٦)، و«صحيح مسلم» (١١٧٢).

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (٢٤٥٤٤، ٢٥٨٩٧)، و«صحيح البخاري» (٢٠٣٣، ٢٠٤١)، و«صحيح مسلم» (١١٧٢)، و«سنن أبي داود» (٢٤٦٤)، و«سنن ابن ماجه» (١٧٧١).

المسجد وهي حائض[١].

وكانت بعض أزواجه تزوره وهو معتكف، فإذا قامت تذهب قام معها، وكان ذلك ليلًا[٢].

أما عن حُكْم الاعتكاف:

فهو سنة، حكى الإجماع عليها ابن المنذر وغيره، والأحناف والشافعية يرون أنه سنة مؤكَّدة في العشر الأواخر من رمضان[٣].

قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

وقد اعتكف الرسول ﷺ واعتكف أزواجه من بعده، واعتكف الصحابة رضي الله عنهم[٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أَنَّ عمرَ سأَل النبيَّ ﷺ فقال: كنتُ نذرتُ في الجاهلية أن أَعتكفَ ليلةً في المسجد الحرام، قال: «**فأَوف بنذرك**»[٥].

وجمهور العلماء على أن الاعتكاف مسنون في كل وقت، في رمضان وغيره، وأفضله في رمضان، وآكده في العشر الأواخر منه[٦].

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٤٢٣٨)، و«صحيح البخاري» (٢٠٢٨)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٠٣٨)، و«صحيح مسلم» (٢١٧٥).

(٣) ينظر: «الإجماع» لابن المنذر (ص ٥٠)، و«المجموع» (٦/ ٤٦٩)، و«المغني» (٣/ ٦٣).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٠٢٥، ٢٠٢٦)، و«صحيح مسلم» (١١٧٢).

(٥) أخرجه البخاري (١٩٢٧)، ومسلم (١٦٥٦).

(٦) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٤٤٤)، و«الاستذكار» (٣/ ٣٩٨)، و«المجموع» (٦/ ٤٨٠)، و«المغني» (٣/ ٦٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٤٥٩).

والمـرأة يصح لها الاعتكاف باتفاق الفقهاء كالرجل[١]، وقد ورد في السنة أن أزواج النبي ﷺ اعتكفن، كما قالت عائشة رضي الله عنها في الحديث المتقدِّم: «ثم اعتكف أزواجه من بعده».

ولا بد أن يكون الاعتكاف في مسـجد باتفاق؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧]، وقوله سبحانه: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

ولما جاء عن عائشة وعلي وابن عباس وغيرهم رضي الله عنهم، أنه لا اعتكاف إلَّا في مسجد[٢].

وهذا من عظمة هذا الدين وبالغ حكمته؛ حيث شرع الاعتكاف في المساجد وهي محل الصلوات الجامعة، وملتقى المسلمين على العبادة بالإيمان، ولم يشرع الاعتكاف ولم يأذن به في الكهوف والمغارات والفلوات؛ لأن الأصل في هذا الدين هو التفاعل مع الحياة، وليس الانقطاع عنها، حتى هذه العبادة التي هي خلوة بالله شرعت حيث يجتمع الناس لعبادة الله، ﴿وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧].

وأفضـل المساجد للاعتكاف والصلاة هي: المسجد الحرام، ثم المسجد النبوي، ثم المسجد الأقصى، ثم المسجد الجامع، ثم المسجد الذي تقام فيه الجماعة[٣].

---

(١) ينظر: «بدائع الصنائع» (٤/ ٣٠٠)، و«حاشية الدسوقي» (٥/ ٢٠٤)، و«المجموع» (٦/ ٤٧٠)، و«المغني» (٣/ ٦٧)، و«المحلى» (٥/ ١٩٦).

(٢) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٥١٧٦، ٨٠٠٩)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٢/ ٣٣٧)، و«سنن أبي داود» (٢٤٧٥)، و«سنن البيهقي» (٤/ ٣٢١).

(٣) ينظر: «بدائع الصنائع» (٢/ ١١٣)، و«بداية المجتهد» (١/ ٢٢٨)، و«المجموع» (٦/ ٤٧٢)، و«المغني» (٣/ ٦٦)، و«المحلى» (٥/ ١٩٣).

ويصح الاعتكاف في المسجد الجامع غير المساجد الثلاثة، وما ذكر بعض أهل العلم من أنه لا يصح الاعتكاف إلا في أحد المساجد الثلاثة، فقول مرجوح، والجماهير من أهل العلم قالوا بصحة الاعتكاف في كل مسجد تقام فيه الصلاة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧]، فعمَّم ولم يخصِّص[١].

* ويستحب للمعتكِف الاشتغال بما يتقرَّب به إلى الله ﷻ من القُرَبِ المحضة، وهي التي تكون بين العبد وبين الله تبارك وتعالى؛ كالصلاة، والاستغفار، والذكر، وقراءة القرآن، والتسبيح، ونحو ذلك.

أو القُرَبِ المتعدِّية؛ كتعليم القرآن الكريم، والتحديث، وتدريس العلم، والدعوة إلى الله ﷻ، والنصح للمسلمين.

واجتناب ما لا يَعْنِيه من قول أو فعل، وهو مأمور به في كل وقت؛ لحديث: «مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يَعْنِيه»[٢].

والخروج لغير حاجة مبطل للاعتكاف باتفاق الفقهاء، أما الخروج لحاجة

---

(١) ينظر: «البحر الرائق» (٢/ ٣٢٢)، و«شرح الخرشي على خليل» (٢/ ٢٦٨)، و«المجموع» (٦/ ٤٧٦)، و«الفروع» (٥/ ٧٩)، و«الفقه على المذاهب الأربعة» (١/ ٥٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وابن حبان (٢٢٩)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه أحمد (١٧٣٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٨٨٦)، و«الأوسط» (٨٤٠٢)، و«الصغير» (١٠٨٠) من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما.

والصواب فيه: عن علي بن الحسين مرسلًا: أخرجه مالك (١٦٠٤)، وعبد الرزاق (٢٠٦١٧)، وابن الجعد في «مسنده» (٢٩٢٥)، والترمذي (٢٣١٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٠٧)، وغيرهم. وينظر: «الضعفاء» للعقيلي (٢/ ٩)، و«العلل» للدارقطني (٣/ ١٠٨-١١٠)، (٨/ ٢٥-٢٨)، (١٣/ ١٤٧، ٢٥٨-٢٥٩)، و«جامع العلوم والحكم»، الحديث الثاني عشر.

فلا يبطل الاعتكاف.

وهنا مسائل حول خروج المعتكِف من المسجد:

الأولى: يجوز الخروج لقضاء الحاجة للضرورة، كالبول ونحوه، وهذا بإجماع الفقهاء، كما ذكر ابن المنذر وغيره[1].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان»[2].

الثانية: جواز الخروج للوضوء، والاغتسال الواجب خصوصًا، إذا لم يتمكن منه في المسجد من غير أذى ولا ضرر، وهذا بإجماعهم أيضًا.

الثالثة: الخروج للأكل والشرب، أما إذا لم يجد مَن يأتيه بطعامه وشرابه فإنه يخرج، ولا يُخِلُّ هذا باعتكافه.

الرابعة: الخروج لغسل الجمعة، ونحوه من الأغسال المستحبة؛ فهذا جائز عند المالكية خلافًا للجمهور.

الخامسة: الخروج لصلاة الجمعة، وهذا واجب كما أسلفنا، ويخرج حتى لو لم يشترطه.

السادسة: الخروج لعيادة المريض، وصلاة الجنازة، فعند الجمهور أنه لا يخرج لذلك إلا إذا اشترطه، فعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: «إن كنتُ لأدخل البيتَ للحاجة والمريض فيه، فما أسأل عنه إلا وأنا مارَّة»[3]. فهذا دليل على أنه لا يخرج لعيادة المريض، ولا لاتباع الجنائز.

السابعة: الخروج نسيانًا، فلو أنه نسي وخرج من معتكفه، فإنه لا يبطل

---

(١) ينظر: «الإجماع» لابن المنذر (ص ١٣٢)، و«المجموع» (٦/ ٥٢٨)، و«المغني» (٣/ ٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٢٩)، ومسلم (٢٩٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٧).

اعتكافُه بذلك عند الجمهور، وهو الصحيح، وهو مذهب الحنابلة والشافعية؛ لقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

ولحديث: «إن اللهَ وضَعَ عن أمتي الخطأَ، والنسيانَ، وما استُكْرِهوا عليه»[(١)].

ولأن النسيان في الصوم لا يُفسده، فكذلك في الاعتكاف.

الثامنة: الخروج للمرض، **والمرض نوعان:** مرض يسير، مثل الصداع اليسير أو الحُمَّى اليسيرة، فهذا لا يخرج بالاتفاق، أما المرض الشديد الذي يحتاج الإنسان معه إلى الخروج، فإنه لا يُبطل الاعتكاف على الصحيح؛ كأن يذهب إلى المستشفى، وقد ينام فيه بعض الوقت، أو يتناول مغذِّيًا أو غيره، ثم يعود إلى معتكفه ويبني على ما مضى[(٢)].

مبطلات الاعتكاف:

أولًا: الجماع، باتفاق الفقهاء، إذا كان عامدًا عالمًا ذاكرًا؛ لقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧]؛ لكن إن نسي فاعتكافه صحيح وماضٍ ولا شيء عليه، وإن باشر وقبَّل فأنزل فسَد اعتكافه، وإن باشر أو قبَّل أو لمس ولم ينزل لم يفسد اعتكافه.

ثانيًا: الخروج من المسجد لغير حاجة، فإن ركني الاعتكاف هما: المكث في المسجد والنية.

ثالثًا: زوال التكليف، كالجنون والرِّدَّة والسُّكر ونحوها مما يزول بها عن

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٩٥)، والدارقطني (٤/ ١٧٠)، والحاكم (٢/ ١٩٩).

(٢) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٤٤٨)، و«مواهب الجليل» (٢/ ٤٦١)، و«المجموع» (٦/ ٥٢٨)، و«المغني» (٣/ ٧١)، و«الإنصاف» (٣/ ٣٧٢)، و«المحلى» (٥/ ١٩٢)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٤٧٢).

الإنسان التكليف.

رابعًا: **الحيض والنفاس عند الأكثرين**؛ لأن الحائض والنفساء لا تمكثان في المسجد عندهم.

وهل الصيام شرط للاعتكاف في غير رمضان؟

الراجح أنه مستحب وليس بواجب؛ والأولى للمعتكِف أن يصوم، أو يعتكف في وقت الصيام، ولا يجب عليه ذلك، وهذا مذهب الحنابلة والشافعية والظاهرية، ونقل عن جمع من الصحابة، كعلي وابن عباس وابن مسعود وغيرهم رضي الله عنهم، وهو مذهب الحسن البصري وأبي ثور وداود وابن المنذر[(١)].

وليس للاعتكاف حد عند جمهور الفقهاء، فكل قدر مكثه في المسجد يمكن أن يُسمَّى اعتكافًا، حتى لو مكث ساعة من نهار، وبعضهم يقول: لحظة.

وقيل: أقلُّه يوم. وقيل: ليلة. وقيل: يوم وليلة. **والأقرب** -والله أعلم- أنه إن جلس وقتًا زائدًا عن المعتاد في المسجد بنية الاعتكاف جاز له ذلك.

ويمكن أن يقال: الاعتكاف بين الوقتين؛ بين الظهر والعصر، أو العصر والمغرب، أو المغرب والعشاء؛ لحديث: «**ألَا أدلُّكم على ما يَمْحُو اللهُ به الخطايا ويرفعُ الدرجات؟**». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**إسباغُ الوضوء على المكاره، وكثرةُ الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكمُ الرِّباطُ فذلكم الرِّباطُ**»[(٢)].

---

(١) ينظر: «المبسوط» (٣/ ١١٥)، و«التمهيد» (١١/ ١٩٩)، و«المجموع» (٦/ ٥٠٩)، و«المغني» (٣/ ٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وينظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٤٤٣)، و«بداية المجتهد» (١/ ٤٦٨)، و«المجموع» (٦/ ٥١٣)، و«كشاف القناع» (٢/ ٣٤٧).

ثمرات الاعتكاف:

أولًا: التربية على الإخلاص؛ لأن المعتكِف لا يراه أحد إلا الله جل وعلا.

ثانيًا: التربية على التخلُّص من فضول الكلام، والطعام، والنوم، والخُلطة.

ثالثًا: التربية على العبادة؛ خاصة قيام الليل، وقراءة القرآن، والاستغفار، والذكر، والمناجاة.

رابعًا: تقوية الصِّلة بالله تعالى، واللجوء إليه ومناجاته.

خامسًا: التفكُّر والتعوُّد على الاستخدام الأمثل لنعمة العقل.

سادسًا: مراجعة النفس ومحاسبتها في أمور الدين والدنيا، وفي أمور العبادة وغيرها.

سابعًا: التربية على الاستخدام الأمثل للوقت، واستغلاله في القراءة والحفظ والمدارسة في العلم.

ثامنًا: التعوُّد على عُزلة مؤقتة بعيدًا عن الناس، يملك المؤمن بها زمام نفسه، ويصفو فكره، ويتأمَّل أحواله، وينظر لحياته نظرة جديدة، بعيدة عن الضغوط والمؤثِّرات، فهو زاد نفيس، خاصة مع الذكر والعبادة، ولا شك أن من أعظم العبادة: التفكُّر والتفكير والنظر والتأمل، فهي عبادة العقل الذي ميَّز الله به الإنسان.

وكل هذا تحصيلٌ لمقصود الاعتكاف وروحه، عكس ما يفعله بعض الناس من اتخاذ الْمُعْتَكَف موضع عِشْرة، ومجلبة للزائرين، وأخذهم بأطراف الأحاديث، فهذا لون والاعتكاف النبوي لون آخر.

تاسعًا: ترك المعاصي أو التقليل منها.

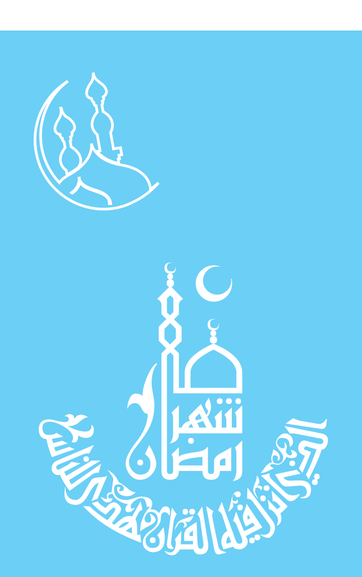
عاشرًا: التربية على الصبر، ومجاهدة النفس، وعدم اتباع الهوى والشيطان[1].

ويحسن بالصائم أن يعتكف، ولو وقتًا يسيرًا؛ ليجد أثر هذه العبادة على نفسه، وليأخذ منها بنصيب، وليتشبَّه بالصالحين، ويُسهم في إحياء هذه السنة العظيمة، مع أهمية الحفاظ على نظافة المساجد وسكينتها وحقوق عامة المصلِّين، فلا يجوز أن يكون الاعتكاف سببًا في تكدُّس الملابس والأدوات في المساجد، أو رفع الأصوات، بل هو مظهر من مظاهر السكينة والإخبات لعباد يسألون الله فيعطيهم، ويدعونه فيستجيب لهم، ويعبدونه فيتقبل منهم بمنِّه وفضله، وهو أرحم الراحمين.



---

(١) ينظر: «نداء الريان» (٢/ ١٩٢)، وما تقدَّم في الفصل العاشر «**مع الرسول ﷺ في الصوم**».



20

الفصل العشرون
العشر الأواخر

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبيُّ ﷺ إذا دخل العشرُ شدَّ مِئْزَرَهُ وأحيا ليلَهُ وأَيْقَظَ أهلَهُ»



العشر الأواخر

تبدأ العشر الأواخر من رمضان من ليلة الحادي والعشرين من رمضان، وتنتهي بخروج رمضان، سواء كان ناقصًا أو تامًّا، فإن نقص الشهر فهي تسع، وإطلاق العشر عليها تغليبًا للأصل.

وللعشر الأواخر من رمضان مزيةُ فضلٍ على غيرها؛ فإنها ليالي الإحياء التي كان رسول الله ﷺ يحييها كلها، وفيها ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر[1].

وقد كان النبيُّ ﷺ يخص العشر الأواخر بمزيد عناية من الاجتهاد والعبادة، والحرص على الخير، ويجتهد فيها ما لا يجتهد في غيرها.

ففي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبيُّ ﷺ إذا دخل العشرُ شدَّ مئزرَهُ، وأحيا ليلَهُ، وأيقظ أهلَهُ». وزاد مسلم: «وجدَّ وشدَّ المئزرَ»[2].

ومعنى «أحيا ليله» أي: استغرقه بالسهر في الصلاة وغيرها، وهو معنى إيجابي جميل، وكأن الليل ميت؛ لأن النوم أخو الموت، فإذا صحا المؤمن وذكر

---

(١) ينظر: «وظائف رمضان» لعبد الرحمن بن قاسم النجدي (ص ٥٤)، و«مجالس شهر رمضان» لابن عثيمين (ص١١٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (١١٧٤).

الله تعالى، جمع حياة الروح وحياة الجسد، وفي الحديث: «**مثلُ الذي يذكرُ ربَّه، والذي لا يذكرُ ربَّه، مَثلُ الحيِّ والميِّت**»[(١)]. وفي التنزيل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وقد جاء من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لا أَعلمُ نبيَّ الله ﷺ قرأَ القرآن كلَّه في ليلة، ولا صلَّى ليلةً حتى الصبح، ولا صام شهرًا كاملًا غيرَ رمضانَ»[(٢)].

فيُحمل قولها: «وأَحيا ليله» على أنه ﷺ كان يقوم أغلب الليل، أو يقوم الليل كله؛ لكن يتخلَّل ذلك العشاء والسحور وغيرها، فالمراد: إحياء معظم الليل.

ومن ذلك إيقاظ الرجل أهله للصلاة والعبادة:

قالت عائشة رضي الله عنها: «وأيقظ أهله» أي: أيقظ أزواجه للقيام، وقد كان ﷺ يوقظ أهله في سائر السَّنة؛ لكن كان ذلك لقيام بعض الليل، ففي «صحيح البخاري» عن أم سَلَمَةَ رضي الله عنها قالت: استيقظَ النبيُّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ فقال: «**سبحان الله! ماذا أُنزل الليلةَ من الفتن، وماذا فُتح من الخزائن، أيقظُوا صواحبات الحُجَر، فَرُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة**»[(٣)].

وكان ﷺ يطرق ابنته فاطمة وزوجها علي رضي الله عنهما بالليل، ويقول: «**أَلَا تقومان تصلِّيان؟**»[(٤)].

ولكن إيقاظه ﷺ لأهله في العشر الأواخر من رمضان أظهر وأكثر منه في سائر السَّنَة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، ولفظ مسلم: «**مثل البيت الذي يُذكر الله فيه...**».

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (١١٢٦).

(٤) أخرجه البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥)، وأبو عوانة (٢٢٠٩).

ومن ذلك الاجتهاد في العبادة:

ففي «صحيح مسلم» تقول عائشةُ ﵂: «كان رسولُ الله ﷺ يجتهدُ في العشر الأواخر ما لا يجتهدُ في غيره»[١].

قال الشافعي ﵀: «ويسنُّ زيادة الاجتهاد في العبادة في العشر الأَواخر من رمضان»[٢].

وقد كان النبيُّ ﷺ إذا دخل العشر الأواخر شدَّ المئزرَ، كما في «الصحيحين»، وقد تقدَّم.

وشَدُّ المئزر كناية عن الاستعداد للعبادة والاجتهاد والقيام فيها زيادة على المعتاد والتشمير لها؛ كما يقال: شددت لهذا الأمر مئزري، أي: شمَّرت له وتفرَّغت.

وقيل: «**شد مئزره**» كناية عن اعتزال النساء وترك الجماع، وهو الأقرب[٣]، فهذه كناية معروفة عند العرب، قال قائلهم:

قَومٌ إِذا حارَبوا شَدُّوا مَآزِرَهُم عَنِ النِّساءِ وَلَو باتَت بِأَطهارِ[٤]

ومنها: تحرِّي ليلة القدر:

فمن عظيم فضل هذه العشر أن فيها ليلة القدر، وهي أعظم ليالي العام، فهي خير من ألف شهر، فلو قُدِّر للعبد أن يجتهد ويواصل عبادة ربه قرابة أربعة

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١١٧٥).
(٢) ينظر: «المجموع» (٦/ ٣٩٧).
(٣) ينظر: «معالم السنن» (١/ ٢٨٢)، و«كشف المشكل» لابن الجوزي (٤/ ٣٦٤)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٨/ ٧١).
(٤) ينظر: «ديوان الأخطل» (ص١١٠).

وثمانين عامًا ليس فيها ليلة القدر؛ لكان قيامه ليلة القدر وحدها خيرًا من هذه السنوات الطوال، وهذا من عظيم فضل الله، وإنعامه على هذه الأمة، وفتح السبيل للمنافسة والتشمير وسلوك الطرق السريعة المحصِّلة للكثير من الخير، بالقليل من الجهد، خاصة مع الثقة بالله وحسن الظن به.

قال كثير من المفسِّرين: «العمل فيها خير من العمل في ألف شهر»(١).

وهذه الليلة في أوتار العشر الأواخر أرجى؛ وهي في السبع الأواخر أقرب(٢).

وأقرب السبع الأواخر ليلة سبع وعشرين؛ لحديث أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه، وسيأتي بتمامه(٣).

فجدير بالمسلم أن يتحرَّى هذه الليلة، وأن يحيي وقته ذكرًا وتسبيحًا وتلاوةً واستغفارًا.

ويستحب الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان؛ لقول رسول الله ﷺ: «التمسوها في العشر الأواخر». وإنَّما تلتمس بالعمل الصالح، لا بأَنَّ لها صورة وهيئة يمكن الوقوف عليها بخلاف سائر اللَّيالي، كما يظن بعض الناس، إنَّما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤]، وقال تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر:٣-٥]، فبهذا بانت عن سائر اللَّيالي.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٢/ ٥٤٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣١)، و«فتح القدير» للشوكاني (٥/ ٥٧٥).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٧٦٢).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٩٩١)، و«صحيح مسلم» (١١٦٥).

ومنها: اعتكاف العشر الأواخر:

وهو من أجلِّ الأعمال في العشر، كما سبق تفصيله، ولو اعتكف ليلة أو يومًا أو بعض يوم.

ومقصوده: عكوف القلب على الله تعالى والخلوة به، ويستحضر المعتكف النية الصالحة فيه، مع احتساب الأجر، واستشعار الحكمة منه، وأن يلزم مسجده ولا يخرج إلا لحاجة ضرورية، مع المحافظة على السنن والأذكار مُطلَقِها ومقيَّدِها، كالرواتب والضحى والقيام، وأذكار طرفي النهار، وأدبار الصلوات وغير ذلك، والإكثار من قراءة القرآن، والإقلال من الطعام والنوم وكثرة الكلام فيما لا ينفع، مع النصيحة للمسلمين والتواصي بالحق والصبر في رمضان، وخاصة العشر الأواخر.

ويستحب كذلك البذل والجود، في غير سرف ولا مخيلة؛ لما جاء في «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبيُّ ﷺ أجودَ الناس بالخير، وكان أجودُ ما يكونُ في رمضان»[(١)].

قال في «المجموع»: والجود والإفضال مستحب في شهر رمضان. وفي العشر الأواخر أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ وبالسلف؛ ولأنه شهر شريف، فالحسنة فيه أفضل من غيره؛ ولأن الناس يشتغلون فيه بصيامهم، وزيادة طاعتهم عن المكاسب، فيحتاجون فيه إلى المواساة»[(٢)].



---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٨).

(٢) ينظر: «المجموع» (٦/ ٣٩٨).



﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ
ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾



ليلة القدر

أنت في الدَّهرِ غرةٌ وعلـى الأرْ ضِ سلامٌ وفي السماء دعـاءُ
يتلقَّاك عند لُقيـاك أهـلُ الـْ بِرِّ والمؤمنون والأصـفيـاءُ
فلهم في النَّهار نَجوى وتَسبيـ ـحٌ وفي الليلِ أدمُـعٌ ونـداءُ
ليلةُ القدرِ عندَهم فرحـةُ العُمْـ ـرِ تدانَت على سناها السَّمـاءُ
في انتظارٍ لنورها كـلَّ لـيـلٍ يتمنَّى الهُدى ويدعو الرَّجـاءُ
وتعيش الأرواحُ في فلقِ الأشوا قِ حتَّى يباحَ فيـها اللقـاءُ
فإذا الكون فرحةٌ تغـمُـرُ الخلْـ ـقَ، إليه تبتَّـل الأتقيـاءُ
وإذا الأرضُ في سـلامٍ وأمـنٍ وإذا الفجرُ نشـوةٌ وصفَـاءُ
وكأنِّي أرى الملائكةَ الأبـرا رَ فيهـا وحـولَهـا الأنبيـاءُ
نَزَلوا فوقَها من الملأِ الأعلـى فأين الشَّقـاءُ والأشـقيـاءُ[1]

إنها الليلة المباركة، وأفضل ليالي الدهر، وخير ساعات العمر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١-٢].

(١) ينظر: «ديوان أحمد مخيمر» (ص٥١).

إنها الليلة المباركة في كتاب الله عز وجل، يقول الله تعالى: ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الدخان:١-٦].

وقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، وسَعِيد بن جُبير، وعكرمة، ومجاهد، وغيرهم من علماء السلف ومفسِّريهم، أنَّ الليلة المباركة هي ليلة القدر، وفيها أُنزل القرآن... وفيها يُفْرَقُ كل أمر حكيم، أي: يُكتب، ويُفصَّل.

وقيل: إن المعنى أنه يبيَّن في هذه الليلة للملائكة.

وقيل: تُقدَّر في ليلة القدر مقادير الخلائق على مدى العام، فيُكتب فيها الأحياءُ والأموات، والناجون والهالكون، والسُّعداء والأشقياء، والعزيز والذَّليل، ويُكتب فيها الْـجَدْب والقحط، وكل ما أراده الله تبارك وتعالى في تلك السنة[1].

والظاهر -والله أعلم- أن المراد بكتابة مقادير الخلائق في ليلة القدر: أنه ينقل في ليلة القدر من اللوح المحفوظ؛ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الرجل ليمشي في الناس، وقد رُفع في الأموات». ثم قرأ هذه الآية: «﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤] ». قال: «يُفْرَقُ فيها أمر الدنيا من السنة إلى السنة»[2].

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٤٨٠)، و«تفسير القرطبي» (٦/ ١٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٦٩)، و«الدر المنثور» (٧/ ٣٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٠)، و«السنة» لعبد الله بن أحمد (٢/ ٤٠٧)، و«الدر المنثور» (٥/ ٧٣٩).

وفي سبب تسميتها بذلك خمسة أقوال:

أحدها: لعظيم قدرها، وجلالة مكانتها عند الله عز وجل، وكثرة مغفرة الذنوب وستر العيوب في هذه الليلة المباركة، قال الزهري: «القدر: العظمة، من قولك: لفلان قدر».

ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩١].

الثاني: قال الخليل بن أحمد: إنَّه من الضيق، أي: هي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين ينزلون.

ويشهد له قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق:٧].

الثالث: قال ابن قُتيبة: «إن القدر: الحكم، كأنَّ الأشياء تقدَّر فيها».

الرابع: قال أبو بكر الوَّراق: «لأنَّ مَن لم يكن له قدر، صار بمراعاتها ذا قدر».

الخامس: قال علي بن عبيد الله: «لأنَّه نزل فيها كتاب ذو قدر، وتنزل فيها رحمة ذات قدر، وملائكة ذوو قدر».

والأقرب شمول السبب لذلك كله؛ فهي عظيمة القدر، وذلك لما فيها من تقدير الآجال والأعمال، ونزول الملائكة، وكثرة العبادة، وتحوُّل العبد من صفة إلى صفة أخرى باغتنام الفرصة، وحمل النفس على الطاعة والجو الإيماني الروحاني الذي يعين على اتخاذ قرار التوبة والتغيير[١].

---

(١) ينظر: «زاد المسير» لابن الجوزي (٤/ ٤٦٩)، و«التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٩٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٤٨).

ومن فضائل ليلة القدر:

١- أنها خيرٌ من ألف شهر:

قال تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر:٣].

قال مجاهد: «عملها وصيامها وقيامها خيرٌ من ألف شهر»[(١)].

ولعل من حكمة ذلك، أن مَن قصَّر أو فرَّط في عمره، يعلم أنه يقدر على تدارك ما فات باغتنام هذه الليلة التي تعوِّض مَن كُتب له القبول عن عمر طويل.

٢- نزول الملائكة والروح فيها:

قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ [القدر:٤].

قال البغوي: «قوله عز وجل: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ يعني جبريل عليه السلام معهم، ﴿فِيهَا﴾ أي: ليلة القدر ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ أي: بكل أمرٍ من الخير والبركة»[(٢)].

وقال ابن كثير: «أي: يكثر تنـزُّل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنـزلون مع تنزُّل البركة والرحمة، كما يتنـزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحِلَقِ الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدقٍ تعظيمًا له»[(٣)].

٣- أنها سَلَام إلى مطلع الفجر:

قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [القدر:٥].

عن مجاهد في قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ قال: «سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا أو يعمل فيها أذى»[(٤)].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٤٥).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٤٩١).

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٦٨).

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤٥٣)، و«شعب الإيمان» (٣٤٢٥).

وقيل: إن معنى السلام: الخير والبركة، قاله قتادة، وكان بعض العلماء يقول: الوقف على ﴿سَلَٰمٌ﴾ على معنى تنزّل الملائكة بالسلام[(١)].

وهي دعوة إلى السلام والمحبة والتصالح وكف الأذى وصلة الأرحام والأقارب والأصدقاء والجيران، والتخلِّي عن الضغينة والحقد والبغضاء والكيد والعدوان والبغي على الناس، والسلام من أسمائه تعالى، وهو التحية التي وضعها بين عباده.

ومَن تردَّد أو أعرض عن تصفية قلبه في هذه الليلة، فهو فيما سواها أعجز، السلام هو المعنى الذي لا يذوق العبد صفاء الحياة وسعادتها وهناء عيشها، إلا حينما يستشعره قلبه، وتطمئن به نفسه.

٤- أن مَن قامها إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**مَن صام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه، ومَن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه**»[(٢)].

قال ابن بطَّال: «معنى قوله: «**إيمانًا واحتسابًا**» يعني مُصدِّقًا بفرض صيامه، ومُصدِّقًا بالثواب على قيامه وصيامه، ومحتسبًا مريدًا بذلك وجه الله، بريئًا من الرياء والسمعة، راجيًا عليه ثوابه»[(٣)].

قال النووي: «معنى إيمانًا: تصديقًا بأنه حق، مقتصد تحصيل فضيلته، ومعنى احتسابًا: أن يريد الله تعالى وحده، لا يقصد رؤية الناس ولا غير ذلك مما يخالف

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٧٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٥، ٣٨)، ومسلم (٧٦٠).
(٣) ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١/ ٥٩).

الإخلاص، والمراد بالقيام: صلاة التراويح، واتفق العلماء على استحبابها»[١].

ويُستحب تحرِّيها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه خاصة؛ لقول الرسول الله ﷺ: «**التَمِسوها في العشرِ الأواخرِ**»[٢]. وخاصة في أوتار العشر الأواخر، وهي ليلة إحدى وعشرين، وثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وتسع وعشرين.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدِّم، أن النبيَّ ﷺ قال: «**في تاسعةٍ تبقى، في سابعةٍ تبقى، في خامسةٍ تبقى**».

وفي «صحيح البخاري» من حديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ خرج يُخبرُ بليلة القدر، فتَلَاحى رجلان من المسلمينَ، فقال: «**إني خرجتُ لأخبركم بليلة القدر، وإنه تَلَاحى فلانٌ وفلانٌ، فُرفعتْ، وعسى أن يكون خيرًا لكم، التمسوها في السبع والتسع والخمس**»[٣].

وهذا دليل على شؤم الخصومة في غير حق، خاصة الخصومة في الدين وعظيم ضررها، وأنها سبب في غياب الحق وخفائه على الناس.

وجاء عن ابن عمر رضي الله عنهما، أَن رجالًا من أَصحاب النبي ﷺ أُرُوا ليلةَ القدر في المنام في السبع الأَواخر، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أَرَى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر، فمَن كان متحرِّيها فليتحرَّها من العشر الأواخر**»[٤].

---

(١) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٦/ ٣٩).
وينظر: «نداء الريان» (١/ ٢٩٥) وما بعدها، و«مجالس شهر رمضان» (ص١٢٤)، و«رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٢١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه مسلم (١١٦٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠١٥)، ومسلم (١١٦٥).

ومعنى قوله ﷺ: «**أرى رؤياكم قد تواطأت**» أي: اتفقت، فكأنهم رأوها في المنام، إما جاءهم أحد وأخبرهم أنها في السبع الأواخر، أو رأوا في المنام أن ليلة القدر تكون في السبع الأواخر، فأمر النبي ﷺ بتحريها في هذه السبع الأواخر، خاصة في ليلة سبعٍ وعشرين؛ فإنها أرجى ما تكون ليلة سبعٍ وعشرين.

بل جاء من حديث معاويةَ رضي الله عنه عند أبي داود، أن النبيَّ ﷺ قال: «**ليلةُ القدر ليلةُ سبعٍ وعشرين**»(١).

وليلة القدر أرجى ما تكون ليلة سبعٍ وعشرين؛ للحديثين السابقين، ولأنَّ هذا مذهب أكثر الصحابة ، وجمهور العلماء، حتى إنَّ أُبي بن كعب رضي الله عنه كان يحلف على ذلك، كما في «صحيح مسلم» عن زِرِّ بن حُبيشٍ قال: سمعتُ أُبيَّ بنَ كعبٍ يقولُ، وقيل له: إن عبدَ الله بنَ مسعودٍ يقول: «مَن قام السنةَ، أصابَ ليلةَ القدر». فقال أُبيٌّ: «والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي رمضان- يحلف ما يستثني- ووالله إني لأعلم أيُّ ليلةٍ هي، هي الليلةُ التي أمرنا بها رسولُ الله ﷺ بقيامها، هي ليلةُ صَبِيحة سبعٍ وعشرين، وأمارتُها أن تطلع الشمسُ في صَبِيحة يومها بيضاءَ لا شعاعَ لها»(٢).

وكذلك ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنها ليلة سبع وعشرين.

وقد ورد أن عمرَ رضي الله عنه لما جمع الصحابة، وجمع ابن عباس معهم، فقالوا لابن عباس: هذا كأحد أبنائنا، فلماذا تجعله معنا؟ فقال: إنه فتى له قلب عقول، ولسان سئول. وأثنى عليه، ثم سأل الصحابةَ عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر، فقال لابن عباس، فقال: إني لأعلم، أو أظن أين هي، إنها

---

(١) ينظر: «سنن أبي داود» (١٣٨٦).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٧٦٢).

ليلة سبع وعشرين. فقال: وما أدراك؟ قال: إن الله تعالى خلق السموات سبعًا، وخلق الأرضين سبعًا، وجعل الأيام سبعًا، وخلق الإنسان من سبع، وجعل الطواف سبعًا، والسعي سبعًا، ورمي الجمار سبعًا؛ ولذلك رأى ابن عباس أن ليلة القدر ليلة سبع وعشرين[(١)].

والظاهر -والله تعالى أعلم- أنها تتنقل من ليلة إلى أخرى، فغالبًا ما تكون ليلة سبع وعشرين؛ لكن قد تكون ليلة إحدى وعشرين، كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «**قد أُريتُ هذه الليلةَ، ثم أُنسيتُها، فابتغوها في العشر الأواخر، وابتغوها في كل وِتْرٍ، وقد رأيتُني أسجدُ في ماءٍ وطين**». قال أبو سعيد: فاستهلَّت السماء في تلك الليلة فأمطرت، فوَكَفَ المسجدُ في مصلَّى النبي ﷺ ليلة إحدى وعشرين، فبَصُرتْ عينِي رسولَ الله ﷺ ونظرتُ إليه انصرفَ من الصبح ووجهه ممتلئ طينًا وماءً»[(٢)]. وهذا دليل على أنها كانت في ذلك العام ليلة إحدى وعشرين.

ويستحب الإكثار في ليلة القدر من الدعاء، خاصة الدعاء الذي ورد أن النبي ﷺ علَّمه عائشةَ رضي الله عنها حين قالت: إن أُريتُ ليلةَ القدر، ماذا أقول؟ فقال لها النبيُّ ﷺ: «**قولي: اللهمَّ إنك عفوٌّ تحبُّ العفوَ، فاعفُ عنِّي**»[(٣)].

---

(١) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٧٦٧٩)، و«قيام رمضان» للمروزي (ص٢٥٢ - مختصره للمقريزي)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢١٧٢-٢١٧٤)، و«معجم الطبراني الكبير» (١٠٦١٨)، و«سنن البيهقي» (٣/ ٣١٣)، و«شعب الإيمان» (٣٦٨٦)، و«فتح الباري» (٤/ ٢٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١٣)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٤/ ٤٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ١١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠١٨)، ومسلم (١١٦٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٣٨٤، ٢٥٥٠٥)، والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، والحاكم (١/ ٥٣٠)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٢٣٤).

وكذلك الحرص على صلاة التراويح، والاعتكاف، والتوبة والإنابة، وغير ذلك من أعمال الطاعة، وخاصة أعمال القلوب، فإن الكثير من الناس يتنافسون في الأعمال الظاهرة، ويحرصون عليها أكثر من حرصهم على المعاني الباطنة التي هي الأصل، فكل حسنة في القلب تورث الكثير من العمل الصالح الظاهر.

أما العلامات التي تُعرف بها ليلة القدر:

ففي حديث أُبِيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ ذكَرَ أن من علامتها أن الشمسَ تطلع صبيحتها لا شُعاع لها[١].

وعند الطبراني من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنها ليلة بلجة**- يعني: منيرة مضيئة- **لا حارة ولا باردة، لا يُرمى فيها بنجم**»[٢]. يعني: لا تُرى فيها هذه الشهب التي تُرسل على الشياطين.

وذكر بعض أهل العلم علامات أخرى لا أصل لها، وليست صحيحة، إنما نذكرها لبيان أنها لا تصح.

من ذلك: ما ذكره الطبري عن قوم أنهم قالوا: إن من علامات ليلة القدر أن الأشجار تسقط حتى تصل إلى الأرض، ثم تعود إلى أوضاعها. وهذا لا يصح.

وذكر بعضهم أن المياه المالحة تصبح حلوة في ليلة القدر. وهذا لا يصح.

وذكر بعضهم أن الكلاب لا تنبح فيها. وهذا لا يصح.

وذكر بعضهم أن الأنوار تكون في كل مكان، حتى في الأماكن المظلمة. وهذا لا يصح[٣]، بل هذه الأقوال مخالفة للحس وللشرع، ولو كانت كذلك،

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٧٦٢).

(٢) ينظر: «معجم الطبراني الكبير» (٢٢/ ٥٩) (١٣٩).

(٣) ينظر: «الشرح الممتع» (٦/ ٤٩٧).

لكانت حجة قطعية على الناس، وإنما تعبَّد اللهُ الناسَ بالإيمان بالغيب.

وليس من الضروري لَمن أدرَكَ ليلةَ القدر أن يعلم أنها ليلة القدر؛ بل قد يكون ممن لم يكن له منها إلا القيام والعبادة والخشوع والبكاء والدعاء مَن هم أفضل عند الله تعالى، وأعظم درجة ومنزلة ممن عرفوا تلك الليلة، فالعبرة هي بالاستقامة، ولزوم الجادة، والتعبد لله عز وجل، والإخلاص، كما ذكره طائفة من أهل العلم[(١)].

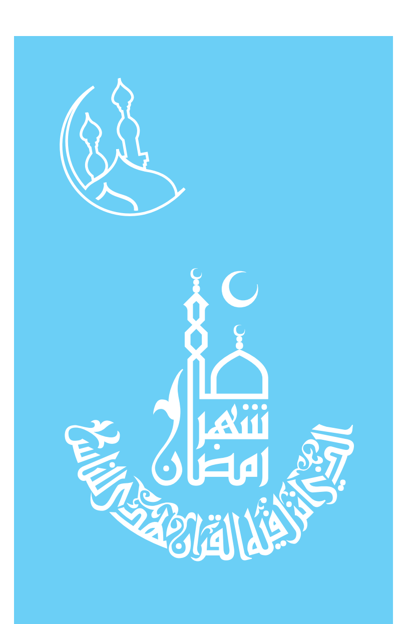
وليلة القدر باقية إلى قيام الساعة؛ لما رواه أحمد، والنسائي عن أبي ذر رضي الله عنه، أنه قال: يا رسولَ الله، هل تكون -أي: ليلة القدر- مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قُبضوا رفعت، أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: «**بل هي إلى يوم القيامة**»[(٢)].

وهو دليل على خيرية هذه الأمة وامتدادها وفضلها، وسعة رحمة الله تعالى بعباده، وأن مِنَنَه وعطاياه للتائبين والعابدين والخاشعين لا تزال حتى يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ما نَبَا سَيْفي ولا دَهرِي أَبَى | مُذ تخذتُ اللهَ ربِّي مَطلبًا
غَمَرَ الأكوانَ بالنَّشوةِ في | ليلةِ القدرِ سُموًّا مُجتبَى
وتَجلَّى النُّور في قلبِي رضًا | فاضَ إنعامًا وأسدَى وحَبَا[(٣)]



(١) ينظر: «مغني المحتاج» (٢/ ١٨٩)، و«لطائف المعارف» (ص ١٨٥).
(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٣٨)، والنسائي في «الكبرى» (٣٤٢٧)، وابن خزيمة (٢١٦٩، ٢١٧٠)، وابن حبان (٣٦٨٣)، والحاكم (١/ ٤٣٧).
(٣) ينظر: «ديوان بهاء الدين الأميري» «قلب ورب» (ص ٥١). ونبوة السيف: عدم قطعه.



22

الفصل الثاني والعشرون

شهر الاستغفار

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾



شهر الاستغفار

يا ربِّ إن عَظُمتْ ذنوبي كَثْـرةً فلقد علمتُ بأن عفوَك أعظـمُ

إن كان لا يرجوكَ إلَّا مـؤمـنٌ فبمَـن يلـوذُ ويستـجيرُ المجرِمُ؟!

أدعوك ربِّ كما أمرتَ تضرُّعًا فإذا ردَدتَ يدي فمَن ذا يرحمُ؟!

ما لي إليكَ وسيلةٌ إلا الرَّجـا وجميلُ عفوِك ثـم أنِّي مـسلـمُ(١)

الخطأ من طبيعة ابن آدم؛ فهو مخلوق من طين، ورُكِّبت فيه غرائز وشهوات يميل لها ميلًا فطريًّا، وخلق اللهُ عزوجل الشياطينَ الذين تمحَّضوا للشر والفساد وإغواء بني آدم.

وقد يستقيم الإنسان ويصلح حتى يكون في أعلى المنازل، ويتفوَّق على الملائكة المقرَّبين، وقد ينحطُّ ويتردَّى حتى يصبح في أسفل سافلين، ويتشبَّه بالمردة والشياطين.

وقد امتنَّ الله عزوجل على عباده بأنه الغفور، الحليم، التواب، واسع المغفرة، غافر الذنب، وقابل التَّوب، الرحمن، الرحيم، الكريم، الوهَّاب، الـجَوَاد؛ وبمقتضى ذلك يغفر لـمَن يشاء من عباده، ويتجاوز عن سيئاتهم وذنوبهم وخطاياهم، إذا تابوا إليه وأنابوا ولم يصرُّوا، ومن أعظم ما شرعه الله لنا: الاستغفار.

---

(١) ينظر: «ديوان أبي نواس» (ص١٤٠).

والاستغفار: هو طلب المغفرة، وهي وقاية شر الذنوب مع سترها[١].

وقد أمر الله عز وجل نبيَّه ﷺ بالاستغفار في مواطن كثيرة، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩].

وجاء في «الصحيح» عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: إن كان النبيُّ ﷺ لَيقوم لِيُصلِّي حتى تَرِمَ قدماه أو ساقاه، فيقال له، فيقول: «**أَفَلَا أكونُ عبدًا شكورًا**»[٢].

وكان يصوم حتى يقال: لا يفطر[٣]. وكان يقوم من الليل أكثره، أو نصفه، أو ثلثه، وربما قام الليل كلَّه إلا قليلًا[٤]، وكانت حياته ﷺ جهادًا متواصلًا، ودعوة وابتلاءً، ومع ذلك قال له ربُّه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر:٥٥]، وقال له: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٦].

وحالات الاستغفار الواردة عديدة، ومنها:

أولًا: حالَ التلبُّس بالعبادة أو الفراغ منها، فيُقبل العبد على الاستغفار، يدفع به عن نفسه تبعة التقصير، أو معرَّة الاغترار، وفي آخر ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:٣].

وفي «الصحيح» أنه ما صلَّى صلاةً بعدما نزلت عليه هذه السورة، إلا قال فيها: «**سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدك، اللهمَّ اغفرْ لي**»[٥].

---

(١) ينظر: منهاج السنة» (٦/ ٢١٠)، و«رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص١٥٧).
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١١٣٠)، و«صحيح مسلم» (٢٨١٩).
(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٦٩)، و«صحيح مسلم» (١١٥٦).
(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٠٦٣)، و«صحيح مسلم» (٧٤٦، ١٤٠١).
(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٦٧)، و«صحيح مسلم» (٤٨٤).

ولهذا فهم الصحابة رضي الله عنهم أنَّه أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه اللهُ إيَّاه، فأمره سبحانه بالاستغفار في نهاية أحواله.

ومن آخر ما سُمِع من كلامه عند احتضاره: «**اللهمَّ اغفرْ لي، وألحقني بالرَّفيق الأعلى**»[1].

وكان يختم كل عمل صالح بالاستغفار؛ كالصوم، والصلاة، والحج، والجهاد، فإنَّه كان إذا فرغ منه وأشرف على المدينة قال: «**آيبونَ تائبونَ عابدونَ، لربِّنا حامدونَ**»[2].

وحياته كلها كانت عملًا صالحًا، فختمها بالاستغفار.

وشُرِع أن يُختم المجلس بالاستغفار، وإن كان مجلس خير وطاعة[3].

ثانيًا: عند المعصية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥].

وفي الحديث: «**ما من عبد يُذنبُ ذنبًا، فيُحسنُ الطُّهورَ، ثم يقوم فيصلِّي ركعتين، ثم يستغفرُ الله، إلَّا غفَرَ اللهُ له**». ثم قرأ هذه الآية: «﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ...﴾» إلى آخر الآية[4].

ثالثًا: حالة الغفلة، وكلُّ الناس خطَّاؤون، وما أكثر الغافلين الشاردين عن ربهم! ومَن تأمل هَدي سيد البشر، وجده لا يفتر عن الاستغفار، وفي حديث

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٤٤٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٨٦)، ومسلم (١٣٤٥).

(٣) سيأتي الحديث في ذلك.

(٤) أخرجه الطيالسي (١)، وأحمد (٤٧)، وأبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦، ٣٠٠٦)، وابن حبان (٦٢٣).

الأَغَرِّ المُزني رضي الله عنه، أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنه ليُغَانُ على قلبي، وإني لأستغفرُ اللهَ في اليوم مائة مرة**»[١].

وقوله: «**لَيُغَانُ**» هو ما يغشى القلب من الفترات والغفلات عن الذكر[٢].

وهو بالنسبة للنبي ﷺ يختلف عنه بالنسبة لعموم الناس؛ فإن مقام النبوة رفيع، وشأنها عظيم، وما تتطلَّبه من كمال الحضور والصفاء والتجرُّد، شيء يعز على الناس إدراكه وفهمه، وإنما يختار له الله تعالى الصفوة من عباده: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٧].

والاستغفار التام الموجِب للمغفرة، هو ما قارن عدم الإصرار، كما مدح الله تعالى أهله، ووعدهم بالمغفرة.

قال أحد السلف: «مَن لم يكن ثمرةُ استغفاره تصحيحَ توبته، فهو كاذب في استغفاره». وفي ذلك يقول بعضهم:

أستَغفِرُ اللهَ مِن (أَستَغفِرُ اللهَ) ... مِن لَفَظةٍ بَدَرَت خالَفْتُ مَعناها
وَكَيفَ أَرجُو إِجابَاتِ الدُّعَاءِ وَقَد ... سَدَدْتُ بِالذَّنبِ عِندَ اللهِ مجَراها[٣]

فأفضل الاستغفار ما قُرن به ترك الإصرار، وهو حينئذ يؤمِّل توبة نصوحًا، وإن قال بلسانه: «استغفر الله» وهو غير مقلع بقلبه؛ فهو داع لله بالمغفرة، كما يقول: «اللهمَّ اغفر لي». فقد يُرجى له الإجابة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).
(٢) ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٠٣).
(٣) ينظر: «أسباب المغفرة» (ص ٤)، و«جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤١٠).

وأفضل أنواع الاستغفار: أن يبدأ العبد بالثناء على ربه، ثم يثني بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل الله المغفرة، كما في حديث شدَّاد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**سيِّدُ الاستغفار أن تقول: اللهمَّ أنت ربي، لا إله إلا أنتَ، خلقتني وأنا عبدُك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبُوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبُوءُ لك بذنبي، فاغفرْ لي، فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت**»[١].

ومن أنواع الاستغفار: أن يقول العبدُ ما جاء في الحديث: «**مَن قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيَّ القيومَ وأتوبُ إليه. غُفر له، وإن كان قد فَرَّ من الزحف**»[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان يُعَدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم: «**ربِّ اغفرْ لي وتُبْ عليَّ، إنك أنت التَّوابُ الغفور**»[٣].

ومنه: أستغفرُ الله. ومنه: ربِّ اغفرْ لي.

وفوائد الاستغفار كثيرة؛ منها:

١- أنه سبب لمغفرة الذنوب، كما قال نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح:١٠].

٢- وسبب لنزول الأمطار: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح:١١].

٣- والإمداد بالأموال والبنين: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح:١٢].

٤- ودخول الجنات: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [نوح:١٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥١٧).

(٣) أخرجه أحمد (٤٧٢٦)، وأبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن حبان (٩٢٧).

ونعيم الدنيا بالرزق والبركة، فالجنات هنا تشمل رزق الدنيا، وجنات الآخرة، كما تشمل الخيرات التي أصلها الماء، ولذا قال: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾.

٥- وزيادة القوة بكل معانيها: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢].

ومنها القوة النفسية التي تحصل بسكينة النفس وهدوء القلب وزوال الألم المصاحب للذنب.

٦- والمتاع الحسن: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ [هود:٣].

فالحياة تطيب للصالحين المتَّقين، وتطيب للخطَّائين إذا تابوا وأنابوا واستغفروا، وعوَّضوا بعمل الخير عن الزَّلل والخَطَل.

٧- ودفع البلاء: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣].

وذلك أن الاستغفار سبب في عدم الاندفاع مع الذنوب والمعاصي، فالمستغفر مدرك لخطئه، مقرٌّ بذنبه، غير مصرٍّ عليه ولا مكابر.

٨- والاستغفار سبب لنزول الرحمة: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦].

٩- وهو كفارة للمجلس؛ فعن أبي بَرْزَةَ الأَسْلميِّ رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «**سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهدُ أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوبُ إليك**». فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، إنك لتقولُ قولًا، ما كنتَ تقوله فيما مضى؟ فقال: «**كفارةٌ لما يكونُ في المجلس**»(١).

١٠- وهو يزيل الهم والغم؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَن أكثرَ من الاستغفار، جعل اللهُ له من كل همٍّ فرجًا، ومن كل ضيق**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٥٩). وله شواهد من غير واحد من الصحابة.

مخرجًا، ورزقه من حيثُ لا يحتسب»[١].

قال ابن القيم رحمه الله: «وأما تأثير الاستغفار في دفع الهم والغم والضيق؛ فمما اشترك في العلم به أهل الملل وعقلاء كل أمة، أنَّ المعاصي والفساد تُوجِب الهمَّ والغمَّ، والخوف والحزن، وضيق الصدر، وأمراض القلب، حتى إنَّ أهلها إذا قضوا منها أوطارهم وسئمتها نفوسُهم، ارتكبوها دفعًا لما يجدونه في صدورهم من الضيق والهم والغم، كما قال شيخ الفسوق:

وَكَأسٍ شَرِبتُ عَلى لَذَّةٍ وَأُخرى تَداوَيتُ مِنها بِها[٢]

وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب، فلا دواء لها إلا التوبة والاستغفار»[٣].

ولعل ابن القيم يشير هنا إلى «الإدمان» الذي يصاحب تعاطي الخمور والمسكرات والمخدرات، كما يصاحب الكثير من العادات السيئة، كالعلاقات المحرَّمة، والمشاهدات الإباحية، والسماع وسواها.

وهذا يتطلَّب استغفارًا كثيرًا، ومعالجةً صادقةً، وإشغالًا للنفس بالأعمال النافعة، وصحبةً تُعين على الخير، ومراجعةً للعيادات المتخصِّصة والخبراء العارفين؛ لأن الإدمان بذاته دافع للفعل، حتى ولو لم يجد الإنسان لذة أو قوة؛ فقد يبدأ متلذِّذًا مستمتعًا، ثم يتحول الأمر إلى إلحاح نفسي أو جسدي، يدفع للممارسة من دون لذة، نسأل الله العافية.

ويُروى عن لقمان عليه السلام أنَّه قال لابنه: «يا بنيَّ، عوِّد لسانك: اللهمَّ اغفر لي.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٨)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٢٩٠)، والحاكم (٤/ ٢٦٢).

(٢) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص٣٤).

(٣) ينظر: «زاد المعاد» (٤/ ١٨٥).

فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلًا»[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «طُوبى لِمَن وُجد في صحيفته استغفار كثير»[٢].

وقال أبو المنهال: «ما جاور عبدٌ في قبره من جارٍ، أحب من الاستغفار»[٣].

وقال قتادة: «إن هذا القرآن يدلُّكم على دائكم ودوائكم، فأما دواؤكم: فالذنوب، وأما دوائكم: فالاستغفار»[٤].

وقال الحسن: «أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقاتكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم؛ فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة»[٥].

اللهم إنا ظلمنا أنفسنا ظلمًا كثيرًا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لنا مغفرة من عندك، وارحمنا؛ إنك أنت الغفور الرحيم.



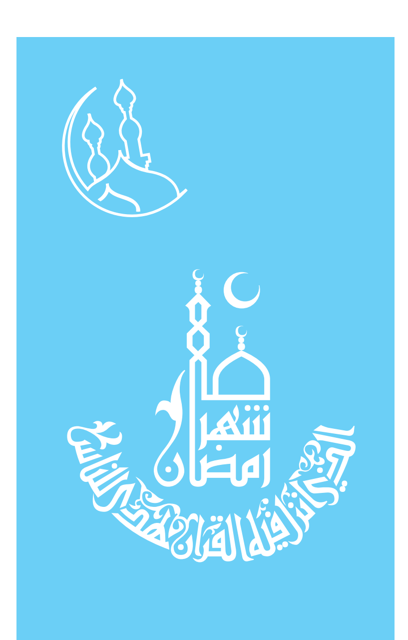
(١) ينظر: «شعب الإيمان» (١١٢٠)، و«لطائف المعارف» (ص ٢١٤).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٤٦)، ونحوه عند أبي الدرداء رضي الله عنه: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٤٤٦، ٣٥٠٧٦)، ورُوي مرفوعًا.

(٣) ينظر: «الزهد لأحمد» (ص ٥٤٨).

(٤) ينظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٩٤).

(٥) ينظر: «الوابل الصيب» (ص ١٦١)، و«جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٩٤)، و«رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص١٩١).



23

الفصل الثالث والعشرون

شقائق الرجال

«النِّساءُ شَقَائِقُ الرِّجالِ»

شَقائِقُ الرِّجال

عن عائشة رضي الله عنها، أن النبيَّ ﷺ قال: «**النساءُ شَقَائِقُ الرجال**»[1].

وهذا حديث صحيح عظيم، وهو أصل في مساواة النساء بالرجال في أصول الأحكام، فما ثبت للرجال ثبت للنساء، وهو مُطَّرد في جُلِّ الأحكام، إلا ما خصَّه الدليل، فيجب عليهنَّ الصوم، ويستحب لهنَّ الإكثار من التلاوة، والإنفاق في سبيل الله، وقيام الليل، والاجتهاد في الدعاء، وغير ذلك من القربات والطاعات.

لقد جاء القرآن الكريم بذكر النساء في سورة كاملة طويلة، وسمِّيت بعض سور القرآن باسم امرأة، كما في سورة: «مريم»، وخصِّصت سور «التحريم»، و«الطلاق» للحديث عن النساء وأحكامهن، وفي سورة «النور» و«الأحزاب» حديث مفصَّل عن أحكام النساء والحجاب والزواج، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦١٩٥)، وأبو داود (٢٣٦)، والترمذي (١١٣).

وقد جاء في سبب نزولها ما رواه الترمذي عن أمِّ عُمارةَ الأنصارية رضي الله عنها، أنها أَتَتِ النبيَّ ﷺ، فقالت: ما أَرَى كلَّ شيء إلاَّ للرجال، وما أَرَى النساءَ يُذْكَرْنَ بشيء!؟ فنزلت هذه الآية[1].

بيد أن ثمة أمورًا تهم المرأة في رمضان، منها:

أولًا: أن الحائض والنفساء لا تصلِّي ولا تصوم في رمضان، ولكنها تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة، كما ثبت في حديث عائشةَ رضي الله عنها قالت: «كان يصيبنا ذلك، فنُؤمرُ بقضاء الصوم، ولا نُؤمرُ بقضاء الصلاة»[2].

ثانيًا: بعض النساء يستعملن حبوب منع العادة الشهرية في رمضان؛ حرصًا منهن على الخير من صيام وصلاة مع المسلمين، أو العمرة، وهي تسبِّب العديد من الأضرار، إذا لم تستخدم بإشراف طبي.

لكن إن أخذت المرأة هذه الحبوب، فلتعلم أنه لا يجب عليها قضاء الأيام التي توقفت فيها العادة عنها، بل صومها صحيح.

ثالثًا: صلاة المرأة في بيتها أفضل، وكثير من النساء يَرْتَدْنَ المساجد لصلاة التراويح، وهذا لا بأس به، فقد لا تجيد تلاوة القرآن، أو تكون الجماعة أنشط لها.

لكن على المرأة إن خرجت، أن تراعي أن يكون خروجها على تستر، غير متبرجة بزينة ولا متطيِّبة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أيُّما

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده» (٢٢٠٢)، والترمذي (٣٢١١)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٤٠٠)، والطبراني (٢٥/ ٣١-٣٢) (٥١- ٥٣)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (١١/ ٢٨٥) (٣٢٠). وأخرج سعيد بن منصور في «تفسيره» (٦٢٤)، وإسحاق ابن راهويه في «مسنده» (١٨٧٠، ١٨٧١)، والترمذي (٣٠٢٢)، والحاكم (٢/ ٤١٦) نحوه من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وقد اختلف في وصله وإرساله.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢١)، ومسلم (٣٣٥).

امرأةٌ أَصابت بَخورًا، فلا تشهد معنا العشاء الآخرة»[١].

قال ابن حجر: «ويلحق بالطِّيب ما في معناه؛ لأنَّ سبب المنع منه ما فيه من تحريك داعية الشهوة، كحسن الملبس، والحلي الذي يظهر، والزينة الفاخرة، وكذا الاختلاط بالرجال»[٢].

وأن يكون الخروج بإذن الزوج.

وبعض النساء إذا خرجت إلى المسجد انشغلت وغفلت عن أطفالها، مما يعرضهم للخطر من حوادث أو ضياع أو اختطاف، فمن الخطأ انشغال الأم بنافلة وتركها واجبًا من رعاية أبنائها، والمحافظة على أخلاقهم وأرواحهم، كما هو الحال مع أبيهم.

رابعًا: ينبغي أن تحذر المرأة خاصة في رمضان من الغيبة؛ فإنها داء متفشٍّ ومرض عُضال، وهي ذنب عظيم وإثم كبير، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢].

خامسًا: المحافظة على الوقت في رمضان، فالوقت هو رأس مال العبد مع ربه، وهو كنز يملكه كل الناس، غنيهم وفقيرهم، شريفهم ووضيعهم؛ لكنَّ السعيد مَن تفطَّن له.

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقول النبي ﷺ: «**لا تزولُ قدما عبد يومَ القيامة، حتى يُسأَلَ عن عمره فيما أَفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله، من أَين اكتسبه وفيما أَنفقه، وعن جسمه**

(١) أخرجه مسلم (٤٤٤).
(٢) ينظر: «فتح الباري» (٢/ ٣٤٩).

فيما أَبلاه»[1].

والمسلمة التقية هي التي تنتهز الفرص، وتجعل من رمضان شهر عبادة وخير وبركة على نفسها ومَن حولها، فهي راعية في بيتها ومسؤولة عن رعيتها.

ولعل المطبخ أكثر ما يلتهم وقت الصائمة، ولو احتسبت المرأة ما تقوم به، واستغلت وقتها في مطبخها؛ لكان غنيمة باردة، وذلك بأن تُشغل لسانها بالذكر والتسبيح والاستغفار، خاصة قبل المغرب، أو تسمع وتتابع البرامج المفيدة أثناء إعداد الطعام.

ولتحذر المسلمة من الإفراط في الطعام، وكأن شهر رمضان شهر أكل وشرب وليس شهرًا للصيام؛ ومن الناس مَن تصيبه التخمة في رمضان، وتتفاقم الأمراض عنده لكثرة الطعام والشراب.

وفي الحديث عن المقدام بن مَعْدِ يكَرِبَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شرًّا من بطن، حَسْبِ ابنِ آدمَ أكلاتٌ يُقمن صُلْبه، فإن كان لا محالَةَ، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفسه**»[2].

سادسًا: بعض النساء قد تصوم رمضان ولا تصلِّي، أو لا تصلِّي إلا في رمضان، والله جل وعلا يقول عن الصلاة: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١١]، فالصلاة ركن الإسلام وعمود الدين، ولا يفرِّط فيها إلا مَن سفه نفسه، وخسر حظه.

---

(١) أخرجه الدارمي (٥٣٧)، والترمذي (٢٤١٧)، وأبو يعلى (٧٤٣٤) من حديث أبي بَرْزَة الأَسْلَمي رضي الله عنه.
وأخرجه الترمذي (٢٤١٦)، وأبو يعلى (٥٢٧١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٨٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٨٦)، والترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وابن حبان (٦٧٤، ٥٢٣٦).

وبعض الفتيات تنام عن صلاة الفجر حتى تطلع الشمس، أو تنام عن الظهر حتى يدخل وقت العصر، فهي تحافظ على الصيام، وتضيِّع الصلاة، والله عزوجل يقول: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

والمرأة ألين قلبًا، وأرق عاطفة، وأقرب رحمًا، كما قال سبحانه: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ [الكهف:٨١]. وقد أبدلهما من الغلام جارية[١].

فعلى الأسرة المسلمة أن تقدِّر قدر الأنثى؛ مولودة، وبنتًا، وأختًا، وأمًّا، وزوجة؛ فهي سر من أسرار الرحمة، وباب من أبواب الرزق، وسبب من أسباب السعادة، وليس يصلح أن تكون الحياة صدامًا ولا صراعًا بين الجنسين، بل يجب أن يكون التكامل والتعاون والتواصل هو أساس العلاقة.

وقد أصبحت وسائل الإعلام العالمية والمحلية تتناقل قصصًا وأخبارًا مفزعة عمَّا يسمى بـ(العنف الأسري)، والذي تكون ضحيته في الغالب هي الأنثى، بما جُبلت عليه من ليونة ورِقَّة وضعف، فتتعرَّض للحرمان من حقوقها وعضلها ومنعها من الزواج، تحكُّمًا أو طمعًا في راتبها، أو بسبب الخلاف بين الأولياء، ويُفرض عليها الصمت، فلو تكلَّمت أو رفعت أمرها لجهة رسمية، لعدُّوا ذلك فضيحة وعارًا، فالكلام في حقها مصيبة والصمت مصيبة، وهي معاناة صامتة تذهب ضحيتها أعمار الكثير من الفتيات الصالحات.

والعدوان على الطفولة أيضًا بالانتهاك أو الضرب أو القيد والسجن، أو التوبيخ والتعنيف الدائم، أو الحرمان من حق التعليم واللهو المباح، بسبب الاختلاف بين الأبوين أو الانفصال، وقد تعيش الطفلة بعيدًا عن أمها، وتتولَّاها

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢١١١٩)، و«صحيح البخاري» (٤٧٢٦).

امرأة لا تخاف الله، فتؤذيها وتنسى أن الله بالمرصاد، ينتقم من أولئك المعتدين، وينتصر للضعفة الذين لا ناصر لهم سواه.

ورُبَّ دمعة طفل وقعت بموقع، وكانت سببًا في عقوبة خاصة أو عامة لمَن باشر الذنب أو علم به وسكت، فإن هذا من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي الحديث: «**ابْغُوني ضعفاءَكُم**[(١)]**؛ فإنَّما تُرزَقونَ وتُنصَرونَ بضعفائكم**»[(٢)].

فالنصر والرزق مرتبط بالضعفاء من أطفال أو غرباء أو مساكين أو فقراء، والعدوان عليهم سبب لتدمير المجتمع وعقوبته.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اللهمَّ إنِّي أُحَرِّجُ حقَّ الضَّعيفين: اليتيمِ والمرأةِ[(٣)]»[(٤)].

وقد جاء في مدح عمرو بن العاص ﵁ للروم أنهم أرحم الناس لمسكين ويتيم وضعيف[(٥)].

ولا زلنا نجد في العالم المؤسسات الاجتماعية الراسخة والمعنية بحقوق الضعفاء، وجدير ببلاد المسلمين أن تفعِّل هذا الجانب، وتنشئ المؤسسات الحقيقية المؤثِّرة ذات الصلاحية في حماية الأطفال والنساء والغرباء والمعاقين

---

(١) أي: اطلبوا لي، وأعينوني على طلبهم.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٣١)، وأبو داود (٢٥٩٤)، والترمذي (١٧٠٢)، وابن حبان (٤٧٦٧)، والحاكم (٢/ ١٠٦، ١٤٥) من حديث أبي الدرداء ﵁. وأخرج البخاري (٢٨٩٦) نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص ﵁. وينظر: «فتح الباري» (٦/ ٨٨).

(٣) أي: ألحق الحرج- وهو الإثم- بمَن ضيَّعه.

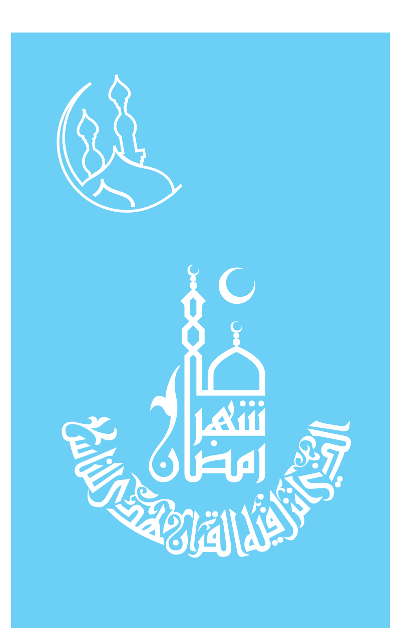
(٤) أخرجه أحمد (٩٦٦٦)، وابن ماجه (٣٦٧٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٤٩)، والحاكم (١/ ٦٣).

(٥) ينظر: «مسند أحمد» (١٨٠٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٨٩٨).

ونحوهم من العدوان والانتهاك والظلم، سواء أتى من الأقارب أو الأباعد، وسواء تمثَّل في تحرُّش أو سلب مال، أو حرمان من حق، أو عنف معنوي.

أصلح الله شباب المسلمين وفتياتهم، وأجمعهم على عمل الخير وخير العمل.





24

الفصل الرابع والعشرون

العمرة في رمضان

«العمرةُ إلى العمرةِ كفارةٌ لما بينهما، والحجُّ المَبْرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنةُ»



العمرة في رمضان

أشواقُنا نحو الحـجـازِ تطلَّـعـتْ　　كحنينِ مغتربٍ إلى الأوطانِ

إن الطيورَ وإن قَصَصْتَ جناحَها　　تسمُو بفطـرتِهـا إلى الطَّيرانِ[(١)]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**العمرةُ إلى العمرة، كفارةٌ لما بينهما، والحجُّ المبرورُ، ليس له جزاءٌ إلا الجنة**»[(٢)].

وهذا الفضل العظيم للعمرة عامٌّ في كل حين، وأما في رمضان، فإن فضلها يتضاعف؛ حتى قال علماء الأحناف بندبها في هذا الشهر خاصة؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ لامرأة من الأنصار: «**ما منعك أن تحجِّي معنا؟**». قالت: كان لنا ناضِحٌ، فركبه أبو فلان وابنه -لزوجها وابنها- وترك ناضحًا ننضح عليه. قال: «**فإذا كان رمضانُ اعتمري فيه؛ فإن عمرةً في رمضان حجةٌ**». وفي رواية: «**فإن عمرةً في رمضان تقضي حجة معي**»[(٣)].

ويا له من فوز أن تكون كمَن حج مع رسول الله ﷺ، فوقف معه بعرفة، وبات معه بمزدلفة، وأفاض بصحبته إلى منى، وطاف بجواره وسعى، كما هو

---

(١) ينظر: «ديوان محمد إقبال» (ص٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٨٢، ١٨٦٣)، ومسلم (١٢٥٦).

المفهوم من ظاهر الحديث.

وإن مما يثلج الصدر أن نرى إقبال المسلمين على العمرة في هذا الشهر الفاضل من بلاد العالم كافة، حتى ليكون المشهد لرائيه مباشرة أو عبر الشاشة عِبرة ومظهرًا من مظاهر الاجتماع على الخير، والعِزَّة لهذا الدين، وسعة انتشاره ولو بُعث صاحب الرسالة ﷺ، فرأى هذه الجموع الغفيرة تَؤُمَّ البيتَ، وتصلِّي خلف إمام واحد، تقوم وتركع وتسجد وتقعد وراءه؛ لسرَّه ذلك، فحمدًا لله على ذلك وشكرًا.

وثمَّ وقفات يحسن ذكرها:

١-حكم العمرة، وهل هي واجبة؟

والقول بعدم الوجوب هو مذهب مالك وأبي حنيفة، ورواية عن أحمد، والشافعي، وكأنه المذهب القديم له.

والظاهر -والله أعلم- أن هذا هو الراجح؛ وذلك لأن القرآن الكريم نصَّ على وجوب الحج، ولم يذكر العمرة.

وكذلك الرسول ﷺ ذكر وجوب الحج، وأكَّده كما في حديث: «**أيها الناسُ، قد فرض اللهُ عليكم الحجَّ، فحجُّوا**»[(١)].

وحديث: «**بُني الإسلامُ على خمس..**»[(٢)]. ولم يذكر العمرة.

أما الأحاديث الواردة في العمرة، فهي قسمان:

أحاديث وردت في وجوب العمرة، وأحاديث وردت في عدم وجوب العمرة، وكلها لا تخلو من مقال.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

وأمثل ما ورد في هذا الباب، ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، على النساء جهاد؟ قال: «**نعم، عليهنَّ جهادٌ لا قتالَ فيه، الحجُّ والعمرةُ**»[١].

وهذا الحديث -وإن كان ظاهر سنده أنه جيد- إلا أن لفظه الآخر عن عائشة رضي الله عنها في «صحيح البخاري» ليس فيه ذكر العمرة، وهو مشهور، قالت: يا رسولَ الله، نرى الجهادَ أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: «**لكُنَّ** -وفي رواية: **لَكِنَّ**- **أفضل الجهاد حجٌّ مبرورٌ**»[٢]. ولم يذكر فيه العمرة.

وهذا يعكِّر على لفظ العمرة، فلعل زيادة العمرة في الحديث من قبيل الشاذ أو المعلول[٣].

فالأحاديث الواردة في إيجاب العمرة أو في عدم إيجابها ضعيفة، فيرجع الأمر إلى البراءة الأصلية؛ إذ الأصل براءة الذمة من إيجاب العمرة، ثم إن أعمال العمرة ليس فيها زيادة على ما في الحج، ففيها الطواف والسعي والحلق أو التقصير، وهذه هي أعمال الحج، ولذلك جاء في الحديث: «**دخلت العمرة في الحج**»[٤].

وعليه: فالعمرة سنة، وليست واجبة[٥].

٢- بعض المعتمرين يهملون أهليهم الذين استرعاهم الله إياهم، فقد يسافر الأب والأم إلى مكة للعمرة، ويتركان الأولاد في البلد دون رقيب، وقد يكونون من الصغار الذين لا يدركون، أو من المراهقين الذين يخشى أن ينـزلقوا في

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٣٢٢)، وابن ماجه (٢٩٠١)، وابن خزيمة (٣٠٧٤).
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٢٠)، و«فتح الباري» (٢/ ٣٨٢).
(٣) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (٤/ ١٨).
(٤) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٥) ينظر: «بداية المجتهد» (١/ ٤٠٢)، و«المجموع» (٧/ ٨)، و«المغني» (٤/ ٣٠٩)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٤/ ١٧-٢٤).



مهاوي الخطأ بسبب استفزاز شياطين الجن والإنس لهم، وكفى بالمرء إثمًا أن يضيِّع مَن يعول!

وقد يحدث الخطأ بصورة أخرى، وهي أن بعض الناس يسافرون بأهليهم إلى مكة، ثم يعتكف الأب في الحرم، أو يقضي غالب وقته فيه، ويغفل تمامًا عن مراقبة أبنائه وبناته، أو مشاركتهم والقرب منهم، مما ينتج عنه انفصالهم وانشغالهم بما لا يتفق وحرمة المكان وشرف الزمان.

حقًّا.. إن اصطحاب الأبناء إلى البلد الحرام فرصة جميلة للتربية والإعداد والتواصل مع البنات والأولاد، وربطهم بتاريخ الإسلام، وشعوب المسلمين، وهذا يتطلَّب إحساسًا بالمسؤولية، وإدراكًا لأهمية التنشئة، وبذل الوقت والجهد والعاطفة لها.

والبعض من أئمة المساجد، ومن المصلحين، ومن سائر الموظفين الذين تتوقَّف مصالح الناس على وجودهم في مواقعهم وحضورهم لخدمة المستفيدين، يتركون ثغورهم، ويَؤُمُّون مكة ليعتمروا ويقضوا العشر الأواخر فيها، والواجب أن يرابط هؤلاء على ثغورهم العظيمة، ففيها من المصالح المتعدِّية ما هو أكثر عائدة وفائدة وأجرًا لـمَن احتسب وفهم مقاصد الشريعة وقواعد أحكامها.

وكثير من الأئمة يتركون مساجدهم أوقاتًا طويلة، ويذهبون للعمرة والاعتكاف، والناس بأَمَسِّ الحاجة إليهم، خاصة في هذا الشهر؛ لصلاة التراويح والقيام والعناية بشؤون المسجد في شهر رمضان، فهو موسم جوهري عظيم، ويمكن للإمام أن يذهب وقتًا قصيرًا، إذا وجد مَن يخلفه ويقوم مقامه، وابدأ بنفسك ثم مَن تعول.

٣- أما عن تكرار العمرة في السفر الواحد، فلم يُنقل عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه ذلك، إلا ما كان من أمر عائشة رضي الله عنها؛ فإنها أحرمت بحجٍّ وعمرة في نسكها، ثم لم يطب خاطرها حتى قالت: يا رسولَ الله، يرجع الناسُ بحجة وعمرة، وأرجع بحجة! وكان النبيُّ ﷺ رجلًا سهلًا، إذا هويت الشيء تابعها عليه، فقال لعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما: «**اذهب بها؛ فأعمرها من التَّنْعِيم**». فخرجت عائشةُ رضي الله عنها واعتمرت[١]. فتكون عائشة رضي الله عنها حينئذٍ أحرمت بعمرتين في سفر واحد، وهذا دليل على جواز إحداث أكثر من عمرة في سفر واحد، ولو لم يكن جائزًا، لم يكن النبي ﷺ ليطيع عائشة، ولا ليجاملها في أمره.

وقد نص بعض السلف على أن بقاءه في مكة وطوافه بالبيت وصلاته فيه، أفضل من عمرته[٢].

وعليه: فتكرار العمرة في السفر الواحد غير مستحب، ولكن لا تثريب على مَن فعله، وبخاصة مَن يأتي من مكان بعيد، ويريد أن يعتمر عن والديه المتوفين ونحو ذلك، فلا حرج وإن تقارب زمن العمرة.

أما تكرار العمرة في أسفار متعددة، فلا حرج فيه، ولو كانت متقاربة[٣].

٤- أما صفة العمرة: فهي الإحرام من الميقات، ثم الطواف بالبيت سبعة أشواط، ثم السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم الحلق أو التقصير،

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٥٦، ١٧٨٤، ١٧٨٥)، و«صحيح مسلم» (١٢١١-١٢١٣).

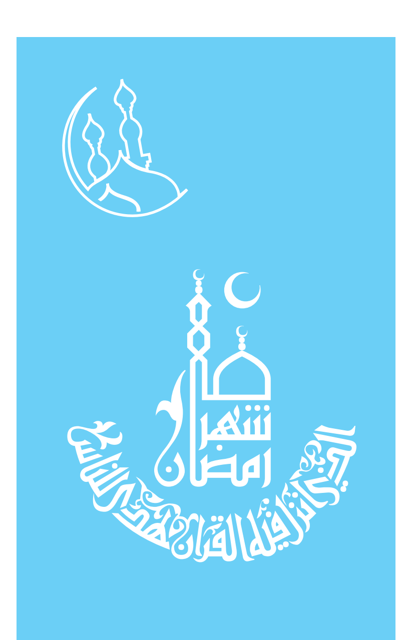
(٢) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣/ ٥٧٢).

(٣) ينظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٨/ ٨٧)، و«سبل السلام» (١/ ٥٩٩)، و«حاشية ابن عابدين» (٢/ ٥٨٥)، و«مواهب الجليل» (٣/ ٤١٦)، و«المجموع» (٧/ ١٤٩).

والحلق أفضل، وعند السفر يستحب له طواف الوداع إذا طال مكثه في مكة.

وجدير بالمؤمن أن يتفقَّد قلبه عقب كل عبادة؛ ليرى أثرها على نفسه، مع استحضار سعة رحمة الله وعظيم فضله، وجزيل عطائه، ورحمة الله قريب من المحسنين.





25

الفصل الخامس والعشرون

شهر الحلم

قال ﷺ لأَشَجِّ عبد القَيْسِ:

«إنَّ فيكَ خَصْلَتين يحبُّهما اللهُ: الحِلْمُ والأَناةُ»



شهر الحِلم

في رمضان تتجلَّى آثار العبادة على الصائم، من خُلُق حسن، وبرٍّ، وتواضع، وإحسان، ولين، ورحمة، فـ«**الراحمون يرحمهم الرحمن**».

ومن أفضل ما يتحلَّى به الصائم في رمضان وغيره: خُلُق الحلم، الذي يسعف في كثير من المواقف، خاصة في هذا العصر الذي تتلاحق فيه الأحداث، وتتكاثر الفتن، وتتزايد الضغوط على الناس في سبيل ملاحقة الجديد، وإشباع التطلُّعات، وتحقيق المستوى الذي يطمح إليه الإنسان؛ فإنه كلما اتسعت الفرص، زاد العبء على الناس في تحصيلها والتنافس فيها، ولذا جدَّت أمراض لم تكن تُعرف من قبل؛ كارتفاع الضغط وانخفاضه، وأمراض القولون والسكر وسواها، وتضاعفت الإصابة ببعضها عمَّا كان موجودًا معروفًا.

وأصل مادة الحِلْم اللغوية تدل على ترك العجلة في كل شيء[(١)].

والحلم هو الطُّمأنينة عند سَوْرة الغضب[(٢)]، وتأخير مكافأة الظالم على ظلمه، وإذا كان الغضب هو غليان دم القلب للانتقام؛ فالحِلْم على الضد من ذلك، ففيه معنى احتمال الأذى من الأدنى، وضبط النفس، والأَنَاة والتعقُّل.

والحِلم خلق يتوسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس، والانحراف

---

(١) ينظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (١/ ٢٤٦)، و«لسان العرب» (١١/ ١٧٦).

(٢) أي: حِدته وثورانه.

عنه، وعدم التخلُّق به ينجرف بصاحبه إلى أحد خُلُقين: إما إلى طيش ونزق وحِدَّة وخِفَّة، وإما إلى ذُلٍّ ومهانة وحقارة(١).

والعدل والوسط هو من سمات هذه الأمة، فبعض الحلم إذعان، كما أن استعماله في بعض الحالات لُبُّ العقل.

لَئِن كُنتُ مُحتاجًا إِلى الحِلمِ إِنَّني
إِلى الجَهلِ في بَعضِ الأَحايينِ أَحوَجُ

وَلي فَرَسٌ لِلحِلمِ بِالحِلمِ مُلجَمٌ
وَلي فَرَسٌ لِلجَهلِ بِالجَهلِ مُسرَجُ

فَمَن شاءَ تَقويمي فَإِنّي مُقَوَّمٌ
وَمَن شاءَ تَعويجي فَإِنّي مُعَوَّجُ

وَما كُنتُ أَرضى الجَهلَ خِدْنًا وَصاحِبًا
وَلَكِنَّني أَرضى بِهِ حينَ أُحرَجُ

ألا ربما ضاقَ الفضاءُ بأهلِهِ
وأمكنَ من بين الأسنةِ مخرجُ

فَإِن قالَ قَومٌ: إِنَّ فيهِ سَماجَةً
فَقَد صَدَقوا وَالذُّلُّ بِالحُرِّ أَسمَجُ(٢)

---

(١) ينظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٧٨)، و«رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص٢٧، ١٨٣، ٢٦٩).

(٢) نسب إلى علي رضي الله عنه. ينظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٦/ ٦٠)، ونُسب إلى محمد ابن حازم الباهلي، كما في «ديوانه» (ص٢٣)، ونُسب إلى صالح بن جناح اللخمي، كما في «نقد الشعر» (ص٢٤).

والناس مجبولون على الغضب والحِلْم معًا، فمَن غضب وحلم في نفس الغضب، فإن ذلك ليس بمذموم، ما لم يخرجه غضبه إلى المكروه من القول والفعل، على أن مفارقته في الأحوال كلها أحمد.

وقيل: إذا لم يغضب الرجل لم يَحْلُم؛ لأن الحليم لا يُعرف إلا عند الغضب.

وما أحسن توطين النفس على لزوم الـحِلم والعفو عن الناس كافة، وترك الخروج لمجازاة الإساءة؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشد من الاستعمال لمثلها.

وأغنى الناس عن الحقد مَن عَظُم عن المجازاة، وأجلُّ الناس مرتبة مَن صدَّ الجهل بالحِلم، وما الفضل إلا لَمن يحسن إلى مَن أساء إليه، فأما مجازاة الإحسان إحسانًا، فهو المساواة في الأخلاق.

فالمسلم يلزم الحِلم عن الناس كافة، فإن صعُب ذلك عليه فليتحالم؛ لأنه يرتقي به إلى درجة الحِلم، وأول الحِلْم: المعرفة، ثم التثبُّت، ثم العزم، ثم التصبُّر، ثم الصبر، ثم الرضا، ثم الصمت والإغضاء.

وما الفضل إلا للمحسن إلى المسيء، فأما مَن أحسن إلى المحسن وحلم عمَّن لم يؤذه، فليس ذلك بحلِم ولا إحسان. ولذا جاء في الحديث: «**ليسَ الواصِلُ بالمُكافئ، ولكنِ الواصِلُ الذي إذا قَطعَتْ رَحِمُهُ وصلها**»[١].

وثَمَّةَ فرقٌ بين حِلم الذُّلِّ والعجز والمهانة، وبين حِلم الاقتدار والعزَّة والشرف..

كُلُّ حِلمٍ أَتى بِغَيرِ اِقتِدارٍ   حُجَّةٌ لاجِئٌ إِلَيها اللِئامُ[٢]

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩١).

(٢) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص١٢٧).

والحِلم كغيره من الأخلاق، إما يُجبل عليه الإنسان، أو يتخلَّق به، حتى يصير مَلَكة وسَجِيَّة.

ففي «صحيح مسلم» أن النبيَّ ﷺ قال لأَشَجِّ عبد القَيْسِ: «**إن فيك خَصلتين يحبهما الله: الحِلم، والأَنَاة**».

وفي رواية لأبي داود: قال: يا رسولَ الله، أَنا أَتَخَلَّقُ بهما، أَم الله جبلني عليهما؟ قال: «**بل الله جبلك عليهما**». قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبُّهُمَا الله ورسوله[1].

وفي الأثر: «إنما العلم بالتعلُّم، و إنما الـحِلم بالتحلُّم، ومَن يتحرَّ الخيرَ يُعْطَهُ، ومَن يتَّق الشرَّ يُوقَهْ». والراجح أنه من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه، ولا يصح مرفوعًا[2].

وقال الأحنف بن قيس رحمه الله: «إنِّي لستُ بحلِيم، ولكنني أتحالم»[3].

ومن أسمائه سبحانه: «الحليم»؛ يرى معصية عباده ومخالفتهم لأمره، ثم يمهلهم، ولا يسارع في عقوبتهم، مع اقتداره واستحقاقهم لها: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٧)، و«سنن أبي داود» (٥٢٢٥).

(٢) أخرجه من قول أبي الدرداء رضي الله عنه: أبو خيثمة زهير بن حرب في «العلم» (١١٤)، وهنَّاد في «الزهد» (١٢٩٤)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٢١٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٧٣٩)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٦١٧، ٩٠٣).
وأخرجه أبو خيثمة (١١٥)، ووكيع في «الزهد» (٥١٠)، وابن أبي شيبة (٢٦١٢٣)، وأحمد في «الزهد» (ص٢٠٣)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٦١٥، ٦١٦) من قول ابن مسعود رضي الله عنه.
ورُوي مرفوعًا، والموقوف أصح. ينظر: «العلل» للدارقطني (١٠/ ٣٢٦)، و«العلل المتناهية» (٩٣)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٤٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٦٢٥)، وابن أبي الدنيا في «الإشراف في منازل الأشراف» (٣٩١)، وابن المقرئ في «معجمه» (٤٥٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٥٢٧).

﴿ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل:٦١].

ومن شرف اسم الحلم وارتفاع قدره، أن الله جل وعلا تسمَّى به: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٥]. ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٣]، ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [النساء:١٢].

ثم لم يسمِّ بالحلِم في كتابه أحدًا، إلا إبراهيم خليله وابنه الذبيح عليهما السلام، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤]، وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١].

ومَن تأمَّل سيرةَ النبي ﷺ العطرة النيِّرة، أدرك أنه سيد أهل الحِلم والفضل والوقار؛ فهو الذي قال: «**ليس الشَّديد بالصُّرَعة، إنما الشَّديدُ الذي يملك نفسه عند الغضب**»[١].

وكانوا يعتقدون أن القوي الفاضل هو القوي الذي لا يصرعه الرجال؛ بل يصرعهم، وليس هو كذلك شرعًا؛ بل هو مَن يملك نفسه عند الغضب، فهذا هو الممدُوح الذي قلَّ مَن يقدر على التخلُّق بخُلُقه، ومشاركته في فضيلته.

وعندما جاءه رجل وقال له: أَوصني. قال: «**لا تغضب**». فردَّد مرارًا، قال «**لا تغضب**»[٢].

وهذه الكلمة من جوامع كلمه ﷺ، وهي أصل في التربية على حسن الخلق، وضبط النفس، وتقييد هواها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلًا أتى النبيَّ ﷺ يتقاضاه، فأغلظ، فهَمَّ به

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٦).

أصحابُه، فقال رسولُ الله ﷺ: «**دعوه؛ فإن لصاحب الحقِّ مقالًا**». ثم قال: «**أعطوه سنًّا مثلَ سنِّه**». قالوا: يا رسولَ الله، لا نجد إلا أمثل من سنِّه؟ فقال: «**أعطوه؛ فإنَّ من خيرِكم أحسنَكم قضاءً**»(١).

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى النبيِّ ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء، ضربه قومُه فأدمَوه، وهو يمسحُ الدم عن وجهه، ويقول: «**اللهمَّ اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**»(٢).

وما أعظم خلق هذا النبي وحلمه على مَن جهل عليه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنتُ أمشي مع النبي ﷺ، وعليه بُرْدٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجذبه جذبة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثَّرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء»(٣).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أحد؟ قال: «**لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة؛ إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد يَالِيل بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أَسْتَفِقْ إلا وأنا بقَرْن الثَّعالب، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ، فناداني فقال: إن اللهَ عز وجل قد سمع قولَ قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بَعَثَ اللهُ إليك مَلَكَ الجبال، لتأمره بما شئت فيهم. فناداني مَلَكُ الجبال، وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمدُ، إن الله قد سمع قولَ قومك لك، وأنا ملكُ الجبال، وقد بعثني ربُّك إليك**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٤٧٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧/ ١٢٨).

لتأمرني، فما شئتَ، إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبين؟ فقال النبيُّ ﷺ: بل أرجو أن يخرج اللهُ من أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»[١].

وليس حلمه على قومه فقط، ففي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهطٌ من اليهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السَّامُ عليكم[٢]. قالت عائشة: ففهمتُها، فقلتُ: وعليكم السَّامُ واللعنةُ. قالت: فقال رسولُ الله ﷺ: «**مهلًا يا عائشة! إن الله يحبُّ الرفق في الأمر كله**». فقلتُ: يا رسولَ الله، أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسولُ الله ﷺ: «**قد قلتُ: وعليكم**»[٣].

ولقد تجلَّى الحِلم في أسمى صوره في الجيل الفريد الأول جيل الصحابة رضي الله عنهم، في أقوالهم وأفعالهم، وفيمَن جاء بعدهم من التابعين، **وهذه صفحة مشرقة من صفحاتهم:**

جاء رجل يسبُّ ابنَ عباس رضي الله عنهما، فقال ابنُ عباس لمولاه عكرمة: «يا عكرمةُ، هل للرجل حاجة فنقضيها؟». فنكَّس الرجلُ رأسه، واستحى مما رأى من حِلمه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقول: «إنا معشر قريش كنا نعد الجود والحلم: السؤدد؛ ونعد العفاف وإصلاح المال: المروءة»[٤].

وبلغ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه أن جماعةً من رعيته اشتكوا من عماله؛ فأمرهم أن يوافوه، فلما أتوه، قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، أيتها

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) أي: الموت.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٥).

(٤) ينظر: «المروءة» لابن المرزبان (ص ١٢٤)، و«الجوهر النفيس في سياسة الرئيس» لابن الحداد (ص ١٦١).

الرعية، إن لنا عليكم حقًّا: النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير. أيتها الرعاة، إن للرعية عليكم حقًّا، فاعلموا أنه لا شيء أحبَّ إلى الله ولا أعز من حِلم إمام ورفقه، وليس جهل أبغض إلى الله ولا أغم من جهل إمام وخرقه»[1].

وقال رضي الله عنه: «تعلَّموا العلمَ، وتعلَّموا للعلم السَّكِينةَ والحلمَ»[2].

وقال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: «ليس الخيرُ أن يكثُرَ مالُكَ وولدُكَ، ولكنِ الخيرُ أن يكثُرَ علمُكَ ويعظُمَ حِلمُكَ، وأن لا تباهي الناسَ بعبادة الله، وإذا أحسنتَ حمدت الله تعالى، وإذا أسأتَ استغفرتَ الله تعالى»[3].

وقال أيضًا: «إن أول ما عُوِّضَ الحليم من حلمه، أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل»[4].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا، حَكِيمًا حَلِيمًا سَكِينًا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا غافلًا ولا صخَّابًا ولا صيَّاحًا ولا حَدِيدًا»[5].

وقال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: «لا يبلغُ العبدُ مبلغَ الرأي، حتى يغلبَ حلمُه جهلَه، وصبرُه شهوتَه، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة الحِلم»[6].

---

(١) ينظر: «الزهد» لهنَّاد (٢/ ٦٠٢)، و«تاريخ المدينة» لابن شبة (٢/ ٧٧٤).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٢٣٠)، والآجري في «آداب حملة القرآن» (٥٢)، والدينوري في «المجالسة» (٤/ ٣٩) (١١٧٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٧٥)، (١٠/ ٣٨٨).
وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٥٨٥) من قول أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٢).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٥٨٤)، وأحمد في «الزهد» (ص ٢٩٨)، وأبو داود في «الزهد» (١٧٣)، وابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (١٥١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٢٩).

(٦) أخرجه معمر في «جامعه» (٢٠٢١٤)، وابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٣)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص ٢١٨)، واللالكائي في «شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٢٧٨٩).

وسُئل عَمرو بن الأَهْتم: أيُّ الرجال أشجعُ؟ قال: «مَن ردَّ جهلَه بحلمه».
قال فأيُّ الرجال أسخى؟ قال: «مَن بذل دنياه لصالح دينه».

وقيل لعَرَابَة بنِ أوسٍ: بم سُدتَّ قومَك يا عَرَابةُ؟ قال: «كنت أحلمُ عن جاهلهم، وأُعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم، فمَن فعل فعلي فهو مثلي، ومَن جاوزني فهو أفضل، ومَن قصر عني فأنا خير منه، ومَن زاد عليه فهو خير مني»(١).

وقال: «عليكم بالحِلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال».

وأسمعه رجلٌ كلامًا شديدًا، فقيل له: لو عاقبته. فقال: «إني أستحي أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي»(٢).

وقال طاووس رحمه الله: «ما حُمل العلمُ في مثل جرابِ حِلمٍ»(٣).

وقال وَهْبُ بن مُنبِّه رحمه الله: «الرِّفق ثَنِيُّ الحِلم».

وعن الحسن البصري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]. «حلماءُ إن جُهل عليهم لم يجهلوا»(٤).

وعن علي بن الحسين، أن رجلًا سبَّه، فرمى إليه بخَمِيصة كانت عليه، وأَمَرَ له بألف درهم؛ فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودة: الحِلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل مما يبعده عن الله عز وجل، وحمله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى المدح بعد الذمِّ، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير.

---

(١) ينظر: «الحلم» لابن أبي الدنيا (٣٩)، و«المجالسة» للدينوري (١٧٣٢).
(٢) ينظر: «الحلم» لابن أبي الدنيا (١٤).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٦٢٣)، والدارمي (٥٩٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٥٣١).
(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٤٨٣)، وابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٠).

وقال أَكْثَمُ بنُ صَيفِيٍّ رحمه الله: «دعامة العقل: الحِلم، وجماعُ الأمر: الصبرُ، وخيرُ الأمور: العفوُ»[(١)].

وقال عطاء رحمه الله: «ما أوى شيء إلى شيء، أزين من حِلمٍ إلى علمٍ»[(٢)].

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز رحمه الله: «خمسٌ إذا أخطأ القاضي منهن خُطَّةً، كانت فيه وصمة: أن يكون فهيمًا، حليمًا، عفيفًا، صَلِيبًا، عالمًا، سؤولًا عن العلم»[(٣)].

وقال أبو عَمرو بن العَلَاء رحمه الله: «كان أهلُ الجاهلية لا يسوِّدون إلا مَن كانت فيه ستُّ خصال، وتمامها في الإسلام سابعة: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والبيان، والحسب، وفي الإسلام: زيادة العفاف»[(٤)].

وقال بعضُهم: «ليس الحليم مَن ظُلم فحلم، حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم مَن ظُلم فحلم، حتى إذا قدر عفا»[(٥)].

إن رمضان مدرسة الحلم، وبعض الناس يتَّصفون بروح غضبية، فهم سريعو الثورة، بطيؤو الفَيْئَة، يرفعون أصواتهم بالصُّراخ، وينغضون أيديهم، ويردِّدون عبارات غير لائقة عندما يغضبون، وقد يفعلون هذا مع أهليهم، أو زملاء العمل، أو مرؤوسيهم، وأحيانًا بذَرِيعة الغَيرة والإنكار، والصواب أن نصرة الله ورسوله ﷺ إنما تكون باتباع السنة، والتي أساسها الأخلاق وعدم الغلط على الآخرين، وتحبيب الخير إلى نفوسهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٦)، و«العقل وفضله» (٤٨).

(٢) أخرجه الدارمي (٥٩٦)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٨٠٦).

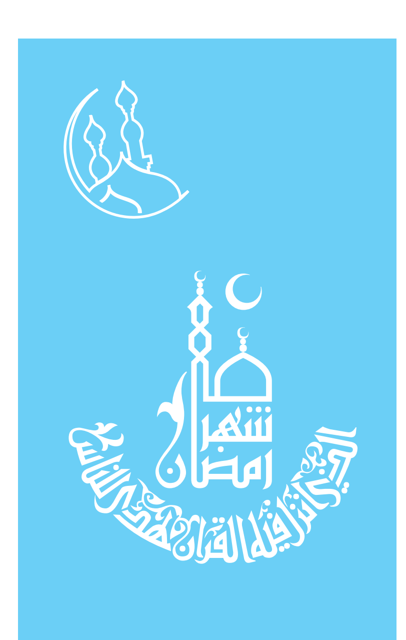
(٣) أخرجه البخاري تعليقًا، كتاب الأحكام، باب: متى يستوجب الرجل القضاء، ووصله الحافظ في «تغليق التعليق» (٥/ ٢٩٢)، وينظر: «فتح الباري» (١٣/ ١٤٩).

(٤) ينظر: «شعب الإيمان» (١٠٨٩٩).

(٥) ينظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٧٨-١٨٤).

ومن الغضب أن أخوين شقيقين يتهاجران سنين طويلة بسبب خلاف على صفقة أو مشكلة عائلية، ثم لا تنفع الشفاعة والوساطة في رَأْب الصدع وتجبير الـهُوَّة وإزالة الخلاف، فإذا لم يفعل الصوم والقرآن والذكر والقيام فعله في قمع دوافعنا الأنانية وتدمير مناعاتنا الطاغية وتهدئة نفوسنا الثائرة، فأي معنى للصيام إذًا؟!





26

الفصل السادس والعشرون

صيام التطوع

«وما زالَ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه»

صيام التطوع

جدير بالمسلم أن يكون له حظٌّ من صيامٍ قَلَّ أو كَثر:

وَصُمْ يومَك الأَدْنى لَعَلَّك في غدٍ تفوز بعيدِ الفطر والناسُ صُـوَّمُ[1]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إن اللهَ قال: مَن عادَى لي وليًّا، فقد آذَنْتُه بالحرب، وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضْتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه**»[2].

هذا حديث جليل، فيه أن مَن سعى في نوافل العبادات تقرُّبًا إلى الله، أحبَّه الله، وقرَّبه منه، ووفَّقه في سمعه وبصره، وكان الله معه، يجيبُ دعاءه، ويعيذُه مما يخاف ويحذر، وكفى بالله حسيبًا[3].

والصيام من أحب الأعمال إلى الله عز وجل؛ ففي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: «**ما من عبد يصوم يومًا في سبيل الله، إلا باعد اللهُ بذلك اليوم وجهه عن**

(١) من «ميمية ابن القيم». ينظر: «حادي الأرواح» (ص٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٣) ينظر: «نداء الريان» (١/ ٥٥٩).

النار سبعين خريفًا»[١].

فمَن صام يومًا تطوعًا، حاز الدرجات العُلى، وأحبَّه الرحمن، والاستمرار على ذلك جالب للأجر الجزيل، والتوفيق العظيم.

ومن ذلك: صيام شهر الله المحرم:

قال رسولُ الله ﷺ: «**أفضلُ الصلاة بعد المكتوبة: الصلاةُ في جوف الليل، وأفضلُ الصيام بعد شهر رمضان: شهر الله المحرم**»[٢].

وقال رسولُ الله ﷺ: «**أفضلُ الصيام بعد رمضان: الشهر الذي تَدعُونَه: المحرَّم**»[٣].

ومنه: صوم شعبان:

في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن النبيُّ ﷺ يصوم شهرًا أكثر من شعبان، فإنه كان يصوم شعبانَ كلَّه»[٤].

ومقصودها بـ «كلِّه»، أي: أكثره -والله أعلم- كما في رواية مسلم وغيره: «كان يصوم شعبان إلا قليلًا».

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قلتُ: يا رسولَ الله، لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: «**ذاك شهر يغفلُ الناسُ عنه بين رجب ورمضان، وهو شهرٌ تُرفع فيه الأعمالُ إلى ربِّ العالمينَ، فأحبُّ أن يرفع عملي وأنا صائم**»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٠)، ومسلم (١١٥٣).
(٢) أخرجه مسلم (١١٦٣).
(٣) أخرجه أحمد (٨٠٢٦)، وابن ماجه (١٧٤٢).
(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٧٠)، و«صحيح مسلم» (١١٥٦).
(٥) أخرجه أحمد (٢١٧٥٣)، والنسائي (٢٣٥٧).

ومنه: صيام ستة أيام من شوال:

فعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**مَن صام رمضان، ثم أتبعه ستًّا من شوال، كان كصيام الدهر**»(١).

ومنه: صوم عشر ذي الحِجَّة:

روى البخاري، وأبو داود، واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما من أيامٍ العملُ الصالح فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام**». يعني أيام العشر. قالوا: يا رسولَ الله، ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهادُ في سبيل الله، إلا رجلًا خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء**»(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «**صيامُ يوم عرفةَ، أحتسبُ على الله أن يكفِّر السنةَ التي قبله والسنةَ التي بعده**»(٣).

ومنه: صوم يوم عاشوراء:

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «ما رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يتحرَّى صيامَ يومٍ فضَّله على غيره، إلا هذا اليوم -أي يوم عاشوراء- وهذا الشهر، يعني رمضان»(٤).

وقال صلى الله عليه وسلم: «**صيامُ يوم عاشوراءَ، أحتسبُ على الله أن يكفِّر السنةَ التي قبله**»(٥).

ومنه: صوم أيام البيض: ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة:

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا صمتَ من الشهر ثلاثًا،**

---

(١) أخرجه مسلم (١١٦٤).
(٢) أخرجه البخاري (٩٦٩)، وأبو داود (٢٤٣٨)، والترمذي (٧٥٧)، وابن ماجه (١٧٢٧).
(٣) أخرجه مسلم (١١٦٢).
(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٠٠٦).
(٥) أخرجه مسلم (١١٦٢).

فصم: ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة»[١].

ومنه: صيام الاثنين والخميس:

فعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ سُئل عن صوم الاثنين؟ فقال: «**فيه ولدتُ، وفيه أُنزل عليَّ**»[٢].

وعن حفصة رضي الله عنها قالت: «كان رسولُ الله ﷺ يصوم الاثنين والخميس»[٣].

ومثله حديث أبي هريرة رضي الله عنه[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبيَّ ﷺ كان يتحرَّى صيام الاثنين والخميس[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس، فقيل له، فقال: «**الأعمالُ تُعرض كلَّ اثنين وخميس، فيغفرُ اللهُ لكل مسلم -أو: لكل مؤمن- إلا المتهاجرين، فيقول: أخِّروهُما**»[٦].

ومنه: صوم يوم وإفطار يوم (صوم داود عليه السلام):

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أحبُّ الصيام إلى الله صيامُ داودَ، وكان يصومُ يومًا ويفطرُ يومًا، وأحبُّ الصلاة إلى الله صلاةُ داود، وكان ينامُ نصفَ الليل، ويقومُ ثلثَه، وينامُ سدسَه**»[٧].

---

(١) أخرجه الطيالسي (٤٧٧)، وأحمد (٢١٤٣٧)، والترمذي (٧٦١)، والنسائي (٢٤٢٤)، وابن خزيمة (٢١٢٨)، وابن حبان (٣٦٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (١١٦٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٤٦١)، والنسائي (٢٣٦٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٧٤٠).

(٥) أخرجه الترمذي (٧٤٥)، والنسائي (٢٣٦٠)، وابن حبان (٣٦٤٣).

(٦) أخرجه الطيالسي (٢٥٢٥)، وأحمد (٨٣٦١).

(٧) أخرجه أحمد (٢٤٥٠٨)، والبخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

أما الأيام المنهي عن صيامها، فهي:

١- يوم الفطر، ويوم الأضحى:

فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «**لا يصلحُ الصيامُ في يومين: يومِ الأضحى، ويومِ الفطر من رمضان**»[١].

٢- إفراد يوم الجمعة:

عن محمد بن عَبَّاد بن جعفر قال: سألتُ جابرَ بنَ عبد الله رضي الله عنهما وهو يطوفُ بالبيت: نهى رسولُ الله ﷺ عن صيام يوم الجمعة؟ فقال: نعم ورب هذا البيت. وزاد في رواية: يعني أن ينفرد بصوم[٢].

٣- يوم الشك:

وهو يوم الثلاثين من شعبان، إذا لم يُرَ الهِلال وشكَّ الناسُ هل هو أول رمضان، أم تتمة شعبان، فيسمَّى: يوم الشك.

عن صِلة بن زُفَر قال: كنا عند عمار بن ياسر رضي الله عنه، فأتى بشاة مَصْلِيَّةٍ، فقال: كُلُوا. فتنحَّى بعضُ القوم، فقال: إني صائمٌ. فقال عمارٌ: «مَن صامَ يومَ الشَّكِّ، فقد عصى أبا القاسم ﷺ»[٣].

٤- صيام الدهر:

أي: مواصلة الصيام يوميًّا، فلا يفطر، ويسمَّى: صوم الدهر، وصوم الأبد.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا صامَ**

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩٧)، ومسلم (٨٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٨٤)، ومسلم (١١٤٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٣٣٤)، والترمذي (٦٨٦)، والنسائي (٢١٨٨)، وابن ماجه (١٦٤٥)، وابن حبان (٣٥٨٥)، والحاكم (١/ ٥٨٥)، والبيهقي (٤/ ٣٥٠).

مَن صامَ الأبدَ»[١].

وفي رواية: «**لا صامَ مَن صامَ الدهرَ؛ صومُ ثلاثة أيام صومُ الدهر كلِّه**»[٢].

* أما الحديث الوارد في النهي عن صوم يوم السبت، بلفظ: «**لا تصومُوا يومَ السبت، إلا فيما افْتُرِضَ عليكم، فإن لم يجد أحدُكم إلَّا عودَ عنبٍ، أو لحاءَ شجرة، فَلْيَمْضُغْها**».

فقد رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وغيرهم[٣]، وهو حديث معلول، كما صرَّح بذلك الأئمة، وقال مالك: «هذا كذب». وقال أبو داود: «منسوخ». ووصفه النسائي بالاضطراب.

ويعارضه الحديث المتفق عليه في نهي النبي ﷺ عن صيام يوم الجمعة، إلا أن يصوم يومًا قبله أو يومًا بعده[٤]. والذي بعده هو يوم السبت، والله أعلم[٥].



---

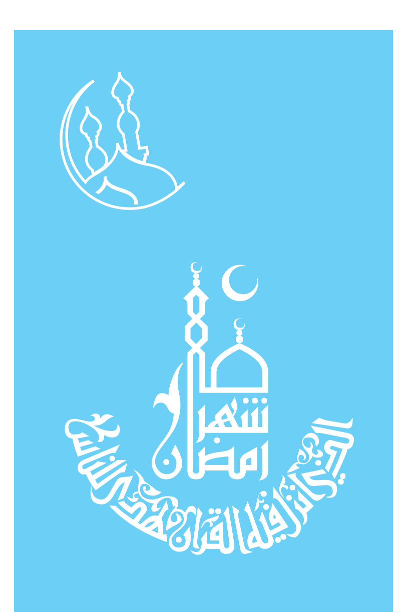
(١) أخرجه البخاري (١٩٧٧)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٧٩)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٦٨٦، ٢٧٠٧٥)، والدارمي (١٧٩٠)، وأبو داود (٢٤٢١)، والترمذي (٧٤٤)، وابن ماجه (١٧٢٦)، والنسائي في «الكبرى» (٢٧٧٢- ٢٧٨٥)، وابن خزيمة (٢١٦٣، ٢١٦٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ٨٠)، وابن حبان (٣٦١٥)، والحاكم (١/ ٣٤٥)، والبيهقي (٤/ ٣٠٢)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (٩/ ٥٨-٥٩) (٤٠-٤٢)، وغيرهم.

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٨٥)، و«صحيح مسلم» (١١٤٤).

(٥) ينظر: «سنن أبي داود» (٢٤٢٣، ٢٤٢٤)، و«ناسخ الحديث ومنسوخه» للأثرم (٦٤)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٧٥)، و«الفروع» لابن مفلح (٥/ ١٠٤-١٠٥)، و«تهذيب سنن أبي داود» (٣/ ٢٩٧-٣٠١)، و«المغني» (٣/ ٩٨-٩٩) ، و«التخليص الحبير» (٢/ ٤٦٨-٤٧٠)، و«فتح الباري» (١٠/ ٣٦٢)، و«عون المعبود» (٧/ ٤٨-٥٢)، و«إرواء الغليل» (٩٦٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٨٠، ٢٣٩٨، ٣١٠١)، و«تمام المنة» (ص٤٠٥- ٤٠٧).



27

الفصل السابع والعشرون صدقة الفطر

عن ابن عُمرَ رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فَرَض زكاةَ الفِطْرِ

صدقة الفطر

وتسمَّى: زكاة الفطر، وصدقة الفطر، وزكاة البدن، أو زكاة الرأس، أو زكاة الرقبة. فهي لا تتعلق بالمال، بل بذات الإنسان.

وسُمِّيت: **الفِطرة**؛ لأنها تـؤدَّى بعد الفطر من رمضان، أو نسبة إلى الفِطْرة، قال الله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾[1] [الروم:٣٠].

والحكمة من مشروعية زكاة الفطر:

أولًا: أنها طُهرة للصائم من اللغو والرفث؛ وذلك لأن الصائم لا يخلو أن يقع في صيامه نقص بوجه من الوجوه، ولو أن يلغو في الكلام أو يرفث، أو يقع في غيبة أو فضول كلام أو فضول نظر.

ثانيًا: أنها طُعمة للمساكين؛ لأنها تخرج في ليلة العيد ويوم العيد، وهو يوم فرح وسرور واغتباط، وتوسع في المأكل والمشرب والملبس، ففي إخراج صدقة الفطر في ذلك اليوم إشعار للمساكين والفقراء بانتمائهم للمجتمع، ومشاركتهم في سرور يوم العيد وفرحه؛ لئلا يأتي عليهم العيد وهم جياع يشعرون بالانقباض والحسرة.

---

(١) ينظر: «القاموس المحيط» (ص ٥٨٧)، و«حاشية ابن عابدين» (٣/ ٣٠٩)، و«شرح الزركشي» (١/ ٣٧٥).

ولهذا ذهب جمع من الفقهاء إلى أن صدقة الفطر تُعطى للفقراء والمساكين، ولا تصرف لغيرهم من الأصناف الثمانية، وهذا اختيار ابن تيمية وابن القيم[(١)].

ثالثًا: أن في صدقة الفطر تعويدًا لأفراد المجتمع على المشاركة والعطاء؛ ولذا كانت الصدقة متعلِّقة بالإنسان، ولو لم يكن غنيًّا، فإنه يتصدق[(٢)].

أما عن حكمها:

فقد ذكر ابن المنذر إجماع الفقهاء على وجوب صدقة الفطر، ونقل البيهقيُّ إجماع الفقهاء على وجوبها[(٣)]، وقال إسحاق بن راهويه: هو كالإجماع[(٤)].

وذلك لأدلة منها:

أولًا: قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، وقد فسَّر ابنُ عمر رضي الله عنهما هذه الآية بزكاة الفطر[(٥)].

ثانيًا: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «فرض رسولُ الله ﷺ زكاةَ الفطر، صاعًا من تمر، أو صاعًا من شعير، على العبد والحرِّ، والذكر والأنثى، والصغير والكبير، من المسلمين»[(٦)]. والفرض صريح في الإيجاب والإلزام.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٥/ ٧٢)، و«زاد المعاد» (٢/ ١٨). وسيأتي قريبًا.
(٢) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٢١٧).
(٣) ينظر: «الإجماع» (ص ٣٥)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٤/ ١٥٩)، و«حاشية ابن عابدين» (٣/ ٣١٠)، و«بداية المجتهد» (١/ ٣٤٧)، و«المجموع» (٦/ ٤٠)، و«المغني» (٤/ ٣٠)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٢٢١).
(٤) ينظر: «المغني» (٤/ ٣٠).
(٥) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١).
(٦) أخرجه البخاري (١٠٥٣)، ومسلم (٩٨٤).

وتجب زكاة الفكر مع القـدرة، ولا يشترط فيها أن يملك نصابًا؛ بل يكفي أن يكون عنده فضلٌ عن قوته وقوت مَن يَمُونه يوم العيد وليلته(١).

والواجب صاع عند أكثر الفقهـاء، ومقدار الصاع: أربعـة أمداد، والمد يساوي حفنة بيدي الإنسان المتوسط المعتدل. ومقدار الصاع بالغرامات يساوي ألفين ومائة وستين جرامًا من البر تقريبًا(٢).

أما الأصناف التي تخرج منها:

ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما المتقدِّم: «فرض رسولُ الله ﷺ زكاة الفطر صاعًا من تمر، أو صاعًا من شَعِير، على العبد والحرِّ، والذكر والأنثى، والصغير والكبير، من المسلمين، وأمر بها أن تؤدَّى قبل خروج الناس إلى الصلاة».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كنا نُخْرِجُ زكاةَ الفطر صاعًا من طعام، أو صاعًا من شَعِير، أو صاعًا من تمر، أو صاعًا من أَقِط، أو صاعًا من زَبِيب»(٣).

هذا هو المنصوص عليه، وجمهور العلماء من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين على أنه لا يلزم الاقتصار على هذه الأصناف، فيجوز أن تُخرج من غالب قوت البلد؛ كالأرز وغيره(٤).

والجمهور على أنه لا يجزئ إخراج القيمة، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد.

---

(١) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٣١٤)، و«بداية المجتهد» (١/ ٣٤٨)، و«المجموع» (٦/ ٤١-٥٧)، و«المغني» (٤/ ٣١)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٢٢٥) وما بعدها.

(٢) ينظر: «المبسوط» (٣/ ١١٠)، و«بداية المجتهد» (١/ ٣٥٠)، و«المجموع» (٦/ ٧٠)، و«المغني» (٤/ ٣٤)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٥٠٦)، ومسلم (٩٨٥).

(٤) ينظر: «بداية المجتهد» (١/ ٣٤٩)، و«المجموع» (٦/ ٥٨)، و«المغني» (٤/ ٤٠).

وأبو حنيفة يذهب إلى جواز إخراج القيمة في صدقة الفطر[١].

وهذا القول ثابت عن عمر بن عبد العزيز، وجاء عن الحسن البصري أنه قال: «لا بأس أن تُعطى الدراهم في صدقة الفطر»[٢]. وقال أبو إسحاق السَّبِيعي: «أدركتهم وهم يُعطون في صدقة رمضان الدراهم بقيمة الطعام»[٣].

وهذا مذهب الثوري وعطاء؛ فإن عطاءً كان يعطي في صدقة الفطر الورِق، أي: الفضة، وهؤلاء من سادة التابعين.

وممن قوى هذا الأمر ونصره من المتأخرين الشيخ مصطفى الزرقا[٤].

ومن الأوجه التي يتعزَّز بها هذا القول ما يلي:

الوجه الأول: أن كثيرًا من الفقهاء يرون أنه يخرج من قوت البلد غير المنصوص في حديث أبي سعيد وحديث ابن عمر رضي الله عنهما، فإذا تغيَّر القوت جاز أن يُخرج من القوت الموجود كالأرز أو القمح، أو أي قوت ينتشر في بلد من البلدان، وإذا جاز إخراجها من قوت البلد حتى ولو لم يكن منصوصًا ولا واردًا في السنة، فمن باب أولى أن تُخرج من الدراهم؛ لأنها قد تكون أفضل من القوت لكثير من الناس، وهذا منهم مصير إلى القيمة والتقييم؛ لأنهم قوّموا ما كان قوتًا في زمن النبي ﷺ وأخرجوا بدله.

الوجه الثاني: أن الأمر في هذه الأشياء ليس تعبديًّا محضًا لا يجوز الخروج

---

(١) ينظر: «بدائع الصنائع» (٢/ ٢٣٠)، و«المجموع» (٥/ ٤٢٩)، و«المغني» (٤/ ٤٣)، و«مجموع الفتاوى» (٢٥/ ٨٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠٣٧٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠٣٧١).

(٤) ينظر: «العقل والفقه في فهم الحديث النبوي» للزرقا، وقد طبع في فتاويه بعد وفاته. ينظر: «فتاوى مصطفى الزرقا» (ص ١٤٥).

عنه إلى غيره، وإنما هو أمر مصلحي واضح، أي أن المقصود من صدقة الفطر منفعة الآخذ، وإخراج القيمة - خصوصًا إذا طابت بها نفس المُعطِي ونفس الآخذ وأنه أحب إليهما معًا - يحقِّق مقصد الشرع في التوسعة على الناس، وفي تطهيرهم، وفيما فيه تحقيق مصالحهم، وليس فيه ما يعارض نصًّا ظاهرًا.

الوجه الثالث: أن الفقهاء اختلفوا في إخراج زكاة عُروض التجارة من العُروض ذاتها أو من النقد، **وفي المسألة ثلاثة أقوال**:

الأول: أنه يجوز إخراجها من العُروض أو من النقد.

الثاني: أنه يخرجها نقدًا ولا بد.

الثالث: أنه يجب عليه إخراجها من العُروض.

فالقول الأول فيه تخيير بين النقد وبين إخراجها من نفس العُروض، والأفضل هو الأحظُّ للفقراء، فلو علم أن الفقير سوف يشتري بهذا المال عُروضًا؛ كان الأفضل أن يعطيه عُروضًا، حتى يوفِّر عليه القيمة وتعب الشراء، وإن علم أنه متى أعطى الفقير عروضًا باعه وربما نقصت قيمته، فالأولى في هذه الحال أن يعطيه مالًا، وكذلك إذا علم أن الفقير لا يحسن التصرف، لسفهٍ أو حمق، أو قد يكون عنده معصية فيستخدم المال في غير ما أحله الله؛ فيكون الأفضل أن يعطيه عُروضًا حتى يستخدمها فيما هي له، وقد رجَّح ابن تيمية أنه إذا كان ثمَّةَ حاجة ومصلحة، فإنه يجوز إخراج النقد عن العُروض[1].

فإذا كان هذا في زكاة المال، وهي ركن من أركان الإسلام، وفرض بالاتفاق، ووجوبها أظهر وأمرها آكد؛ فأن يكون سائغًا في زكاة الفطر من باب أولى.

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٥/ ٨٢).

والمسألة من فروع الفقه التي يختلف فيها أهل العلم، والمقصود عدم التشديد في المسألة، وأن الخلاف فيها سائغ ومنقول، ومنذ عهود السلف كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله وهو والٍ وخليفة يأمر رعيته بإخراجها نقدًا[(١)].

أما عن وقت وجوبها:

فهي تجب بالفطر من رمضان؛ ولذا سمِّيت: زكاة الفطر، من باب نسبتها إلى سببها، وقد ذهب الشافعي وأحمد وإسحاق ومالك في رواية عنه إلى أنها تجب بغروب الشمس من ليلة العيد، بينما ذهب أبو حنيفة إلى أنها تجب بطلوع الفجر يوم العيد[(٢)].

ولِمَن تُعطى صدقة الفطر؟

للعلماء في هذه المسألة قولان:

الأول: أنها تخرج للأصناف الثمانية، وهذا مذهب الجمهور؛ بل قال الشافعية: يجب تقسيمها على الأصناف الثمانية.

الثاني: أنها خاصة بالفقراء والمساكين، وهو قول الحنابلة، واختيار ابن تيمية، وابن القيم، وهو أولى وأوجه؛ وذلك للنص؛ لأن نبينا محمدًا ﷺ قال: «... **وطُعمة للمساكين**»[(٣)]. ولأنها صدقة على البدن، فليس فيها سُعاة، ولا علاقة لها بالغارمين ولا بغير ذلك، مما يدل على أن مصرفها ليس هو

---

(١) ينظر: «بدائع الصنائع» (٢/ ٢١)، و«بداية المجتهد» (١/ ٣٣٧)، و«المجموع» (٦/ ٢٧)، و«المغني» (٢/ ٣٣٥)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٢١١).

(٢) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٣٢٢)، و«بداية المجتهد» (١/ ٣٥١)، و«المجموع» (٦/ ٥٥)، و«المغني» (٤/ ٤٨).

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، والحاكم (١/ ٤٠٩)، والبيهقي (٤/ ١٦٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مصرف الزكاة المعروفة -زكاة المال- فالأولى أن يُقتصر في إخراجها على الفقراء والمساكين[١].

وعمَّن تخرج صدقة الفطر؟

في قول الجمهور أنه يؤدِّيها أولًا عن نفسه، ثم عمَّن يَمُونُه، فيخرجها عن زوجته وعن ولده وعن والده إذا كان فقيرًا تلزمه نفقته؛ لأن الفطرة عندهم تابعة للنفقة.

أما الجنين، فلا تجب عليه صدقة الفطر؛ لكن يُستحب إخراجها عنه، خصوصًا إذا كان قد نُفخت فيه الروح، وقد جاء عن عثمان رضي الله عنه أنه كان يخرجها عنه، ونُقل عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنها ليست واجبة عليه[٢].

ووقت وجوبها قبل خروج الناس إلى الصلاة؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما المتقدِّم أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم أمر بها أن تُؤدَّى قبل خروج الناس إلى الصلاة.

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدِّم أيضًا، وفيه: «**مَن أدَّاها قبل الصلاة، فهي زكاةٌ مقبولةٌ، ومَن أداها بعد الصلاة، فهي صدقةٌ من الصدقات**».

ولهذا فإن إخراجها بعد صلاة الفجر وقبل صلاة العيد إخراج لها في مكانها الصحيح باتفاقهم، وهو مجزئ.

ويجوز أن يُخرجها قبل العيد بيوم أو يومين، وهذا نص عليه ابن عمر رضي الله عنهما في رواية من حديثه.

وقال بعضهم: إنه لو أخرجها قبل ذلك بثلاثة أيام إلى نصف شهر أجزأت.

---

(١) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٣٦٩)، و«مواهب الجليل» (٢/ ٣٧٦)، و«المجموع» (٦/ ١٦٦)، و«كشاف القناع» (٢/ ٢٤٦).

(٢) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٣٦٢)، و«المغني» (٤/ ٣١٦)، و«المحلى» (٦/ ١٣٢).

وقال بعضهم: من بداية الشهر[(١)].

ولأن هذا قريب من العيد، وقد يكون في تحديد الوقت مشقة على الناس، والفقير إذا جاءته في مثل هذا الوقت سيحتفظ بها إلى وقت العيد، أو قد تكفيه إلى يوم العيد.

أما ما بعد العيد، فلو أخرجها بعد الصلاة، فعند الحنابلة تجزيء مع الكراهة، ومذهب الجمهور أنه يجوز إخراجها في يوم العيد ولو بعد الصلاة بلا كراهة[(٢)].

ومن الأدلة: حديث ابن عمر رضي الله عنهما المتقدِّم أن رسولَ الله ﷺ أمر بزكاة الفطر أن تُؤَدَّى قبل خروج الناس إلى الصلاة يوم الفطر.

وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه المتقدِّم أيضًا: «كنا نخرج في عهد رسول الله ﷺ يوم الفطر...» الحديث.

وهذا دليل على أن اليوم كله محل للإخراج، فلو أخرجها بعد الصلاة لكان مكروهًا عند الحنابلة، لكنه مجزئ عند البقية، أما لو أخَّرها بعد يوم العيد، فهي صدقة من الصدقات.

وهناك قول بأنها لا تجزئ بعد الصلاة، وإنما يخرجها قبل الصلاة، واليوم ينتهي بغروب الشمس؛ لقول ابن عمر رضي الله عنهما في حديثه المتقدِّم: «وكانوا يعطون قبل الفطر بيوم أو يومين»[(٣)].

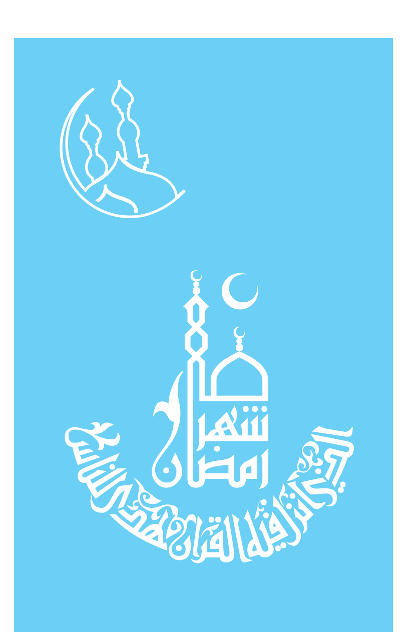


---

(١) ينظر: «المجموع» (٦/ ٥٥)، و«المغني» (٤/ ٥٠).

(٢) ينظر: «الحاوي الكبير» (٣/ ٣٨٩)، و«الشرح الممتع» (٦/ ١٧١).

(٣) ينظر: «المجموع» (٦/ ٥٥)، و«المغني» (٤/ ٥٠)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٢١٢).



28

الفصل الثامن والعشرون
الست من شوال

«مَن صامَ رمضانَ، ثم أَتْبَعَهُ سِتًّا من شوَّال، كان كصيام الدَّهْر»



الست من شوال

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**مَن صامَ رمضانَ، ثم أتبعه ستًّا من شوال، كان كصيام الدهر**»[١].

قال ابن رجب في «لطائف المعارف»: «اختُلف في هذا الحديث، وفي العمل به: فمنهم مَن صحَّحه، ومنهم مَن قال: هو موقوف. قاله ابن عُيينةَ وغيرُه، وإليه يميل الإمام أحمد، ومنهم مَن تكلَّم في إسناده»[٢].

وخُصَّ شوال بصيام الست؛ لأن وقوعها بعد رمضان بمثابة الراتبة للفريضة.

وفي حديث ثوبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**صيامُ رمضانَ بعشرة أشهرٍ، وصيامُ الستة أيامٍ بشهرين، فذلك صيامُ السنة، يعني رمضانَ و ستةَ أيام بعده**»[٣].

قال ابن رجب في «لطائف المعارف»: «صحَّحه أبو حاتم الرازي، وقال الإمام أحمد: ليس في حديث الباب أصح منه. و توقَّف فيه في رواية أخرى»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١١٦٤).

(٢) ينظر: «لطائف المعارف» (ص٢١٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٤١٢)، والدارمي (١٧٥٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٨٦٠)، وابن خزيمة (٢١١٥)، والبيهقي (٨٢١٦).

(٤) ينظر: «لطائف المعارف» (ص ٢٢٠).

قال الإمام النووي رحمه الله: «قال العلماء: وإنما كان كصيام الدهر؛ لأنَّ الحسنة بعشر أمثالها، فرمضان بعشرة أشهر، والستة بشهرين»[(١)].

وفي صيام الست من شوال فضائل:

١- أن صيام ستة أيام من شوال بعد رمضان يستكمل بها أجر صيام الدهر كله.

٢- أن صيام شوال وشعبان كصلاة السنن الرواتب قبل الصلاة المفروضة وبعدها، فيكمل بذلك ما حصل في الفرض من خلل ونقص، فإن الفرائض تُكَمَّل بالنوافل يوم القيامة.

٣- أن معاودة الصيام بعد صيام رمضان علامة على قبول صوم رمضان؛ فإن الله تعالى إذا تقبَّل عمل عبد وفَّقه لعمل صالح بعده، كما قال بعضهم: «ثوابُ الحسنة الحسنةُ بعدها»[(٢)].

٤- أن صيام رمضان يوجب مغفرة ما تقدَّم من الذنوب، كما سبق ذكره، والصائمون يوفون أجورهم في يوم الفطر، وهو يوم الجوائز، فيكون الصيام بعد الفطر شكرًا لهذه النعمة، فلا نعمة أعظم من مغفرة الذنوب، وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده بشكر نعمة صيام رمضان بإظهار ذكره، وغير ذلك من أنواع شكره، فقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]؛ فمن جملة شكر العبد لربه على توفيقه لصيام رمضان، وإعانته عليه، ومغفرة ذنوبه: أن يصوم له شكرًا عَقِيب ذلك[(٣)].

---

(١) ينظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٨/ ٥٦)

(٢) ينظر: «الفوائد» لابن القيم (ص ٣٥)، و«لطائف المعارف» (ص ٢٢١).

(٣) ينظر: «التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ١٠٨)، و«وظائف الزمان» لابن قاسم النجدي (ص ٨٣)، و«نداء الريان (١/ ٤٨١).

وكان بعض السلف إذا وُفِّق لقيام ليلة من الليالي أصبح في نهارها صائمًا، ويجعل صيامه شكرًا للتوفيق للقيام[١].

وكان وُهيب بن الورد رحمه الله يُسأل عن ثواب شيء من الأعمال كالطواف ونحوه، فيقول: «لا تسألوا عن ثوابه، ولكن سلوا ما الذي على مَن وُفِّق لهذا العمل من الشكر، للتوفيق والإعانة عليه؟»[٢].

إن كل نعمة على العبد من الله في دين أو دنيا تحتاج إلى شكر عليها، ثم التوفيق للشكر عليها نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثانٍ، ثم التوفيق للشكر الثاني نعمة أخرى تحتاج إلى شكر آخر، وهكذا أبدًا، فلا يقدر العباد على القيام بشكر النعم، وحقيقة الشكر الاعتراف بالعجز عن الشكر.

* **وصيام الست من شوال مستحب**، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق، وهو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكعب الأحبار، وقول طاوس والشَّعْبي وميمون بن مِهْران وابن المبارك[٣].

وقد استدلوا بالأحاديث المتقدمة في فضلها مما رواه مسلم وغيره.

وقد كرهها قوم منهم: مالك، وأبو حنيفة؛ معلِّلين ذلك بالخوف من اعتقاد فرضيتها لدى العامة، وبأن فيها مشابهة لأهل الكتاب من حيث الزيادة على شهر الصوم المفروض[٤].

وقد ثبتت السنة بصوم الست من شوال، ولو تركنا السنة خوف الزيادة على

---

(١) ينظر: «لطائف المعارف» (ص ٢٢١).
(٢) ينظر: «حلية الأولياء» (٨/ ١٥٥)، و«لطائف المعارف» (ص ٢٢١).
(٣) ينظر: «المجموع» (٦/ ٤٠٠)، و«المغني» (٣/ ٥٦)، و«نيل الأوطار» (٤/ ٣٢٢).
(٤) ينظر: «بدائع الصنائع» (٢/ ٧٨)، و«فتح القدير» (٢/ ٣٤٩)، و«الاستذكار» (٣/ ٣٧٩)، و«مواهب الجليل» (٣/ ٤١٤).

الفرض في الصوم؛ لتركنا جميع المندوب من صوم عاشوراء، وأيام البيض، وغير ذلك، وقد قيل: إن مالكًا كان يصومها في خاصة نفسه، وقد كان المتأخرون من الأحناف لا يرون بصيامها بأسًا[1].

قال ابن عبد البر: «لم يبلغ مالكًا حديثُ أبي أيوب، على أنه حديث مدني، والإحاطة بعلم الخاصة لا سبيل إليه، والذي كرهه مالك قد بيَّنه وأوضحه خشية أن يضاف إلى فرض رمضان، وأن يسبق ذلك إلى العامة، وكان متحفِّظًا كثير الاحتياط للدين، وأما صوم الستة الأيام على طلب الفضل وعلى التأويل الذي جاء به ثوبان، فإن مالكًا لا يكره ذلك إن شاء الله؛ لأن الصوم جنة، وفضله معلوم، يدع طعامه وشرابه لله، وهو عمل بر وخير، وقد قال تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧]»[2].

أما صفة صومها:

١- فمن العلماء مَن استحب صومها من ثاني أيام العيد متتابعة، وهو مذهب الشافعي.

٢- ومنهم مَن لم يفرِّق بين التتابع والتفريق من الشهر كله، وقال: هما سواء، وهو مذهب الإمام أحمد والأكثرين.

٣- أنها لا تُصام عقب الفطر مباشرة؛ لأنها أيام توسعة وأكل وشرب، وإنما يصام ثلاثة قبل أيام البيض وأيام البيض أو بعدها، وإليه ذهب معمر وعبد الرزاق.

---

(١) ينظر المراجع السابقة.

(٢) ينظر: «الاستذكار» (٣/ ٣٨٠).

والأمر في ذلك واسع إن شاء الله، ولا تثريب على مَن فعل أيًّا من ذلك[١].

واختلف العلماء في صيام الست لمَن عليه قضاء:

فذهبت طائفة إلى أنه لا يتحقَّق صيام الست إلا بعد القضاء.

واستدلوا بحديث أبي أيوب رضي الله عنه المتقدِّم، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَن صام رمضانَ، ثم أتبعه ستًّا من شوال، كان كصيام الدهر**».

وظاهره أنه لا يصوم الست من شوال، ولا يحصل على فضيلتها وذمته مشغولة بأيام من رمضان أفطرها، فلا يستحق هذا الوصف ويتحصَّل على الأجر إلا مَن أكمل رمضان، والذي عليه قضاء لا يكون مكمِّلًا لرمضان.

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن فضيلة صيام الست من شوال حاصلة لمَن أفطر رمضان بعذر، ومنهم: ابن حجر الهيتمي، وابن مفلح، والبهوتي[٢].

قالوا: إن الست لها خصوصية، وقضاء رمضان مُوَسَّع فيه، ولا يجب أداؤه في شوال خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤].

والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي قال: «**مَن صام رمضان، ثم أتبعه ستًّا من شوال..**» الحديث، وهو يعلم أن ذمم كثير من الناس قد تكون مشغولة بالقضاء، ومع ذلك لم يشترط في الحديث بأن يقضي أولًا ما عليه.

وعلى هذا فمَن كانت ذمته مشغولة بقضاء أيام أفطرها بعذر من رمضان يتسع لها شوال مع صيام الست؛ فهذا يستعين الله، ويشمِّر لأمر ربه، ويقضي ما عليه، ثم يصوم الست؛ إبراءً لذمته وتحصيلًا للأجر.

ومَن كانت ذمته مشغولة بقضاء أيام أفطرها لعذر، ولا يتسع شوال لصيامها

---

(١) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ١٢٥)، و«حاشية الدسوقي» (١/ ٥١٧)، و«حاشيتا قليوبي وعميرة» (٢/ ٧٣)، و«كشاف القناع» (٢/ ٣٣٧).

(٢) ينظر: «تحفة المحتاج» (٣/ ٤٥٦)، و«الفروع» (٣/ ١٠٨)، و«كشاف القناع» (٢/ ٣٣٨).

مع الست أو يكون عليه مشقة شديدة، فهذا ممن حبسه العذر، فيصوم الست أولًا، تحصيلًا لفضلها، ثم يقضي؛ فإنه لم يفطر رمضان إلا لعذر[1].

والأدلة كثيرة على تحصيل المعذور للأجر الكامل طالما حبسه عذر، كما في «الصحيح» عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ رجع من غزوة تبوك، فدنا من المدينة، فقال: «**إن بالمدينة أقوامًا، ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم**». قالوا: يا رسولَ الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر**»[2].

وها هنا تنبيهات تتعلَّق بصيام الست:

١- اتخاذ موسم غير المواسم الشرعية عيدًا، كثامن شوال الذي يسمِّيه بعض العامة: (عيد الأبرار)، ليس له أصل في الشريعة.

٢- بعض الناس إذا صام الست من شوال في السنة يظن أنه يجب عليه الصيام في كل سنة، وهذا غير صحيح، فالأمر بالخيار، وفي الحديث: «**الصائمُ المتطوِّعُ أميرُ نفسه، إن شاء صامَ، وإن شاء أفطر**»[3].

* ولو صام بعض الست، لكان له أجر ما صام، ولو لم يتمها.

إن صيام الست دليل على إلف المسلم للصوم ورغبته فيه، وأدائه للعمل تطوعًا بعدما أدَّاه فرضًا.

فاللهم تقبَّل من الصائمين، وأعنهم على طاعتك، يا أرحم الراحمين.

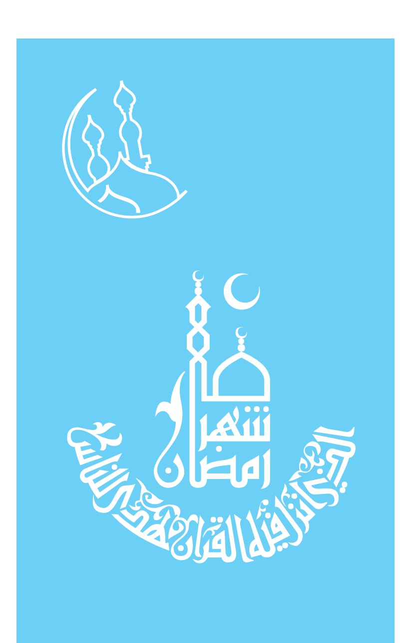


---

(١) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٤٢٣)، و«حاشية الدسوقي» (٣/ ٩٦)، و«مغني المحتاج» (١/ ٤٤٥)، و«المغني» (٤/ ٨٦)، و«الإنصاف» (٤/ ٣٤٩)، و«الأحكام» لابن حزم (٣/ ٣١٠)، و«نيل الأوطار» (٤/ ٣١٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤١٦١). وأخرجه مسلم (١٩١١) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطيالسي (١٧٢٣)، وأحمد (٢٦٨٩٣)، والترمذي (٧٣٢)، والحاكم (١/ ٤٣٩) من حديث أم هانئ رضي الله عنها.



29

الفصل التاسع والعشرون

مع العيد

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾

مع العيد

يا صاحبَ الهم هذي روعةُ العيدِ فاستنجدِ اللهَ واهتِف بالأناشيدِ
هذا النعيمُ الَّذي قد كنتَ تطلبُه لا تلْهَ عنه بشيءٍ غيرِ موجودِ
ولستَ تبصرُ وجهًا غيرَ مؤتلقٍ ولستَ تسمعُ صوتًا غيرَ غِرِّيدِ
فافرَح بما شرَع الباري بلا وجَلٍ واترُك حديثَك عن أيامِك السودِ[١]

العيد اسم لكل ما يُعتاد، والأعياد شعارات توجد لدى الأمم كلها؛ ذلك أنَّ إقامة الأعياد ترتبط بفطرة طُبع الناس عليها، فكل الناس يحبون أن تكون لهم مناسبات فرح يظهرون فيها السرور، ويتذكرون الماضين، ويلتئم فيها الشمل.

والكثير من أعياد الأمم ترتبط بأمور دنيوية، مثل قيام دولة، أو سقوطها، أو تنصيب حاكم، أو تتويجه، أو زواجه، أو بحلول مناسبة زمانية، كفصل الربيع، أو غير ذلك.

وقد تتصل بمناسبات دينية، كعيد ميلاد عيسى، وعيد رأس السنة (الكريزمس)، وعيد الشكر، وعيد العطاء...

أما المسلمون، فليس لهم إلا عيدان: عيد الفطر، وعيد الأضحى؛ ففي «سنن أبي داود» و«سنن النسائي» بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ لما قدم

(١) ينظر: «ديوان إيليا أبو ماضي» (ص٨٧).

المدينة وجدهم يحتفلون بعيدين، فقال ﷺ: «**كان لكم يومان تلعبون فيهما، وقد أبدلكم الله بهما خيرًا منهما: يوم الفطر، ويوم الأضحى**»[(١)].

وهذان العيدان هما من شعائر الإسلام التي ينبغي إحياؤها، وإدراك مقاصدها، واستشعار معانيها[(٢)].

ومن أحكام العيد ما يلي:

أولًا: يحرم صوم يومي العيد كما سبق؛ لأنها أيام أكل وشرب وذكر لله.

ثانيًا: يُشرع الخروج للصلاة[(٣)]، للرجال والنساء؛ لقول أم عطية رضي الله عنها: «أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نخرجهن في الفطر والأضحى: العواتق[(٤)] والحُيَّض، وذوات الخدور[(٥)]، فأما الحُيَّض فيعتزلن الصلاة، ويشهدن الخير، ودعوة المسلمين»[(٦)].

فإذا أُمر الحُيَّض والعواتق وذوات الخدور أن يخرجن لصلاة العيد؛ فمن الأولى أن يُؤمر الرجال شيبًا وشبابًا بالخروج؛ بل قد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب الخروج لها لهذا الحديث[(٧)].

ثالثًا: من أحكام العيد أنَّ الصلاة فيه قبل الخطبة، كما ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عمر، وأبي سعيد، وابن عباس رضي الله عنهم، أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى قبل

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (١٣٩٢)، وأحمد (١٢٠٠٦)، وأبو داود (١١٣٤)، والنسائي (١٥٥٦)، والحاكم (١/ ٢٩٤).

(٢) ينظر: «نداء الريان» (٢/ ٣٥٧)، و«مجالس شهر رمضان» لابن عثيمين (ص ١٧٠).

(٣) ينظر: «المغني» (٢/ ١١١)، و«كشاف القناع» (٢/ ٥٠)، و«المجموع» (٥/ ٦).

(٤) العواتق: جمع عاتق، وهي الأنثى أول ما تبلغ، والتي لم تتزوج بعد.

(٥) الخدور: البيوت، وقيل: الخدر: ستر يكون في ناحية البيت.

(٦) أخرجه البخاري (٩٧٤)، ومسلم (٨٩٠).

(٧) ينظر: «بدائع الصنائع» (١/ ٢٧٤)، و«الدسوقي» (١/ ٣٩٦)، و«الإنصاف» (٢/ ٢٤٠)، و«مجموع الفتاوى» (٢٣/ ١٦١)، و«السيل الجرار» (١/ ٣١٥).

الخطبة[١].

ولهذا لا يجب البقاء لاستماع الخطبة، بل يستحب، بخلاف الجمعة[٢].

رابعًا: يستحب للإمام أن يكبِّر في الصلاة سبعًا في الأولى، وخمسًا في الثانية، وقد ثبت هذا عن جماعة من الصحابة والتابعين؛ كعمر، وعثمان، وعلي، وأبي هريرة، وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وأبي أيوب الأنصاري، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم[٣].

وقد ورد في ذلك أحاديث عن رسول الله ﷺ من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده[٤]، ومن طريق كثير بن عبد الله المزني عن أبيه، عن جده[٥]؛ والمرفوع إلى النبي ﷺ لا يصح، وإنما ثبت في ذلك آثار موقوفة[٦].

ويجوز أن يكبِّر الإمام أربع تكبيرات في الأولى، وأربعًا في الثانية، فقد ثبت

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٩٥٦-٩٥٨، ٩٦١)، و«صحيح مسلم» (٤٩، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٨، ٨٨٩).

(٢) ينظر: «المجموع» (٥/ ٢٨)، و«المغني» (٢/ ١٢١)، و«المحلى» (٥/ ٨٢)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ٥٠٧).

(٣) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٣/ ٢٩٢-٢٩٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١/ ٤٩٣-٤٩٦)، «أحكام العيدين» للفريابي (ص١٦٧-١٧٨)، والأوسط» لابن المنذر (٤/ ٢٧٣-٢٧٩)، وشرح معاني الآثار» (٤/ ٣٤٤)، و«سنن البيهقي» (٣/ ٢٨٨-٢٩٠)، و«المغني» (٣/ ٢٧٠).

(٤) أخرجه أحمد (٦٦٨٨)، وأبو داود (١١٥٢)، وابن ماجه (١٢٧٨)، والدارقطني (٢/ ٤٧-٤٨)، وغيرهم.
وينظر: «التلخيص الحبير» (٢/ ٨٤)، و«إرواء الغليل» (٦٣٩).

(٥) أخرجه الترمذي (٥٣٦)، وابن ماجه (١٢٧٩)، وينظر: «فتح الباري» لابن رجب (٩/ ٨٥).

(٦) ينظر: «المغني عن الحفظ الكتاب» لعمر بن بدر الموصلي (٢٤٠)، و«فتح الباري» لابن رجب (٩/ ٨٥)، و«التلخيص الحبير» (٢/ ٨٥).

هذا عن جماعة من السلف، منهم ابن مسعود رضي الله عنه[١]، وهو مذهب الأحناف، وهذه التكبيرات سنة، وهي داخلة في عموم قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾[٢].

خامسًا: يستحب أن يقرأ الإمام في صلاة العيد بـ﴿ق﴾، و﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، كما في «صحيح مسلم» أن عمر رضي الله عنه سأل أبا واقدٍ الليثيَّ: ما كان يقرأ به رسولُ الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ﴿ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، و﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر:١]»[٣].

وأكثر ما ورد أنه ﷺ كان يقرأ في العيد بـ«سبح» و«الغاشية»، كما كان يقرأ بهما في الجمعة[٤].

سادسًا: لا نافلة قبل صلاة العيد ولا بعدها، كما في «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبيَّ ﷺ خرج يوم العيد، فصلَّى ركعتين، لم يصلِّ قبلهما ولا بعدهما[٥]، إلا إن صلَّى الناس العيد في المسجد، فيصلِّي قبل الجلوس ركعتين تحيةً للمسجد[٦].

ومن آداب العيد:

أولًا: الاغتسال قبل الخروج للصلاة، فقد صحَّ في «الموطأ» وغيره أنَّ عبدالله

---

(١) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٥٦٨٧، ٥٦٨٩)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١/ ٤٩٥)، و«الأوسط» لابن المنذر (٤/ ٢٧٥)، و«فتح الباري» لابن رجب (٩/ ٨٦).

(٢) ينظر: «بدائع الصنائع» (١/ ٢٧٧)، و«المنتقى» (١/ ٣١٩)، و«المجموع» (٥/ ٢٢)، و«المغني» (٢/ ١١٩)، و«المحلى» (٥/ ٨٥).

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٨٩١).

(٤) ينظر: «صحيح مسلم» (٨٧٨).

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٩٦٤)، و«صحيح مسلم» (٨٨٤).

(٦) ينظر: «المجموع» (٥/ ١٦)، و«المغني» (٢/ ١٢٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ٥٠٩).

ابن عمر رضي الله عنهما كان يغتسل يوم الفطر قبل أن يغدو إلى المصلَّى(١).

وذكر النووي رحمه الله اتفاق العلماء على استحباب الاغتسال لصلاة العيد(٢).

والمعنى الذي يُستحب بسببه الاغتسال للجمعة وغيرها من الاجتماعات العامة قائم في العيد؛ من كونه وقت احتشاد الناس، ووقت عبادة يستحب لها الطيب والنظافة.

ثانيًا: أن لا يخرج في عيد الفطر إلى الصلاة حتى يأكل تمرات؛ لما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات(٣).

وإنما استحب الأكل قبل الخروج مبالغة في النهي عن الصوم في ذلك اليوم.

وأما في عيد الأضحى، فإنَّ المستحب هو أن لا يأكل إلا بعد الصلاة من أضحيته(٤).

ثالثًا: التكبير في يوم العيد، قال الله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقد نُقِل عن ابن عمر رضي الله عنهما من طرق وبأسانيد صحيحة عند ابن أبي شيبة، والبيهقي، أنه كان يكبِّر إذا خرج من بيته إلى المصلَّى(٥).

وهو الراجح: أن التكبير يبدأ من حين الخروج إلى المصلَّى، لا من غروب

---

(١) ينظر: «الموطأ» (٤٢٨)، و«مسند الشافعي» (٧٣)، و«مصنف عبد الرزاق» (٥٧٥٤).
وورد كذلك عن علي رضي الله عنه. ينظر: «مسند الشافعي» (١١٤)، و«سنن البيهقي» (٣/ ٢٧٨).

(٢) ينظر: «المجموع» (٢/ ٢٣١).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٩٥٣).

(٤) ينظر: «زاد المعاد» (١/ ٤٤١)، و«فتح الباري» (٢/ ٤٤٧).

(٥) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (١/ ٤٨٧)، و«سنن البيهقي» (٣/ ٢٧٩).

شمس آخر أيام رمضان[1].

ولقد كان التكبير من حين الخروج من البيت إلى المصلَّى وإلى دخول الإمام أمرًا مشهورًا عند السلف، نقله جماعة من المصنِّفين؛ كابن أبي شيبة، والفريابي في «أحكام العيدين»[2].

ومن ذلك أن نافع بن جُبير كان يكبِّر، ويتعجَّب من عدم تكبير الناس، فيقول: «ألا تكبِّرون؟!»[3].

وكان محمد بن شهاب الزهري يقول: «كان الناسُ يكبِّرون من حين يخرجون من بيوتهم حتى يأتوا المصلَّى، وحتى يخرجَ الإمامُ، فإذا خرج الإمام سكتوا، فإذا كبَّر كبَّروا»[4].

فيُشرع أن يكبِّر المسلم من حين خروجه من منـزله إلى أن يخرج الإمام.

رابعًا: من آداب العيد: التهنئة التي يتبادلها الناس فيما بينهم، أيًّا كان لفظها، مثل: عيدكم مبارك. تقبَّل الله منا ومنكم.. وما أشبه ذلك من عبارات التهنئة الملائمة.

والتهنئة كانت معروفة عند الصحابة، وقد رخَّص فيها أهل العلم، كالإمام أحمد وغيره، وقد ورد ما يدل عليه؛ من مشروعية التهنئة بالمناسبات، وتهنئة الصحابة بعضهم بعضًا عند حصول ما يسُرُّ، مثل أن يتوب الله تعالى على امرئ، فيقومون بتهنئته بذلك، إلى غير ذلك. والآثار المنقولة عن الصحابة التي يحتج

---

(١) ينظر: «الأوسط» لابن المنذر (٤/ ٢٤٩)، و«المجموع» (٥/ ٣٨)، و«المغني» (٢/ ١١٢)، و«مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٢١).

(٢) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (١/ ٤٨٧)، و«أحكام العيدين» للفريابي (ص١١٠-١١١)، و«الأوسط» لابن المنذر (٤/ ٢٤٩)، و«المستدرك» (١/ ٢٩٨)، و«سنن البيهقي» (٣/ ٢٧٩).

(٣) أخرجه الفريابي في «أحكام العيدين» (ص١١٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٥٦٢٩)، والفريابي (ص١١٧).

بها على أنه لا بأس أن يهنئ الناس بعضهم بعضًا بالعيد آثار عديدة.

ولا ريب أن هذه التهنئة من مكارم الأخلاق، ومحاسن المظاهر الاجتماعية بين المسلمين، كما مر في التهنئة بدخول الشهر[١].

خامسًا: التجمل بأحسن الملابس؛ لما في «الصحيحين» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: أخذ عمر رضي الله عنه جُبَّةً من إِسْتَبْرَقٍ تُباع في السوق، فأخذها فأتى رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، ابتعْ هذه؛ تجمَّلْ بها للعيد والوفود. فقال له رسولُ الله ﷺ: «**إنما هذه لباس مَن لا خَلاَق له**»[٢].

فدل ذلك على أن التجمل للعيد كان معروفًا، وقد أقرَّ النبيُّ ﷺ عمرَ على التجمل؛ لكنه أنكر عليه لُبْس الجبة؛ لأنها من حرير.

وعن جابر رضي الله عنه قال: «كان للنبي ﷺ جبَّةٌ يلبسها في العيدين ويوم الجمعة»[٣].

وروى البيهقيُّ بسند صحيح، أن ابنَ عمر رضي الله عنهما كان يلبس في العيدين أحسن ثيابه[٤].

فينبغي للرجل أن يلبس أجمل ما عنده من الثياب عند الخروج للعيد.

أما النساء فيبتعدن عن إظهار الزينة إذا خرجن؛ لأنهنَّ منهيات عن إظهار الزينة للأجانب، وكذلك يحرم على مَن أرادت الخروج أن تتطيَّب؛ فإنها ما خرجت إلا لعبادة وطاعة[٥].

---

(١) ينظر الفصل الأول: «مرحبًا».

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٩٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٨).

(٣) أخرجه ابن خزيمة (١٧٦٦)، والبيهقي (٣/ ٢٨٠).

(٤) ينظر: «سنن البيهقي» (٣/ ٢٨١).

(٥) ينظر: «المجموع» (٥/ ٦)، و«المغني» (٣/ ٣١٠)، و«فتح الباري» (٣/ ٥٠٤).

وهذه تنبيهات مهمة تتعلَّق بالعيد:

* بعض الناس يعتقدون مشروعية إحياء ليلة العيد بالصلاة، ويتناقلون في ذلك حديثًا لا يصح، وهو: «**مَن قام ليلتي العيد محتسبًا لله؛ لم يمتْ قلبه يوم تموتُ القلوب**».

وهو حديث ضعيف[١]، فلا يشرع تخصيص ليلة العيد بعبادة من بين سائر الليالي.

وأما مَن كان يقوم في سائر الليالي؛ فلا حرج أن يقوم في ليلة العيد، وما جاء عن بعض السلف من إحياء ليلتي العيد، فهذا محمول على أنهم لم يحيوها لأنها ليلة عيد، بل لأن من عادتهم طول القيام، وربما اعتادوا على ذلك في عشر رمضان، أو عشر ذي الحجة، فاستمروا عليه[٢]، والله أعلم.

* العيد موسم فرح وسرور بطاعة الله، فيجدر بالمسلم والمسلمة المحافظة فيه على الآداب الجيدة والأخلاق الجميلة، والكرم والعفاف والستر والاحتشام، وحفظ العمل الصالح، والتواصي بالتسامح والعفو عمَّن أخطأ أو ظلم أو قصَّر في الحقوق من البعيد والقريب ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

ليس عيدُ المحبِّ قصدَ المُصلَّى ... وانتظارَ الأميرِ والسُّلطانِ

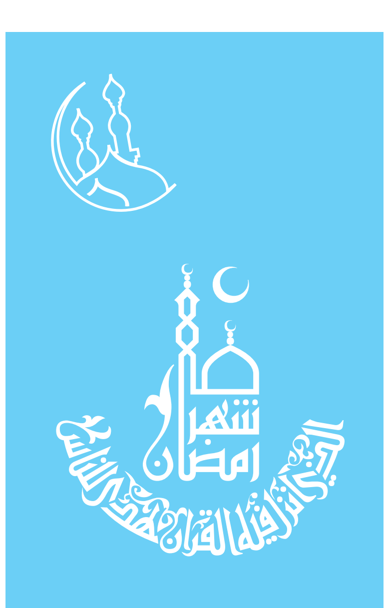
إنَّما العيدُ أن تكونَ لدى الله ... كريمًا مقرَّبًا في الأمانِ[٣]



(١) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٥٢١).

(٢) ينظر: «البحر الرائق» (٢/ ٢٥٦)، و«المدخل» لابن الحاج (٤/ ٢٣٢)، و«المجموع» (٤/ ٤٥)، و«المغني» (٢/ ١٥٩).

(٣) ينظر: «التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ١٠٣)، و«لطائف المعارف» (ص٢٩٩) منسوبًا إلى الشبلي.



30

الفصل الثلاثون

فرحة الإتمام

﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾



فرحة الإتمام

في حديث أبي هريرة ﵁ المتفق عليه يقول ﷺ: «**للصائم فرحتان، فرحةٌ عند فطره، وفرحةٌ عند لقاء ربه**»[١].

وفرحة الفطر تكون بإتمام اليوم والإفطار، وتكون بإتمام الشهر.

وهي فرحة بأمر معنوي يتصل بإتمام الفريضة والتوفيق للطاعة، والنجاح في حمل النفس عليها ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة، وهو فرح دنيوي؛ بإباحة الأكل والشرب والجماع.

وفي «صحيح البخاري» عن سهل بن سعد ﵁ قال: « إن كنا لنفرحُ بيوم الجمعة؛ كانت لنا عجوزٌ تأخذُ أصولَ السِّلْقِ[٢]، فتجعلُهُ في قِدْرٍ لها، فتجعلُ فيه حَبَّاتٍ من شَعِيرٍ، إذا صلَّينا زُرْناها، فقرَّبتهُ إلينا، وكنا نفرحُ بيوم الجمعة من أجل ذلك»[٣].

كان فرحهم بأن الجمعة عيد المسلمين، وموسم عبادة واجتماع واستماع للحكمة والموعظة الحسنة، كما كان فرحهم أنهم يذهبون لتلك المرأة من الأنصار ويأكلون عندها السِّلْق، ويشربون عندها المَرَق.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٠٤)، و«صحيح مسلم» (١١٥١).

(٢) السِّلْق: نبتة من البقول، لها ورق طويل، وأصل ذاهب في الأرض.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٤٠٣).

وثَمَّ فرحٌ للصائم عظيم، عند لقاء الله، ورؤية ثواب العمل ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [آل عمران:١٧٠].

ومن فرح المسلم برمضان، فرحه بشهر المغفرة والتوبة؛ رجاء أن يتوب الله عليه ويوفِّقه للإقلاع عن الذنوب، والله تعالى يفرح بذلك، كما في «الصحيحين»: **«للَّـهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حينَ يتوبُ إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فَلَاةٍ[١]، فانفلَتَتْ منه وعليها طعامُهُ وشرابُهُ، فأَيِسَ منها، فأتى شجرةً، فاضطجعَ في ظلِّها، قد أَيِسَ من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده، فأخذَ بخِطامها، ثم قال من شدَّة الفرح: اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك. أخطأ من شدَّة الفرح»**[٢].

غنَّيتُ مكَّةَ أهلَها الصَّيْـدا ... والعيدُ يملأُ أضلُعي عِيـدَا
فرِحوا فلألأَ تحت كلِّ سماءٍ ... بيتٌ على بيتِ الهُدى زِيـدا
وعلى اسمِ ربِّ العالمين عَلا ... بنيانُه كالشُّـهْـبِ مَـمـدودًا
يا قارئَ القرآنِ صَـلِّ لهـم ... أهلي هنـاك وطـيِّـبِ البَـيْـدا
مَن راكعٌ ويَـــداه آنـسـتـا ... أنْ ليس يَبقى البابُ مَوصُودًا
أنا أينَما صلَّى الأنـــامُ رأتْ ... عينِي السَّمـاءَ تـفتَّحت جُودًا
لو رَملةٌ هتفَتْ بمُبـدِعِـهـا ... شجوًا لكنتُ لشجوِها عُودًا[٣]

الفرح طبع إنساني، وغريزة بشرية، كالحزن، وهو دافع للعمل والإنتاج

---

(١) الفلاة: الصحراء.
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٣٠٨، ٦٣٠٩)، و«صحيح مسلم» (٢٦٧٥، ٢٧٤٤-٢٧٤٧).
(٣) ينظر: «ديوان سعيد عقل» (ص ٥١).

والاستمتاع بالحياة، والشكر للبارئ المنعِم جلَّ وتعالى.

على المرء أن يفرح حتى بالأشياء الصغيرة، ويعوِّد نفسه على السرور بها.

يستقبل الناس فسحة جديدة إلى الحج ثم إلى رمضان آخر، ولاشك أن لذلك مباهج ومتعًا من المباحات والتواصلات الجيدة والحميدة، فمن المهم أن يحرص المرء على تحقيق معنى الاستمتاع الحياتي الراقي، بعيدًا عن التجاوز والانتهاك الذي يعود على القلب همًّا وحزنًا وألمًا وتأنيبًا لضميره.

ليس الفرح استثناءً تُتَعدَّى فيه الحدود، وكلَّما كان فرح الإنسان مربوطًا بحدوده الشرعية؛ كان أدعى إلى دوامه واستمراره.

إن الفرح بذاته فطرة، ولذا فرحت عائشة رضي الله عنها في العيد، وقامت تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد، والنبيُّ ﷺ يتكئ لها؛ لتنظر من ورائه[1].

ولما دخل أبو بكر وعند عائشة رضي الله عنها جاريتان تضربان بالدف في يوم عيد، فغضب أبو بكر، وقال: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟! فقال له ﷺ: **«يا أبا بكرٍ، إنَّ لكلِّ قوم عِيدًا، وهذا عِيدُنا»**[2].

وكانوا يفرحون في الجاهلية بالأعياد، فجاء الإسلام لا ليلغي هذا الفرح ويقول: إنه مذموم. وإنما أبدلهم بأعياد النيروز والمهرجانات وغيرها أعياد الإسلام، وهي الفطر والأضحى، وشرع لهم من اللعب والمتعة المباحة ما يحقِّق مقصود الفرحة.

ومما يشرع يوم العيد: الخروج لصلاة العيد، حتى تخرج العواتق وذوات الخدور، ولا يكنَّ متطيِّبات، ولا متبرجات بزينة، في أجواء من البهجة والجمال

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٥)، ومسلم (٨٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢).

واللقاء والتعاون والإحساس العميق بالإنجاز والانتقال إلى موسم آخر!

* كما تُشرع صدقة الفطر والأضحى؛ من أجل أن يستمتع الفقير ويشارك في الفرح؛ فالعيد مناسبة لتحقيق الانتماء الاجتماعي والتواصل، وهيهات أن يتحقَّق الانتماء إذا كانت الفوارق المادية واسعة بين أفراد المجتمع، ولا عطف ولا إحساس بمعاناة الآخر.

معنى يلهمُ التسامح والتصافي بين الناس والتواصل والتزاور والتواد، وألا تكون المشاجرات بين الجيران، أو المشكلات بين الزوجين، أو غيرها، سببًا في تكدير صفاء العيد؛ فهو فرصة للتواصل وللتوسعة على الأهل بالنفقة وباللعب المباح، فهذا هو **الفرح المحمود**.

أما الفرح المذموم، فهو مرتبط بأحد أمرين:

الأول: أن يكون فرحًا بما حرَّم الله ﷻ، كما قالوا لقارون: ﴿لَا تَفۡرَحۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. يعني فرح الإنسان بالجشع والطمع والاستيلاء على أموال الناس، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ [غافر:٧٥]. فهو فرح بغير الحق، كفرح الظالم بالانتصار، فهذا ليس فرحًا محمودًا.

الثاني: الإفراط في الفرح بما يتعدَّى حدود الاعتدال، كما قال الشاعر العربي:

وَلَستُ بِمِفراحٍ إذا الدَّهرُ سَرَّني ... وَلا جَازِعٍ مِن صَرفِهِ المُتَقَلِّبِ(١)

فإفراط الإنسان في الفرح يترتب عليه أن ينقلب الفرح إلى حزن؛ لأن الإنسان الذي يبالغ في الفرح يبالغ في الحزن، وسرعان ما ينقلب فرحه.

---

(١) ينظر: «ديوان ثابت بن جابر» (ص٦).

أو لا يلتزم الحد؛ بمعنى أن يُفرط في الفرح، ويتعدَّى الحدود الشرعية، ولا يضبط نفسه أو يسيطر عليها[١].

العيد والآلام:

الأُسوة والقدوة بالرسول ﷺ مشروعة في شؤون الحياة العامة، تأمل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]. متى نزلت هذه السورة؟ نزلت في مكة، وفي فترة معاناة وألم وحرب وعدوان، ومع ذلك امتنَّ عليه بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ إذًا كان منشرح الصدر، ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾. وأوزاره ﷺ ليست ذنوبًا، وإنما وضع الله تعالى عنه الهم والغم والثقل، ولذلك كان النبيُّ ﷺ يستعيذ من الهمِّ والغمِّ[٢]. فهذا الذي أثقل ظهره.

إن هم الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى إذا تعدَّى حد الاعتدال تحوَّل إلى كابوس، يثقل المسير، ولا يحقِّق الهدف، وقد عالجت السورة هذا المعنى بالوعد الإلهي الكريم: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦] فهو وعد صادق للمستقبل، وهو حديث عن الحاضر بقوله: ﴿مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾، ولم يقل: (بعد العسر)، فثَمَّ يسر كان قبل العسر، ثم يسر معه، كما في هذه الآية، وهو مضاعف، ثم يسر بعده، كما في قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧]؛ لأنه لا يستطيع أن يواصل طريقه، واعتدال الشخصية الإنسانية من أسباب المواصلة وعدم الانقطاع.

والنبيُّ ﷺ كان يفرح في مكة، وفي المدينة، وفي الغزو، وفي كل الأحوال، ولم يُنقل أن المسلمين حوَّلوا عيدًا من الأعياد إلى مأتم أو حزن، وإنما كانوا يفرحون

---

(١) ينظر: «رمضان: دروس وعبر» للحمد (ص٥٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٨٩٣).

بالعيد، والنبيُّ ﷺ يربِّي أصحابَه ويعلِّمهم على الفرح بالعيد والاستبشار به.

والقدرة على الجمع بين الفرح والسرور والاغتباط، مع الجد في الحياة واحتمال المسؤوليات، هي أساس الأمر وجوهره، وربما عبَّر بعضهم وقت الفرح بمعانٍ تدل على المجافاة وإنكار الاستبشار، كما نجده في لغة الشعر كثيرًا.

والمُتَنَبِّي شرع للشعراء -كما شعراء الجاهلية من قبل- تحويل العيد إلى مناسبة لتذكُّر الآلام والأحزان، وقصيدته مشهورة:

عيدٌ بِأَيَّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ ... بِما مَضى أَمْ بِأَمرٍ فيكَ تَجـديـدُ

أَمّا الأَحِبَّةُ فَالبَيداءُ دونَهُـمُ ... فَـلَيتَ دونَكَ بيدًا دونَها بـيـدُ

أَصَخرَةٌ أَنا مالي لا تُحَرِّكُني ... هَذي المُدامُ وَلا هَذي الأَغاريدُ[1]

وظل الشعراء من بعده ينسجون على منواله، مع أن ربنا سبحانه يقول: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء:٢٢٤]. فلم يكن جيدًا أن يكون العيد فرصة لجلد الناس بالأخطاء والذنوب الموجودة عندهم، أو تكدير الفرحة باستدعاء ذكريات وآلام، وجمعها في هذه المناسبة، وإبعاد الصفاء والرضا عن الناس.

وثَمَّ شعراء بحماسة إسلامية أو عاطفية عروبية، ظلوا يضربون على هذا الوتر، كما في شعر عمر أبي ريشة، أو محمود غُنيم، أو عمر بهاء الدين الأميري، أو البَرَدُّونِي، أو زكي مبارك، أو الرافعي، أو العقاد، وهؤلاء شعراء كبار حملوا همَّ الأمة وعبَّروا عن تطلعاتها على أي حال.

وعوضًا عن أن يكون العيد فرصة لنتبادل مشاعر الفرح والسرور والمعاني الجميلة، أصبحنا نتحدَّث عن آلام ومعاناة:

---

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٢٤٣).

أما عن معاناة الأمة وآلامها: فالأمة بقدر ما فيها من النقائص والعيوب، فيها من الخيرات والبركات والمعاني الجميلة التي يمكن للإنسان أن يستذكرها، فليكن العيد فرصة لاستذكار ما يدعو إلى التفاؤل من صنوف الخير والبر والجود والكرم والإحسان.

يجب أن ندرك أن هذا لا يعني تقصير الإنسان في إحساسه بمعاناة الآخرين، لكن عليه ألَّا يقصِّر في حفظ حق نفسه، ومجرد اجترار الأحزان لا يغيِّر من الواقع شيئًا، لكن التعاطف والتفاعل بالقول أو بالفعل أو بالمشاركة العقلية أو الحضورية، هو ما نحتاج إليه.

والاعتدال في الفرح والضحك مطلوب، وقد تبسَّم النبيُّ ﷺ حتى بدت نواجذه[1].

وداعب أصحابه وأزواجه والكبار والصبيان والبدو والحضر، وهكذا كان أصحابه، بل من أصحابه مَن هو متخصِّص في الضحك والإضحاك وصناعة الابتسامة في مكانها الطبيعي[2].

أما المعنى الثاني، فهو المعاناة الخاصة والشخصية التي تحرم الإنسان من فرحة العيد.

والمؤمن إذا رضي وسلَّم، واستحضر القضاء والقدر؛ فإنه يحمد الله على أن المصيبة كانت أقل مما هو أعظم منها.

وفي كل حال يجد المرء من الألطاف الخفيَّة والمنح الإلهية ما لا يدركه إلَّا مَن

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨١١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٨٦).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٠٨٥، ٦٧٨٠)، و«صحيح مسلم» (٢٣٩٧)، و«سنن أبي داود» (٥٢٢٤)، و«مدارة الناس» لابن أبي الدنيا (١٥٩)، و«سنن النسائي الكبرى» (٨٩١٧)، و«المستدرك» (٣/ ٢٨٨).

عاش وجرَّب، حتى إنه قد يأنس بالحال التي هو عليها، ولا يبتغي عنها حِوَلًا.

فقد يمر العيد بالإنسان وهو سجين، فيشعر بأنه معزول عن أهله وأطفاله، وأن الناس تفرح في العيد وهو محروم، كحال الـمُعْتَمِد بن عَبَّاد، وهو حاكم آل به الأمر إلى السجن في أَغْمَات، فقال قصيدة، منها:

فيما مَضى كُنتَ بِالأَعيادِ مَسرورًا ... فَجاءَكَ العيدُ في أَغماتَ مَأسُورَا

تَرى بَناتكَ في الأَطمارِ جائِعَـةً ... يغزِلنَ للنَّاس ما يملِكن قطميرَا

بَرَزن نحوَك للتسليم خاشعـةً ... أَبصارُهُنَّ حسيراتٍ مَكاسِيرَا

يَطأنَ في الطِّين وَالأَقدامُ حافيَةٌ ... كَأَنَّها لَم تَطأْ مِسْكًا وَكافورَا

مَن باتَ بَعدَكَ في مُلكٍ يُسَرُّ بِـهِ ... فَإِنَّما باتَ فِي الآمالِ مَغْرُورَا(١)

وقد يقع في السجن انعتاق للروح والعقل من أسر العادة والمألوف والسياق الذي مضى عليه الإنسان، فيفرح بقربه من الله، ويشعر بحرية أهل الكهف الذين خرجوا من قصورهم قائلين: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف:١٦].

أو يكون الإنسان مريضًا، وربما صحَّت الأبدانُ بالعلل، ومن المرض طهور وكفارة وزلفى إلى رب العباد.

لأنه منك حلوٌ عندي المرضُ ... حاشا فلستُ على ما شئتَ أعترضُ(٢)

وقد أصاب المرضُ أيوبَ عليه السلام، فقال الله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤].

---

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٦٤)، و«تاريخ الإسلام» (٣٣/ ٢٧١)، و«شذرات الذهب» (٣/ ٣٨٩). والأطمار: الثياب البالية.

(٢) من شعر بدر شاكر السيَّاب.

ويحسن بالمؤمنين الاعتبار بالمنهج النبوي؛ فالرسول ﷺ في مكة كانت لديه آلام كافية وأحزان مستمرة، وهناك عام يسمونه: (عام الحزن)، لكن كان لديهم اثنا عشر عامًا لم تكن أعوام أحزان، بل كان الغالب عليها السرور، والرضا، وقرة العين بالوحي والرسالة والإسلام، والنعم في النفس والأهل والمال والولد، واعتبار مواضع الحكمة في القضاء والقدر.

وهكذا الحال في المدينة، كانوا يذهبون في سريَّة أو في غزو أو في مواجهة عدو، ومع ذلك كانوا يتبادلون الأشعار ويتمازحون.

وفي أول الهجرة عند بناء المسجد كانوا يردِّدون:

لئن قَعَدْنا والنَّبيُّ يَعملُ ... ذاك إذًا لعملٌ مُضلَّلُ

لا يَستوي مَن يَعمُرُ المساجِدا ... يَدْأبُ فيها قائمًا وقاعدَا

ومَن يُرى عن الغبار حائدَا[1]

وكان اسم أحد الصحابة: «جُعيل» فغيَّره النبيُّ ﷺ وسمَّاه: «عمرًا»، فالتقط الصحابة وهم في عملهم ومزاحهم والأهازيج التي يردِّدونها هذه المبادرة الأبوية والتكرمة النبوية، وسبكوها ضمن نشيدهم، فقالوا:

سمَّاهُ مِنْ بَعْدِ جُعيلٍ عَمْرَا ... وكانَ للبائِسِ يومًا ظَهْرَا

وكان النبي ﷺ يردِّد معهم، فيقول: «**عمرًا**»، «**ظهرًا**»[2].

---

(١) ينظر: «البداية والنهاية» (٢/ ٢٦٣)، و«فتح الباري» (٧/ ٢٤٧)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (١٦/ ٢٤٣).

(٢) ينظر: «تاريخ الطبري» (٢/ ٥٦٦-٢٦٧)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢١٧)، و«دلائل النبوة» (٣/ ٤١٠)، و«الإصابة» (١/ ٤٩٠)، و«البداية والنهاية» (٦/ ١٥).

وفي «السنن» أن النبي ﷺ سابق عائشةَ رضي الله عنها وهم في غزوة، فسبقته مرة، وسبقها أخرى[1].

فهذا معناه أنه يمكن انتزاع الفرح من براثن الظروف الصعبة، والابتهاج بفضل الله ورحمته.

الفرح جزء من تكويننا الفطري، وجزء من الحياة، وعلينا أن نفرح باعتدال، وعلى الخطباء والشعراء وقادة الرأي والفكر والكُتَّاب مسؤولية زرع الأمل والتفاؤل واللغة الإيجابية عند المتلقِّين.

الفرح دواء:

ينبغي أن نعالج المآسي بالفرح والسرور: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس:٥٨].

فيفرح العبد بإنسانيته وتكريمه.

ويفرح بنعم الله تعالى عليه في النفس والأهل والمال.

ويفرح بأن أوزعه الله شكر نعمته؛ فبالشكر تدوم النعم.

وفي أول الآية قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ دعوة إلى الفرح بالفضل والرحمة، وهو يعني الخير والمال، ولذا قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨]. وقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠]. ففضله: رزقه وعطاؤه، فليفرح المؤمن بالعطاء الحلال المبارك، ولو كان قليلًا، فلا تذهب نفسك حسرات وراء جمع الأموال أو المنافسة مع أهل الدنيا؛ فقليل يكفي، خير من كثير يُطْغِي.

---

(١) ينظر: «مسند الطيالسي» (١٥٦٥)، و«مسند أحمد» (٢٤١١٨، ٢٦٢٥٢)، و«سنن أبي داود» (٢٥٧٨)، و«سنن ابن ماجه» (١٩٧٩).

وذكر الفرح بالرحمة، وهي العلم والدين والقرآن والصلاح.

فإذا هُما اجْتمَعا لنَفْسٍ حُرَّةٍ بلغَتْ من العلياءِ كلَّ مكانِ[١]

وقد جاء في «الصحيحين» من حديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ، فهو يقومُ به آناءَ الليل وآناءَ النهار، ورجلٌ آتاه اللهُ مالًا، فهو ينفقُهُ آناءَ الليل وآناءَ النهار»[٢].

فمن جمعهما الله له، فقد جمع له خير الدنيا والآخرة.

فإذا تحقق للعبد معهما الفرح والسرور والاغتباط، كان ذلك تمام السعادة والعيش الهنيء الرغيد في الدنيا دون تكدير، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن معاني الدين الجميلة: أن الدين يصنع للإنسان عزاءً.

الدِّينُ سَلْوَى النفْسِ في آلامِها وطَبيبُها مِنْ أَدْمُعٍ وَجِراحِ[٣]

لأنه يمنح الإنسان الأمل بالله سبحانه، والأمل بالدار الآخرة، والأمل بالفرج، حتى في الأمور التي هي أشبه بالمستحيل:

وَلَرُبَّ نازِلَةٍ يَضيـقُ بهـا الفَتى ذَرعًا وَعِندَ اللهِ مِنها الـمَخرَجُ
ضاقَت فَلَمّا اِستَحكَمَت حَلَقاتُها فُرِجَت وَكُنتُ أَظُنُّها لا تُفرَجُ[٤]

فعلى الإنسان ألا يكون عونًا للدهر ونوائبه على نفسه، باستجماع هذا المعنى:

---

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص ٢٥١).
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٥٢٩)، و«صحيح مسلم» (٨١٥).
(٣) ينظر: «ديوان علي الجارم» (ص٢١٩).
(٤) ينظر: «ديوان الإمام الشافعي» (ص٢٩).

يــؤَرِّقُـنـي اكـتِـئـابُ أَبي نُمَيرٍ　　فَقَلبي مِـن كـآبَـتِـهِ كَـئـيـبُ
فَقُلتُ لَــــهُ هَــداكَ اللهُ مَـهـلًا　　وَخَيرُ القَولِ ذو اللُّبِّ المُصيبُ
عَسى الكَربُ الَّذي أَمسَيت فيهِ　　يَكــونُ وَراءَهُ فَــرَجٌ قَــريـبُ
فَيأمَنُ خائِـفٌ ويُــفَــكُّ عــانٍ　　وَيـأَتي أَهلَـهُ النائـي الغَريـبُ
ألا ليتَ الرِّيــاحَ مُـسـخَّـراتٌ　　بـحـاجـتِـنـا تُـبـاكِرُ أو تؤوبُ
فتخبِـرَنا الـشِّــمـالُ إذا أتـتْـنـا　　وتـخـبـرَ أهـلَـنـا عنَّا الجنوبُ:
بأنَّـا قــد نَـزلــنـا دارَ بَـلــوَى　　فتُخـطِـئُـنـا الـمَنايا أو تصيبُ[1]

علينا أن لا نجعل العيد مناسبة لاجترار الآلام والأحزان، لنعط إجازة للحزن والكآبة وللهم والغم، ولتكن إجازة طويلة، ولنستشعر الفرحة بنهاية الصوم، وبإكمال العدة، وبتكبير الله على ما هدانا، وبهداية الله لنا إلى هذه الشريعة، وبلقاء الأصدقاء والأقارب والناس، وأن يكون ثمة فرح بالقلب، ولن تفرح القلوب المليئة بالكدر أو الحقد أو الحسد أو البغضاء؛ لنتخلص من هذه المعاني فورًا دون إبطاء، ولنملأ قلوبنا بالمشاعر الإيجابية وتوقُّع الأفضل في قادمات الأيام، في شخصياتنا وأسرنا ومجتمعاتنا وأمتنا، وللعالم أجمع.

هَنيئًا لَكَ العيدُ الَّذي أَنتَ عيــدُهُ　　وَعيدٌ لِمَن سَمَّى وَضَحَّى وَعَيَّــدا
فَذا اليَومُ في الأَيامِ مِثلُكَ في الوَرى　　كَما كُنتَ فيهِم أَوحَدًا كانَ أَوحَدَا
هُوَ الجَـدُّ حَتى تَفضُلَ العَينُ أُختَها　　وَحَتى يكون اليَومُ لِليَومِ سَيِّدا[2]

---

(١) ينظر: «الأمالي في لغة العرب» (١/ ٧٢)، و«خزانة الأدب» (٩/ ٣٣٢) منسوبًا إلى هدبة بن خشرم.
(٢) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص ١٧١).

لنجعل العيد عيدًا حين نباشر الخطوة الأولى والضرورية للخلاص من آلامنا النفسية ومتاعبنا الذاتية، ولنسعَ إلى تصحيح علاقاتنا العملية بمَن حولنا.

فالزوجان المتجافيان، يشكِّل العيد فرصة جميلة لأن يعتبروا هذه الليلة كَلَيْلَةِ الدُّخلة الأولى، وينسوا ما بينهم من خلافات.

والإخوة الذين فرَّقت بينهم الدنيا، فهذه فرصة جميلة أن يرضوا والديهم، حتى لو كانوا في القبور، بالمصافحة والمصالحة والابتسام والمسامحة وردم الماضي.

والأغنياء الذين وسَّع الله عليهم، يمكنهم أن يحصلوا على بهجة مضاعفة، حين يُدْخِلون الفرحةَ والسرورَ في نفوس الصغار والأيتام والفقراء والمحتاجين.

وعندما نمنح الآخرين السعادة، سنحصل على قدر أكبر منها، والله تعالى يقول في الحديث القدسي: «**يا ابن آدم، أنفِقْ أُنفقْ عليك**»[(١)].

علينا أن نمنح الآخرين مشاعر الاهتمام والحب والثقة، وأن نبذل جهدًا في تخفيف معاناتهم، ومشاطرتهم آلامهم وأحزانهم، وحتى مَن لم يجد المال، فالكلمة الطيبة صدقة:

لا خيلَ عندك تُهديها ولا مالُ ... فليُسعِدِ النُّطقُ إنْ لم تُسعِدِ الحالُ[(٢)]

عيد مبارك، وحياة سعيدة، وعمر مديد في الإيمان ورضا الرحمن.

وداعًا للكآبة والحزن المقيم، فهو طيف عابر لا يُسمح له بالاستقرار، ستطارده الآمال الصادقة والأحلام الجميلة، وستكون الثقة بالله زادنا في طريق الحياة، والدعاء والتضرع عادتنا في المُلِمَّات، وسنضع نُصب أعيننا قوله تعالى في

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٣٤٩).

الحديث القدسي: «**أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، فليَظُنَّ بي ما شاء**»[1].

وليكن ظننا به المغفرة والرحمة وإجابة السؤال وتحقيق النوال وحفظ العيال وحسن المآل، إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تنزل الرحمات، وبجوده تحقَّق المقاصد والغايات.



(١) أخرجه أحمد (١٦٠١٦، ١٦٩٧٩)، والدارمي (٢٧٧٣)، وابن حبان (٦٣٣، ٦٣٤)، والحاكم (٤/ ٢٤٠)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٦٦٤، ٢٠١٢).



فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

